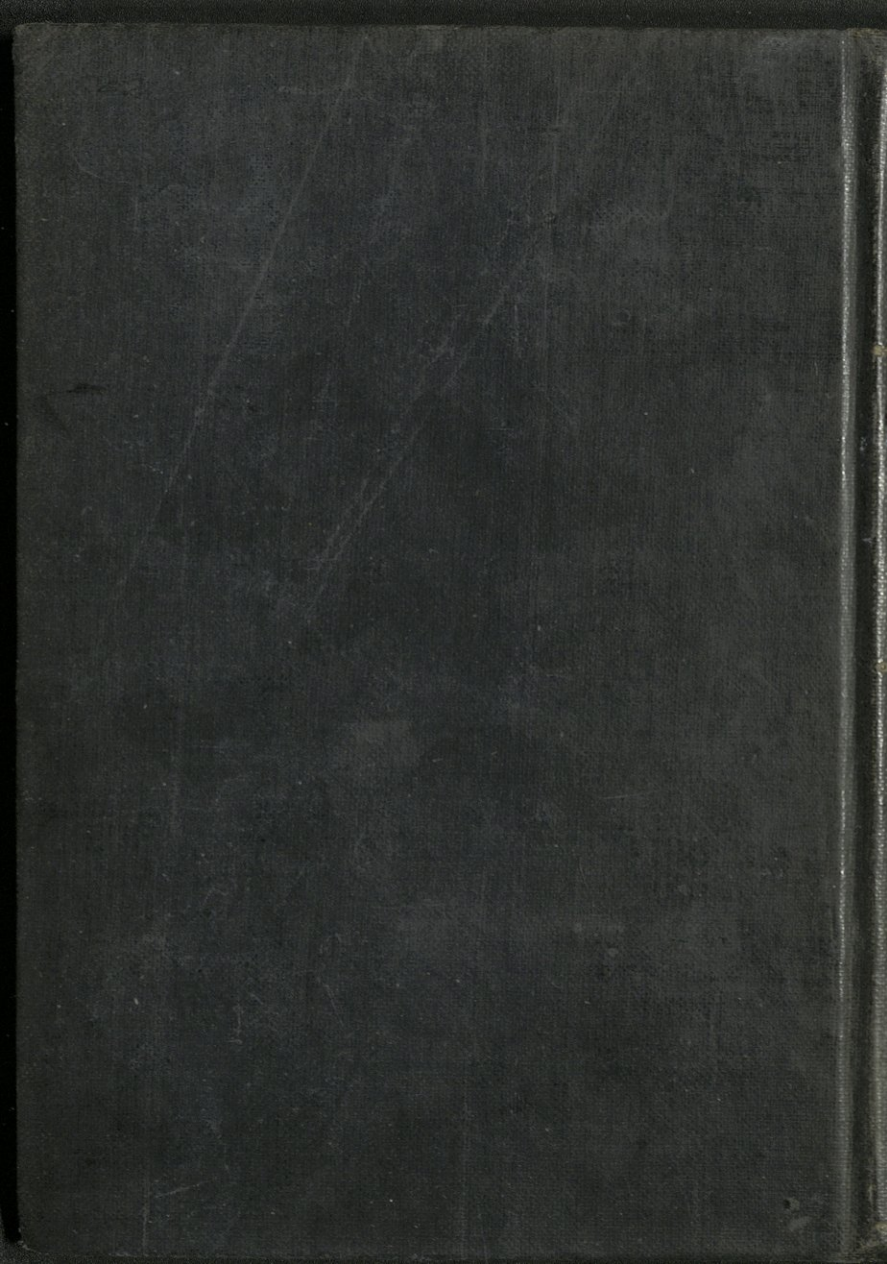
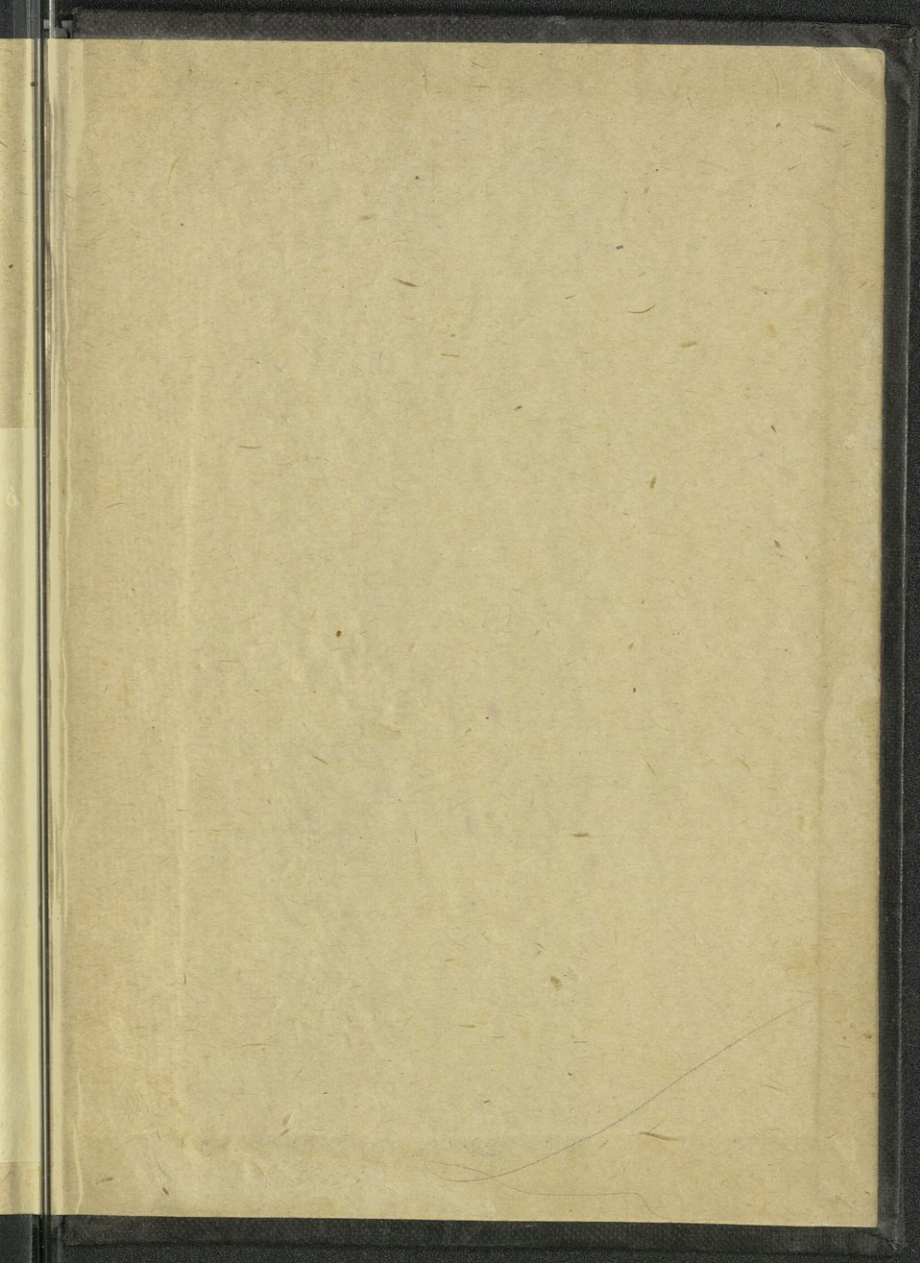




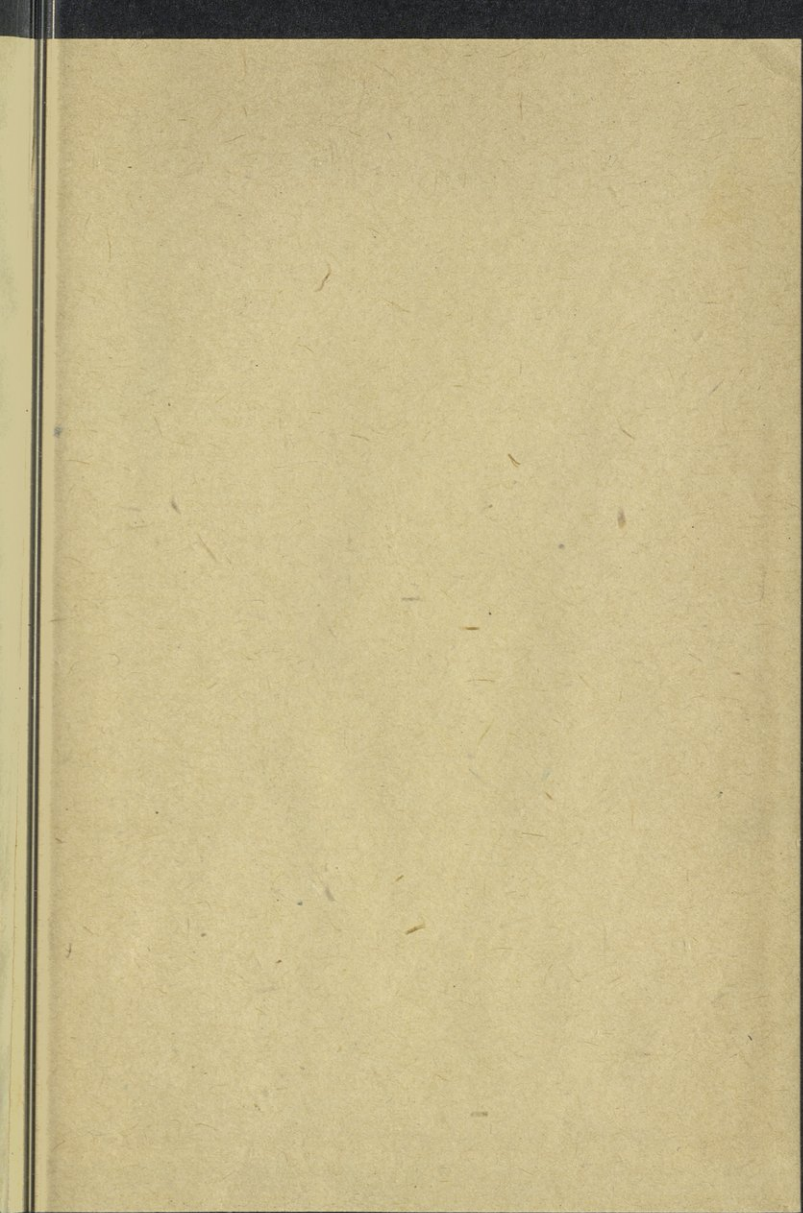


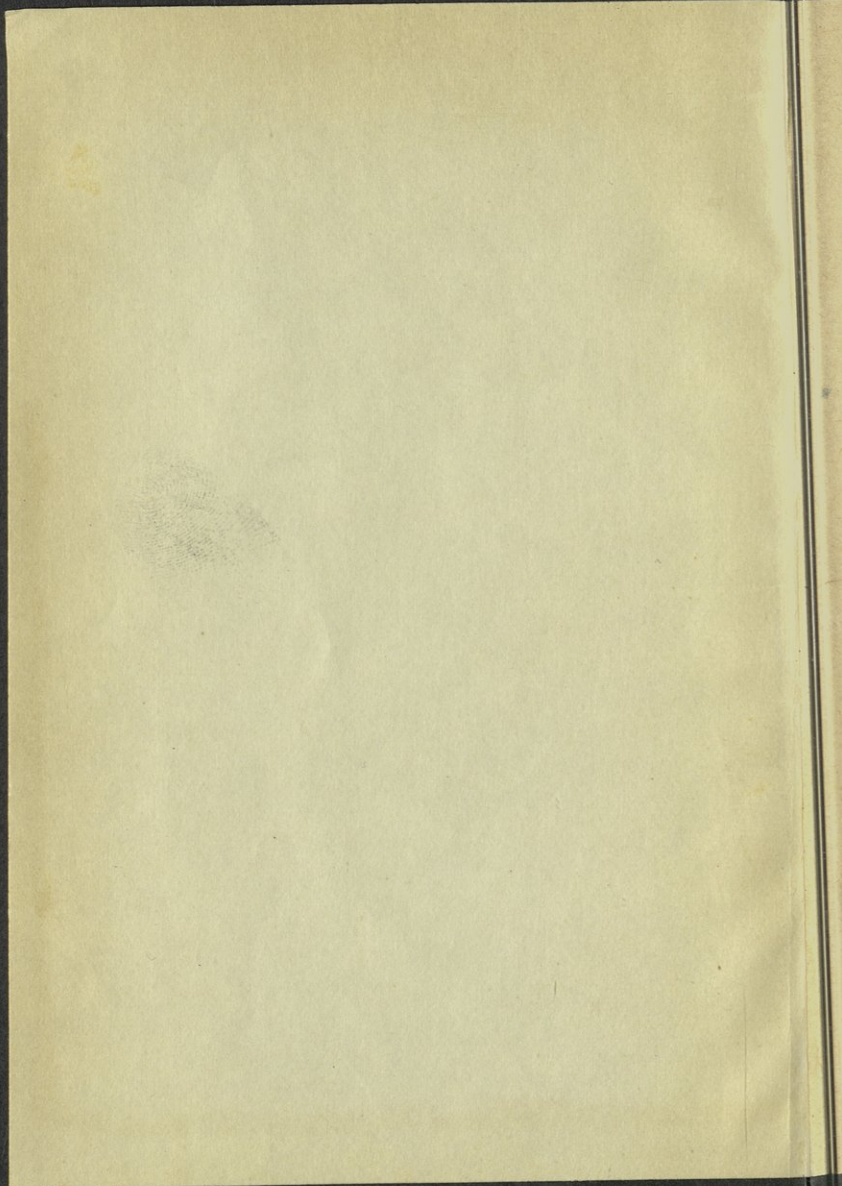
892.708:R56mA

V.5

رفاعي، أحمد فريد
مكتبة القراءة والثقافة

892.708
R56mA
V.5





08
nA

Oct. May 1943

الدكتور أحمد فريد رفاعي
مدير إدارة المطبوعات المصرية

892.708

R56m A

v.5

C.1

الوقت من ذهب

مكتبة القراءة والثقافة الأدبية للجيب

الهاش

٥

58662

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

Cat. May 1943



إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُوبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا
فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ فِي غَدِهِ: لَوْ غَيْرَ هَذَا
لَكَانَ أَحْسَنَ، وَلَوْ زَيْدٌ كَذَا لَكَانَ سَيِّئًا
وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ، وَلَوْ تَرِكَ
هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ،
وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ النَّفْسِ عَلَى
جُمْلَةِ الْبَشَرِ. الْعَمَادُ الْأَصْفَحَانِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

المأثور

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رُسُلِ اللَّهِ ، المقدمة
وَبَعْدُ ، فَهَذَا كِتَابُنَا الْخَامِسُ ، كِتَابُ الْمَأْثُورِ ،
وَإِنَّا لَنَشْكُرُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ أَنْجَزَنَا لَكَ الْمَوْعُودَ .
وَقَدَّمْنَاهُ لَكَ جَنَى شَهِيًّا قَرِيبَ الْمَنَالِ ، نَمِيرٌ^(١)
السَّلْسَالِ ، وَبَسَطْنَا لَكَ فِيهِ طَرَفًا مُوجِزًا عَنِ الْفِكْرَةِ
الْعَالِمِيَّةِ ، الْبَاحِثَةِ عَنِ الْعُظْمَةِ وَالْبُيُوعِ ، وَالنَّوَابِغِ
وَالْعُظَمَاءِ ، وَاضْعَيْنِ يَدَيْكَ نَظَرِيَّاتِ فَرِيقٍ مِنْ

(١) نمير : النمير الماء الصافي . والسلسلة : العذب الجاري في رفق

الْغَرَبِيِّينَ ، وَآرَاءَهُمْ فِي تَحْدِيدِ الْعِظَمَةِ وَالنُّبُوغِ ، وَهَلْ
 فِي الْوُجُودِ نَوَابِغٌ وَعُظَمَاءٌ ، وَكَيْفَ نَعْرِفُهُمْ إِذَا كَانُوا
 مَوْجُودِينَ ؟ وَآيُ الْعَوَامِلِ أَقْوَى أَثَرًا ، وَأَعْظَمُ خَطَرًا
 فِي تَكْوِينِ الْعِظَمَةِ ؟ أَهِيَ عَوَامِلُ الطَّبِيعَةِ الْبَحْتَةِ ^(١)
 وَالْمَوْهَبَةِ الْفِطْرِيَّةِ ؟ أَوْ تَعَالِيمُ الدِّينِ ، وَرِجَالُ الدِّينِ ؟
 ثُمَّ مَا هُوَ حَظُّ الثَّقَافَةِ وَالْأَدَبِ فِي ذَلِكَ التَّكْوِينِ ؟
 وَسَنَضَعُ يَنَى يَدَيْكَ ، مَا قُوبِلَتْ بِهِ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتُ
 مِنْ قُبُولٍ أَوْ رَدٍّ ، وَتَسْلِيمٍ أَوْ نَقْدٍ ، وَبِخَاصَّةِ آرَاءِ
 الْفَيْلَسُوفِ الْأَمْرِيكِ الْكَبِيرِ إيمِرْسُونِ ، الَّذِي كَشَفَ
 فِي بُحُوثِهِ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ نَوَاحِي الْعِظَمَةِ وَالنُّبُوغِ ،
 كَانَتْ مِنْ قَبْلُ مُغْفَلَةً مِنَ الْبَاحِثِينَ ، مُسْتَتْرَةً وَرَاءِ

مَظَاهِرِ الْاجْتِمَاعِ ، وَلَكِنَّهُ وَصَلَ إِلَيْهَا وَحَلَّلَهَا ،
 كَمَا سَتَرَاهُ فِيمَا يَرِدُ عَلَيْكَ — إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى —
 ثُمَّ لَعَلَّكَ بَعْدَ ذِكْرِكَ لِهَذَا الَّذِي قَرَأْتَهُ
 وَاسْتَسْغَتْهُ^(١) مِنْ هَذَا وَذَاكَ ، تَسْأَلُ اللَّهُ لَنَا التَّوْفِيقَ ،
 فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَتَقَدَّمَ إِلَى جَمَاعَةِ الْقُرَاءِ عَامَّةً ،
 وَطَبَقَاتِ الْكُتَّابِ مِنْهُمْ خَاصَّةً ، أُولَى الْبَصَرِ بِالنَّقْدِ
 وَالتَّمْحِصِ ، لَا مُعْتَذِرِينَ عَنْ وَاجِبِ أَغْفَلْنَاهُ ،
 وَلَا عَنْ مَجْهُودٍ ادَّخَرْنَاهُ ، وَإِنَّمَا تَتَقَدَّمُ إِلَى هَؤُلَاءِ
 جَمِيعًا بِأَمْرِ وَاحِدٍ يَعْتَرِفُ بِهِ كُلُّ إِنْسَانٍ مَهْمَا عُلَتْ^(٢)
 كَعْبُهُ ، وَطَالَ بَاعُهُ ، وَاتَّسَعَ اطِّلَاعُهُ ، ذَلِكَ هُوَ
 الْقُصُورُ عَنْ بُلُوغِ الْكَمَالِ ، الَّذِي يُلْزَمُ الْإِنْسَانَ

(١) استسغته : تفهمته بسهولة (٢) علت كعبه : أى سمت

ثقافته فهو كناية

مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ، مَنْ تَلَمَّسَ فِيهِ النَّقْصَ مِنْ
 آيَةٍ نَاحِيَةٍ وَجَدَهُ ، لِأَنَّ الَّذِي اسْتَأْثَرَ بِالْكَامِلِ هُوَ
 الَّذِي تَفَرَّدَ بِالْكَامِلِ . وَإِنِّي ، لِهَذَا وَلِهَذَا وَحْدَهُ ،
 مُعْتَرِفٌ بِقِصَرِ بَاعِي ، وَقُصُورِ ذِرَاعِي فِيمَا قَدَّمْتُهُ
 لَكَ - خَالِصًا مُخْلِصًا - مِنْ إِصْلَاحٍ وَتَشْدِيدٍ ،
 وَثِقَافَةٍ وَتَهْذِيبٍ ، وَإِنِّي مَا زِلْتُ أَكْرِّرُ لَكَ (١)
 قَوْلَ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ :

« لَا يَزَالُ الرَّجُلُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ عَقْلِهِ مَا لَمْ
 يَقُلْ شِعْرًا ، أَوْ يُصَنِّفَ كِتَابًا ، وَقَدْ كَتَبَ جَعْفَرُ
 ابْنُ يَحْيَى إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ ، وَقَدْ وَقَفَ عَلَى سَهْوٍ فِي
 كِتَابٍ وَرَدَ مِنْهُ : اتَّخِذْ كَاتِبًا مُنْصِفًا لِكُتُبِكَ .

كلمة يحيى
 ابن خالد

(١) راجع كتاب معجم الأدباء صفحة ٩ من الجزء الأول

فَإِنَّ الْمُؤَلِّفَ تَنَازَعُهُ أُمُورٌ ، وَتَعْتَوِرُهُ خُرُوقٌ ،
تَشْغَلُ قَلْبَهُ ، وَتَشْعَبُ^(١) فِكْرَهُ ، مِنْ كَلَامٍ
يَنْسِقُهُ^(٢) وَتَأْلِيفٍ يَنْظِمُهُ^(٣) ، وَمَعْنَى يَتَعَلَّقُ بِهِ
يُشْرَحُهُ ، وَحُجَّةٍ يُوضِّحُهَا . وَالْمُتَصَفِّحُ لِلْكِتَابِ
أَبْصَرُ بِمَوَاضِعِ الْخَلَلِ مِنْ مُبْتَدِئٍ تَأْلِيفِهِ . وَأَنَا فَقَدْ
اعْتَرَفْتُ بِقُصُورِي فِيْمَا اعْتَمَدْتُ عَنِ الْعَايَةِ ،
وَتَقْصِيرِي عَنْ الْإِنْتِهَاءِ إِلَى النَّهَايَةِ . فَاسْأَلُ النَّاضِرَ
فِيهِ أَلَّا يَعْتَمِدَ الْعَنْتَ^(٤) ، وَلَا يَقْصِدَ قَصْدَ مَنْ إِذَا
رَأَى حَسَنًا سَتَرَهُ ، وَعَيْنِيًّا أَظْهَرَهُ ، وَلِيَتِمَّ لَهُ بِعَيْنِ
الْإِنْصَافِ ، لَا الْإِنْحِرَافِ ، فَمَنْ طَلَبَ عَيْنِيًّا وَجَدَ

(١) تشعب : من باب قطع . تفرق (٢) ينسقه : من باب نصر

يعطف بعضه على بعض (٣) ينظمه : من باب ضرب يجمعه ويؤلفه

(٤) العنت : محركة . المشقة

وَجَدَ ، وَمَنِ افْتَقَدَ ^(١) زَلَّ أَخِيهِ بِعَيْنِ الرِّضَا ، فَقَدْ
 فَقَدَ ، فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً قَهَرَ هَوَاهُ ، وَأَطَاعَ الْإِنصَافَ
 وَنَوَاهُ ، وَعَذَرَنَا فِي خَطَاٍ إِنْ كَانَ مِنَّا ، وَزَلَّ إِنْ
 صَدَرَ عَنَّا ، فَالْكَلُّ مُحَالٌ ، لِغَيْرِ ذِي الْجَلَالِ ،
 فَالْمَرْءُ غَيْرُ مَعْصُومٍ ، وَالنِّسْيَانُ فِي الْإِنْسَانِ غَيْرُ
 مَعْدُومٍ ، وَإِنْ عَجَزَ عَنِ الْإِعْتِذَارِ عَنَّا وَالتَّصْوِيبِ ،
 فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ ، فَإِنَّا وَإِنْ أَخْطَأْنَا
 فِي مَوَاضِعَ يَسِيرَةٍ ، فَقَدْ أَصَبْنَا فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ،
 فَمَا عَامِنَا فِيمَنْ تَقَدَّمَنا وَأَمَّنَا مِنَ الْأَمَّةِ الْقُدَمَاءِ ،
 إِلَّا وَقَدْ نُظِمَ فِي سِلْكِ أَهْلِ الزَّلَلِ ، وَأُخِذَ عَلَيْهِ
 شَيْءٌ مِنَ الْخَطَلِ ، وَهُمْ ^(٢) هُمْ ، فَكَيْفَ بِنَا مَعَ

(١) افتقد الشيء : طلبه عن غيبته . وفقد الشيء . غاب عنه وعدمه

(٢) هم هم : توكيد . كناية عن كثرة علمهم وسعة اطلاعهم .

قُصُورِنَا وَاقْتِصَارِنَا وَصَرَفِ جُلِّ زَمَانِنَا فِي نَهْمَةٍ^(١)
 الدُّنْيَا . وَطَلَبِ الْمَعَاشِ ، وَنُمُوِّ الرِّيَاشِ ، الَّذِي مُرَادُنَا
 مِنْهُ صِيَانَةُ الْعَرِضِ ، وَبَقَاءُ مَاءِ الْوَجْهِ لَدَى الْعَرِضِ «
 وَإِنِّي لَأَسْتَلِيهِمُ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ ، الْحَيَّ الصَّمَدَ ،
 سَدَادَهُ الْمُفَرَّقَ بَيْنَ خَلْجَةٍ^(٢) الشَّكِّ الْمُرْدِي ،
 وَالضَّلَالِ الْمُوْدِي ، وَوَهْجِ الْيَقِينِ الْهَادِي ، وَنُورِ الْحَقِّ
 الْخَادِي ، بِمَا يَمْخُوظُ الْمَظْلَمَةُ الضَّلَالِ ، وَيُسْطَعُ الرَّاجِحُ
 مِنَ الْمَقَالِ ، وَيُسَهَّلُ صَعْبَ الْمَنَالِ ، بِمُؤَافَاتِنَا بِحُسْنِ
 الْخِصَالِ ، وَسَنَى الْفِعَالِ ، وَتَحَامِدِ الرِّجَالِ ، بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ ،
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا .

محمد فريد رفاعي

دار المأمون في { أول محرم ١٣٥٥
 ٢٤ مارس ١٩٣٦ }

(١) نهمة الدنيا: حاجتها والشهوة فيها (٢) خلجة الشك: ما يختلج
 الصدور من الحيرة

لَمَحَاتُ عَنِ الْعِظَمَةِ وَالنُّبُوغِ وَفَضْلُ النَّوَابِغِ عَلَى الْعَالَمِ



النوابغ
والعظماء

الْإِيمَانُ بِالْعُظَمَاءِ طَبِيعِيٌّ ، لَا عَجَبَ وَلَا غَرَابَةَ
فِيهِ ، وَلَوْ أَنَّ رُفُقَاءَ طُفُولَتِنَا ، وَلِدَاتِ^(١) صِبَانَا ،
وْخُلَطَاءَنَا^(٢) فِي حَدَاثَتِنَا^(٣) ، اسْتَحَالُوا^(٤) عَلَى الدَّهْرِ
عُظَمَاءَ ، وَسَاعَدَتْهُمْ الْأَقْدَارُ ، فَأَضُوا^(٥) نَوَابِغَ يُشَارُ
إِلَيْهِمْ بِالْبَنَانِ ، لَمَا عَجِبْنَا لِهَذَا وَلَا دَهَشْنَا ، بَلْ إِنَّ
جَمِيعَ أُسَاطِيرِ^(٦) الْأَوَّلِينَ ، لَمَلَأَى — زَاخِرَاتُ بَسِيرِ
أَنْصَافِ الْآلِهَةِ^(٧) ، وَسَطَ أَرْوَاحِ مِنَ الشَّعْرِ ، وَزِينَةِ

(١) لِدَاتُ جَمْعُ لِدَةٍ . وَهُوَ الَّذِي مِنْ سَنَكٍ (٢) خُلَطَاءُ نَا جَمْعُ
خُلَيْطٍ . الْمُرَافِقُ وَالْمُشَارِكُ (٣) فِي حَدَاثَتِنَا : فِي أَوَّلِ أَمْرِنَا
(٤) اسْتَحَالُوا : صَارُوا (٥) أَضُوا : صَارُوا (٦) أُسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ : كَتَبَهُمْ (٧) أَنْصَافُ الْآلِهَةِ : الْعَبَاقِرَةُ

مِنَ الْخِيَالِ ، وَمُسْعِدٍ مِنَ الظُّرُوفِ ، وَآيَاتٍ بَارِزَاتٍ
مِنَ الْعَبَقَرِيَّةِ وَالشُّبُوحِ ، وَفِي خُرَافَاتٍ « أَجْمُونًا »^(١) ،
أَكَلَ النَّاسُ التُّرَابَ فَاسْتَعَذُّوهُ^(٢) ، وَطَعِمُوا الثَّرَى^(٣)
فَوَجَدُوهُ لَذًا حُلُومًا هَنِئًا^(٤) .

يُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّ الطَّبِيعَةَ إِنَّمَا وَجَدَتْ لِكُلِّ رَفِيعٍ
وَعَالٍ ، وَجَلِيلٍ وَفَاقٍ ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لِقَائِمَةٌ بِفَضْلِ
الْأَخْيَارِ^(٥) وَالصَّالِحِينَ ، فَهُمْ الَّذِينَ يُحِيلُونَ^(٦) الْأَرْضَ
طَيِّبَةً الْمُقَامِ^(٧) ، هَنِئَةً الْمُسْتَقَرِّ^(٨) ، مُطْمَئِنَّةً الْجَنَابِ .
وَالَّذِينَ عَاشَرُوا الْأَخْيَارَ وَخَالَطُوهُمْ ، وَجَدُوا الْحَيَاةَ
رَغْدَةً ، فَرِحَةً شَهِيَّةَ الْغِذَاءِ .

(١) أجمونا : اسم فيلسوف في العصور القديمة (٢) استعذبوه :
استطابوه واستساعوه (٣) الثرى : التراب (٤) الهنيء : السائغ
(٥) الأخيار : الكثيرو الخير (٦) يحيلون : يصيرون (٧) المقام :
مكان الإقامة (٨) المستقر : موضع الاستقرار (٩) المطمئنة الجنب :
الهادئة الساكنة

إِنَّ الْحَيَاةَ لَتَحُلُوْ وَتُسْتَطَابُ لِإِيْمَانِنَا بِوُجُوْدِ الْأَخْيَارِ
 فِيهَا ، وَالْأَطْهَارِ وَالصَّالِحِيْنَ ، وَنَحْنُ بِنِي الدُّنْيَا نَزَاعُوْنَ ^(١)
 بِالْحَقِيْقَةِ أَوْ بِالْخِيَالِ ، أَوْ بِالرَّضَى بِالْحَاضِرِ الْوَاقِعِ ،
 أَوْ بِتَصَوُّرِ الْمَثَلِ الْعَالِي وَالْكَمَالِ ، إِلَى الْعَيْشِ مَعَ
 مَنْ هُمْ أَتَمَّى ^(٢) شَأْنًا مِنَّا ، وَبِالْمُقَامِ بِجَانِبِ أَخْيَارِنَا
 وَأَفْاضِلِنَا ، وَالْعُظَمَاءِ فِيْنَا ، حَتَّى لِنُسَمِّيَ أَطْفَالِنَا بِأَسْمَائِهِمْ ،
 وَنُطْلِقَ عَلَى دِيَارِنَا وَأَرَاضِينَا الْقَابَهُمْ ^(٣) . بَلْ إِنْ أَسْمَاءُهُمْ
 لَتَنْدَمِجُ ^(٤) فِي اللُّغَةِ ، وَيَجْرِي عَلَيْهَا التَّصْرِيفُ ^(٥)
 وَالنَّحْتُ ^(٦) — وَالِاشْتِقَاقُ ^(٧) . وَإِنَّ مُخْلَفَاتِهِمْ

(١) نزاعون : ميالون (٢) أسمى : أرفع (٣) الألقاب جمع لقب :
 وهو ما أشعر برفعة المسمى أو وضعته (٤) لتندمج : لتدخل (٥) التصريف :
 التغيير (٦) النحت : الأخذ والتركيب . « كالبسمة » في بسم الله
 الرحمن الرحيم . (٧) الاشتقاق : أخذ كلمة من أخرى

وَأَثَارَهُمْ وَصُورَهُمْ، لَمْ حَفُوظَةً وَمُقْتَنَاتَهُ، وَمُزِينَاتٍ دُورَنَا،
وَجُدْرَ حُجْرَاتِنَا، وَإِنَّ أَحْدَاثَ^(١) الْيَوْمِ وَظُرُوفَهُ،
وَأَحَادِيثَهُ وَمَجْرَاهُ، لَتَذَكَّرُنَا بِأَقَاصِيهِمْ^(٢)، وَتُورِدُ
عَلَى خَوَاطِرِنَا ذِكْرِيَاتِهِمْ وَنَوَادِرِهِمْ، وَطَرَائِفَ الْأَخْبَارِ
عَنْ حَيَاتِهِمْ .



إِنَّ الْبَحْثَ عَنِ الْعَظِيمِ ، هُوَ حُلْمُ الشَّبَابِ ، أَمَانِي
الشباب
وَأُمْنِيَّةُ^(٣) الصَّبَا ، وَهُوَ كَذَلِكَ مَشْغَلَةُ الرُّجُولَةِ ،
وَمُرْتَادُهَا^(٤) وَمُنْتَجِعُهَا ، وَإِنَّا لَنَجُوبُ^(٥) الْأَقْطَارَ ،
وَنَذَرُغُ الْأَرْضَ ، وَلَنَسِيحُ^(٦) فِي الْأَمْصَارِ ، وَلَنَضْرِبُ فِي

(١) أحداث جمع حدث . الأمر العظيم (٢) أقاصيص جمع
أقصوصة وهي ما يروى عنهم . طرائف جمع طريفة : وهي المستحسن
النادر (٣) الأمنية : البغية وما يتمنى (٤) مرتادها : مكان الارتداد .
والارتداد : الطلب والتفقد (٥) لنجوب : لنقطع (٦) نسيح : نسير

الآفاق، لِنَجِدَ آثارَهُ ، وَنَشْهَدَ فِعَالَهُ ، أَوْ إِذَا أَعُوزَتْنَا
وَلَمْ نَسْتَطِعْ لَهَا طَلَبًا ، قَنَعْنَا بِمُتَعَةٍ لَمَحَةٍ مِنْهُ ،
وَنَظَرَةٍ سَرِيعَةٍ خَاطِفَةٍ إِلَيْهِ . وَتَمَلُّيَةِ الْعَيْنِ فِي لَمَعَةٍ
الْبَرْقِ مِنْ وَجْهِهِ وَصَفْحَتِهِ ، وَلَكِنَّا فِي مُلْتَمَسِنَا
وَبَحْثِنَا ، قَدْ يُلْهِينَا طَلَبُ الْعَيْشِ ، أَوْ تَصْرِفُنَا هَاهُمْ ^(١)
الْحَيَاةِ ، وَدَوْرَانُ عَجَلَةِ الْحَظِّ وَالْقَدَرِ ، وَالتَّمَاسُ
الْمَالِ وَالتَّرَاءِ ^(٢) .

وَإِنَّكَ لَتَقُولُ : إِنَّ الْإِنْكِيزَ لَعَمَلِيُونَ ، وَإِنَّ
الْأَلْمَانَ لَكُرْمَاءَ مَسَامِيحٍ ^(٣) ، وَإِنَّ الْمُنَاخَ فِي بِلَنْسِيَةِ
مِنَ الْأَنْدَلُسِ لَطَيِّبٌ صَحْوٌ ، وَإِنَّ فِي جِبَالِ كَذَا
مَنَاجِمَ الذَّهَبِ تَطْلُبُ الْمُحْتَفِرِينَ . . . نَعَمْ وَايْمُ اللَّهِ ،

(١) هامم الحياة : شواغلها (٢) التراء : الغنى (٣) مساميح

جمع مسماح : وهو كثير الجود والعطاء

وَلَكِنْ لَا أَجُوبُ الْأَمْصَارَ ، وَلَا أَضْرِبُ فِي
 الْأَرْضِ بِعَصَا التَّسْيَارِ^(١) ، لِأَلْقَى الْكِرَامَ ، وَأَقَعَ
 عَلَى الْمَسَامِيحِ ، وَأُصِيبَ السَّرَوَاتِ وَالْأَغْنِيَاءَ ، وَلَا
 لِأَشْهَدَ السَّمَاءَ صَحْوًا ، وَالْأَفُقَ مُشْرِقًا ، وَالْأَهْوِيَةَ طَيِّبَةً
 عَلَائِلَ^(٢) . وَسَبَائِكَ الْإِبْرِيزِ^(٣) وَافِرَةً كَثِيرَةً ،
 وَلَكِنِّي أَتَمِسُّ شَيْئًا وَاحِدًا ، وَهُوَ لِقَاءُ الْعُظَمَاءِ ،
 وَالْوُقُوعُ عَلَى أُولَى الْفَضْلِ وَالْخَيْرِ ، بَلْ لَوْ أَنَّ
 مَغْنَاطِيْسًا^(٤) أَوْ إِبْرَةً أَوْ بُوصْلَةً ، تَدُلُّنِي عَلَى مَوَاضِعِ
 كُلِّ عَظِيمٍ ، الْعِظَمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ ، وَتَهْدِي خُطَايَ إِلَى
 مَكَانِ كُلِّ نَابِغَةٍ ، وَأَخِي فَضْلٍ ، وَيَسَارٍ نَفْسِيٍّ ،

(١) التسيار بفتح التاء مصدر بمعنى السير (٢) علائل جمع عليلة
 (٣) الابريز : الذهب الخالص (٤) المغناطيس : معدن فيه قوة
 تجذب الحديد وبعض المعادن .

وَمَزَايَا طَيِّبَاتٍ نَادِرَاتٍ ، لَنَزَلْتُ عَنْ كُلِّ مَا أَمْلِكُ ،
وَبَضَضْتُ^(١) بِأَخْرِ مَا أَحْرَزُ^(٢) ، وَبَعْتُ كُلَّ
مَا عِنْدِي ، لِكَيْ أَشْتَرِيَ تِلْكَ الْإِبْرَةَ الْمَغْنَطِيسِيَّةَ ،
وَأَزَكَبَ الطَّرِيقَ إِلَى مَوَاطِنِ الْعُظْمَةِ مِنَ السَّاعَةِ ،
غَيْرَ مُسْتَأْنٍ وَلَا مُتَمَهِّلٍ . . .



إِنَّ فَضْلَ الْعُظْمَاءِ لِيُضْفَى^(٣) عَلَى الْجِيلِ كُلِّهِ ،
وَيَشْمَلُ الْأَفُقَ بِجُمْلَتِهِ ، وَيَعْمُرُ الْوَسْطَ مِنْ جَمِيعِ
جِهَاتِهِ . وَإِنَّ الْعِلْمَ بَأَنَّ فِي الْمَدِينَةِ رَجُلًا اخْتَرَعَ
طَرِيقًا حَدِيدِيًّا ، لِيَرْفَعَ مِنْ شَأْنِ أَهْلِهَا جَمِيعًا ، وَيَنْشُرُ
فَضْلَهُمْ عَامَّةً ، عَلَى حِينٍ لَا فَضْلَ وَلَا شَأْنَ وَلَا قِيَمَةَ
وَلَا قَدَرَ لِبَلَدٍ كَثِيرِ السَّكَّانِ ، مُزْدَحِمٍ بِالْأَهْلِ

الْعُظْمَاءُ
فِي
أَجْيَالِهِمْ

(١) بضضت: جدت وأعطيت (٢) ما أحرز: أدخر (٣) ليضفى: ليزيد

وَالْأَنَاسِيَّ^(١) ، إِذَا هُمْ كَانُوا نِكَرَاتٍ خَامِلِينَ ، وَصِغَارًا
أَقْزَامًا^(٢) ضِيَالِ الْأَقْدَارِ ، بَلْ إِنَّهُمْ لَيَرْوَحُونَ^(٣)
وَهُمْ كَذَلِكَ^(٤) أَشْبَهُ شَيْءٍ بِقُرَى النَّمْلِ ، وَجَبُوشِ
الذُّبَابِ ، وَأَسْرَابِ الْهُوَامِ^(٥) ، كُلَّمَا تَكَاثَرُوا ، كَانَ
الشَّرُّ فِي التَّكَاثُرِ ، وَكُلَّمَا نَمَوْا كَانَ السُّوءُ فِي النَّمَاءِ .

إِنَّ الدِّينَ الَّذِي نُؤْمِنُ بِهِ ، يَأْمُرُنَا بِحُبِّ الْعُظَمَاءِ ،
وإِعْزَازِ أَوْلَى الْأَمْرِ مِنَّا ، وَالْكِبَارِ الْهُدَاةِ فِينَا . وَأَمَّا
الْآلِهَةُ فِي الْخُرَافَاتِ وَالْأَسَاطِيرِ ، فَهَمَّ فِي عَالَمِنَا الْحَدِيثِ
عُظْمَاؤُنَا وَكِبَرَاؤُنَا ، وَنَوَا بَعْنًا فِي ضِيَاءِ جَدِيدٍ ، وَصُورِ
مُحَدَّثَةٍ ، وَنَحْنُ إِنَّمَا نَفْرِغُ^(٦) جَمِيعَ آيَاتِنَا وَأَوْعِيَتِنَا

(١) الأناسى جمع لإنسان (٢) أقزام : جمع قزم : وهو الصغير الجسم
(٣) يروحون : يصيرون (٤) كذلك : أى على حالتهم المتقدمة
(٥) الهوام : الحشرات (٦) نفرغ : نصب

فِي قَالِبٍ فِذٍّ^(١) وَاحِدٍ . فَإِنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَالْمَسِيحِيَّةَ
وَالْبُودِيَّةَ ، وَالِدِّيَّانَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ ، هِيَ جَمِيعًا سِوَاهُ فِي
بِنَاءِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ ، وَسَيْرِ نَشَأَتِهِ وَتَكَوُّنِهِ . وَإِنَّ
الطَّالِبَ الَّذِي يَلْتَمِسُ^(٢) دِرَاسَةَ التَّارِيخِ ، لَأَشْبَهُ شَيْءٍ
بِرَجُلٍ مُسْتَقِلٍّ فِي جَوَابِ مَشْجَرٍ^(٣) لِلشَّيَابِ ، أَوْ حَانُوتٍ
لِبَيْعِ الْفُرُشِ وَالْبُسُطِ ، فَإِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ
اِقْتَنَى طَرِيفًا ، وَابْتَاعَ^(٤) جَدِيدًا ، وَأَصَابَ مُبْتَكِرًا^(٥) ،
وَوَظَفَرَ بِمُسْتَحْدَثٍ ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ ذَهَبَ إِلَى الْمَصْنَعِ الَّذِي
يَصْطَنَعُ^(٦) تِلْكَ السَّلْعَ الْقَشْبَ^(٧) ، لَوَجَدَ أَنَّ ثَوْبَهُ
الَّذِي فَرَحَ بِهِ ، وَظَنَّ أَنَّهُ الْجَدِيدُ الْمُبْتَكَرُ الْمُبْتَدَعُ ،

(١) الفذ : الفرد الذي لا نظير له (٢) يَلْتَمِسُ : يطلب

(٣) مشجر : محل التجارة (٤) ابتاع : اشترى (٥) المبتكر : المخترع

(٦) يصطنع : يصنع (٧) القشب : جمع قشيب : وهو الجديد

لَمْ يَكُنْ سِوَى تَقْلِيدٍ وَاحْتِدَاءٍ ، بَلْ تَكَرَّرَ لِلصُّورِ
وَالشُّكُولِ وَالتَّهَاوِيلِ ، الْمُنْقُوشَةِ عَلَى جُدْرَانِ الْأَهْرَامِ
فِي طَيِّبَةِ الْقَدِيمَةِ .

إِنَّ دِينَنَا أَوْ إِيْمَانَنَا بِاللَّهِ ، هُوَ أَرْوَعٌ ^(١) تَطْهِيرٌ
لِلْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ ، وَأَسْمَى تَنْقِيَةٍ وَأَرْفَعُ تَصْفِيَةٍ ، وَإِنَّ
الْإِنْسَانَ لَيْسَ فِي مَيْسُورِهِ وَلَا فِي وَسْعِهِ ، وَلَا فِي
مَقْدُورِهِ ، أَنْ يُصَوِّرَ أَوْ يَصْطَنِعَ أَوْ يُفَكِّرَ فِي شَيْءٍ
غَيْرِ الْإِنْسَانِ ، وَإِنَّهُ لَيَعْتَقِدُ أَنَّ الْعُنَاصِرَ كُلَّهَا مُنْبَعَثَةٌ
مِنْ فِكْرِهِ ، رَاجِعَةٌ فِي أَصْلِهَا إِلَى وُجْدَانِهِ وَعَقْلِهِ ،
بَلْ إِنَّ فَلَاسِفَتَنَا ، إِنَّمَا هِيَ الَّتِي تَجْمَعُ الْجَوْهَرَ الْأَعْظَمَ
أَوْ تُوزَعُّهُ ، وَتَهْتَدِي إِلَيْهِ فِي الْخَلِيقَةِ مُنْحَصِرًا ،
أَوْ مُنْتَشِرًا عَلَى السَّوَاءِ .

(١) أروع من الروعة : وهى الجلال والعظمة



مدارج
الثقافة

وَإِذَا نَحْنُ الْآنَ انْتَقَلْنَا إِلَى الْبَحْثِ فِي إِفْضَالِ
بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ . وَمَزَايَا النَّاسِ عَلَى النَّاسِ ، وَحُدُودِ
هَذَا الْإِفْضَالِ ، وَمُنْخَصَرِ هَذِهِ الْمَزَايَا ، فَلْنَحْذَرِ
خَطَرَ الدَّرَاسَاتِ الْحَدِيثَةِ ، وَلْنَبْدَأْ مِنَ الْأَقْلِّ وَالْأَصْغَرِ .
قَبْلَ أَنْ نَبْحَثَ عَنِ الْأَرْفَعِ وَالْأَشْمَى ، بَلْ يَنْبَغِي
أَلَّا نَخْتَلِفَ فِي أَمْرِ الْحُبِّ ، أَوْ نُنْكِرَ وُجُودَ الْغَيْرِ ،
وَلَسْتُ أَدْرِي — وَائِيْمُ اللَّهِ — مَاذَا كَانَ مُمَكِّنًا أَنْ يَحْدُثَ
لَنَا ، وَمَاذَا كَانَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَصِيرُنَا ، إِذَا لَمْ
تَسِرْ بِنَا الْحَيَاةُ كَمَا سَارَتْ ، وَلَمْ تَقْسِمْنَا طَرَائِقَ ^(١)
وَطَبَقَاتِ ^(٢) ، وَلَمْ تَجْعَلْ كُلًّا مِنَّا عَوْنًا ^(٣) لِسِوَاهُ ،

(١) طرائق جمع طريقة . أى فرقا (٢) طبقات جمع طبقة : وهى
المرتبة (٣) « أى معينا »

وَسِوَاهُ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ ، وَإِنِّي لَأَسْتَطِيعُ الشَّيْءَ لِعَوْنِ
 غَيْرِي ، وَأَعْجِزُ عَنْهُ بِمُفْرَدِي ، وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ
 لَكَ ، مَا لَيْسَ فِي اسْتَطَاعَتِي أَنْ أَقُولَهُ أَوْلاً لِنَفْسِي ،
 فَإِنَّ النَّاسَ وَاللَّهَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِعِدَسَاتٍ ^(١) بِلَوْرِيَّةٍ
 نَقَرًا مِنْ خِلَالِهَا خَوَاطِرَنَا ، وَنَشْهَدُ صُورَ
 أَحْلَامِنَا ^(٢) وَأَفْكَارِنَا ، وَكُلُّ أَمْرٍ يَلْتَمِسُ عِنْدَ
 سِوَاهُ الصِّفَاتِ وَالْخُلَاتِ ، وَالْمِيزَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ
 عِنْدَهُ . وَكُلَّمَا كَانَتْ طَبِيعَةُ الْمَرْءِ قَوِيَّةً ، كَانَ
 الْمُنْبَعِثُ مِنْهَا وَالْمُنْعَكِسُ عَنْهَا قَوِيًّا مِثْلَهَا ، فَلَنَلْتَمِسْ
 أَصْفَى الصِّفَةِ ، وَأَتَقَى الْمَزِيَّةَ ، وَلِنَدْعِ الْأَخْيَارَ

(١) عدسات مجاهر زجاجية تستعمل في تكبير الأشياء أو تقريبها .
 وبلورية مأخوذة من البلور (٢) أحلامنا : عقولنا

الْمَأْلُوفِينَ ، وَالْأَفْضَلَ الْإِعْتِيَادِيَيْنَ جَانِبًا ، فَإِنَّ
 أَكْبَرَ الْفَارِقِ بَيْنَ النَّاسِ ، هُوَ فِي قِيَامِ كُلِّ امْرِئٍ
 بِشَأْنِهِ ، وَأَدَائِهِ لِمَا هُوَ مُيَسَّرٌ لَهُ ، وَالْإِنْسَانُ هُوَ
 ذَلِكَ النَّبَاتُ الطَّيِّبُ ، الَّذِي يَنْمُو مِنَ الدَّاخِلِ
 كَالنَّخِيلِ ، وَشَأْنُ كُلِّ امْرِئٍ سَهْلٌ عَلَيْهِ ، مَيْسُورٌ
 لَهُ ، وَقَدْ يَكُونُ مُسْتَحِيلًا عَلَى سِوَاهُ ، إِذْ مَا أَسْهَلَ
 عَلَى الشَّكْرِ أَنْ يَكُونَ حُلُوءًا ، وَعَلَى الْمَلَحِ أَنْ
 يَكُونَ أَجَاجًا مُرًّا ، وَإِنَّا لَنَتَعَبُ وَنَكْدُ وَنَجْتَهِدُ
 لِنُوقِعَ وَنَحْتَبِلَ ^(١) وَتَقْتَنِصَ مَا هُوَ مِنْ ذَاتِهِ وَاقِعٌ
 فِي يَدِنَا ، مُسْتَسْلِمٌ لَنَا ، هَيْئٌ مِنْ نَفْسِهِ عَلَيْنَا ،
 وَلَكِنِّي أَعُدُّهُ عَظِيمًا — ذَلِكَ الَّذِي يَسْكُنُ أَفْقًا

(١) ونحتمل : نأخذ الصيد بالرجال « كالشبكة »

مِنَ الْفِكْرِ أَشْمَى مِنْ أَفْقِنَا ، وَيَحْتَلُّ مَقَامًا عَلِيًّا
 يَصْعَدُ النَّاسُ إِلَيْهِ مُجْهَدِينَ مَكْدُودِينَ ^(١) ،
 لَا يَكَادُونَ يَبْلُغُونَهُ فِيهِ ، أَوْ يَتَلَقَّوْنَ بِهِ عِنْدَهُ .
 وَإِنَّهُ لَيَكْفِي أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ لِيرَى الْأَشْيَاءَ عَلَى
 حَقَائِقِهَا ، بَلْ مُجَهَّرَةٌ مُكَبَّرَةٌ لَتَبْدُو ^(٢) لَهُ مِنْهَا الدَّقَائِقُ
 وَالْجُزْئِيَّاتُ وَالْتَفَاصِيلُ ، عَلَى حِينٍ يَذْهَبُ النَّاسُ
 يُكْدُونِ الْخَوَاطِرَ ، وَيُتَعَبُونَ الْعُقُولَ وَالْقَرَائِحَ فِي
 الْمُحَاوَلَاتِ ، وَتَصْحِيحِ الْغَلَطَاتِ ، وَتَكَرُّارِ
 التَّجَرِبَاتِ ، وَيَرْقُبُونَ بَعَيْنِ الْيَقْظَةِ مَظَانَ ^(٣) الشُّبُهَاتِ ،
 وَيَلْتَمِسُونَ مَوَاضِعَ الْأَوْهَامِ ، وَمَسَالِكَ الْخَطَا وَالضَّلَالِ

(١) مكْدُودِينَ : متعبين (٢) لتبدو : لتظهر (٣) مظان الشبهات
 أماكنها .

لِيَتَنَكَّبُوها^(١) ، أَوْ يَخْلُصُوا نَجِيًّا مِنْ دُرُوبِهَا^(٢)
الْمُتَشَعِّبَةِ ، وَمَتَاهَاتِهَا^(٣) الْبَعِيدَةِ .



مهمة
العظيم

الْعَظِيمُ لَا يَتَكَلَّفُ لَنَا شَقًّا مِنَ الْأَمْرِ ، وَلَا
عَسِيرًا مِنَ الْمُحَاوَلَةِ ، وَلَا يُوَوِّدُهُ^(٤) أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ
يُزَكِّيَنَا^(٥) أَوْ يُعَلِّمَنَا ، لِأَنَّ ذَلِكَ شَأْنُهُ ، وَهُوَ عَلَيْهِ
هَيِّنٌ ، وَهَلْ تَحْتَاجُ الْعَادَةُ الْحُسْنَاءَ إِلَى الْكَدِّ وَالْجُهْدِ
لِتَبْدُوَ بِحُسْنِهَا عَلَى أَعْيُنِنَا ، وَتَطْبَعَ صُورَتِهَا الْبَاهِرَةَ
الْجَمِيلَةَ عَلَى أَبْصَارِنَا ؟

وَلَكِنْ أَيْ فَضْلٍ هِيَ مُسَدِّتُهُ^(٦) إِلَيْنَا بِهَذَا ،
وَأَيْ صَنِيعٍ^(٧) هِيَ مُوَدِّتُهُ لَنَا ؟ ؟

(١) ليتنكبوها : ليحيدوا ويعرضوا عنها (٢) من دروبها : طرقها

(٣) متاهات : جمع متاهة . وهي المفازة (٤) يُوَوِّدُهُ : يثقله

(٥) يزكينا : يميننا ويطهرنا (٦) مسديته : مؤدبته (٧) الصنيع : المعروف

فَإِذَا وَعَيْتَ ذَلِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْعَظِيمَ النَّفْسِ ،
 الْحَكِيمَ الرُّوحَ ، أَكْثَرُ مِنْ هَذَا الَّذِي تَتَكَلَّفُهُ
 الْعَادَةُ الْفَاتِنَةُ ، لِتَحْمِلَ صِفَتَهَا إِلَيْنَا ، وَتَجْعَلَ مَزَايَاهَا
 تَنْتَقِلُ إِلَيْنَا ، وَتُشْعِرَنَا بِسَجَايَاهَا^(١) وَخَطَرِهَا وَمَكَانِهَا ،
 وَمَا لَدَيْهَا ، وَكُلُّ امْرِئٍ أَفْضَلُ شَيْءٍ لَدَيْهِ أَسْهَلُهُ ،
 وَأَحْسَنُ مَا فِيهِ أَيْسَرُهُ وَأَبْعَدُهُ مِنَ الْكُلْفَةِ ، وَأَنَاهُ^(٢)
 عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى الْمُحَاوَلَةِ ، وَمَا لَا جَهْدَ فِيهِ وَلَا
 اضْطِنَاعَ وَسَائِلَ ، وَلَا اسْتِعَانَةَ بِأَسَالِيبَ — هُوَ الْعَظِيمُ
 الْأَثَرُ ، الْكَبِيرُ السُّلْطَانُ عَلَى النَّفُوسِ وَالْأَرْوَاحِ
 وَالْأَذْهَانِ ، وَمَا الْعَظِيمُ إِلَّا عَظِيمٌ مِنَ الْفِطْرَةِ
 وَالطَّبِيعَةِ وَالتَّكْوِينِ ، بَلْ إِنَّ الْعَظِيمَ هُوَ الَّذِي —

(١) السجاياء جمع سجية : وهى الطبيعة والخلق (٢) أبعد

لَا يُذَكِّرُنَا بِغَيْرِهِ ، وَلَا يُشْعِرُنَا يَوْمًا بِالْحَاجَةِ
إِلَى سِوَاهُ .

وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْعَظِيمُ يَمْتُ^(١) إِلَيْنَا
بِصِلَةٍ ، وَيَرْتَبِطُ بِنَا بِقُرْبَةٍ أَوْ لَحْمَةٍ ، وَتَجِدُ حَيَاتِنَا
عِنْدَهُ تَأْوِيلًا لِمَعَانِيهَا ، وَتَفْسِيرًا لِمَغْزَاهَا ، وَكَشْفًا
لَأَسْرَارِهَا ، وَتَعْيِيرًا عَنْ غَايَتِهَا وَغَرَضِهَا ، وَلَيْسَ
كُلُّ إِنْسَانٍ قَدِيرًا عَلَى أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَى النَّاسِ مَا عِنْدَهُ
مِنَ الْعِلْمِ ، وَمَا لَدَيْهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ ، وَلَكِنَّ هُنَاكَ
أَنَاسًا هُمْ بِشَخْصِيَّاتِهِمْ وَفِعَالِهِمْ ، الْأَجْوِبَةُ عَلَى الْأَسْئَلَةِ
الْمُحِيرَةِ لَنَا ، وَالْحُلُولُ الْبَادِهَةُ^(٢) لِلْأَلْغَازِ وَالْمُعْصِيَّاتِ^(٣)

(١) يمت : ينتسب ويتصل (٢) البادية : التي لا تحتاج الى تفكير
والألغاز جمع لغز : وهو من الكلام ما كان ملتبساً مشكلاً (٣) المعصيات
من الكلام : ما غمض معناه وخفي

الَّتِي تَضِلُّ فِيهَا أَذْهَانُنَا ، وَهُمْ تَفَاسِيرُ الْحَيَاةِ وَشُرُوحُهَا ،
وَأَدِلَّتْهَا وَهْدَاتُهَا ، وَقَدْ يَكُونُ فِي النَّاسِ أَفْرَادٌ أَفْذَادٌ
يَلُوحُونَ كَأَنَّهُمْ اِحْتِمَالَاتٌ حَسَنَةٌ ، أَوْ رَجَاءٌ طَيِّبٌ
فِي الْعَدِ ، وَمُمَكِّنَاتٌ صَالِحَةٌ ، وَلَكِنَّهُمْ ضِعْفَاءُ الْحَوْلِ
بِالنِّسْبَةِ لِأَنفُسِهِمْ ، وَلِعُصُورِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ ، إِذْ لَعَلَّهُمْ
مَلْهَاءُ^(١) غَرَائِرَ خَفِيَّةٍ ، وَفُكَاهَةٌ قِرَانٍ^(٢) لَا تَتَّصِلُ
بِالْأَرْضِ وَلَا عِلَاقَةً لَهَا بِعَالَمِنَا الْمَحْسُوسِ ، فَهُمْ
لَا يَسُدُّونَ ثُغُورًا^(٣) فِي حَيَاتِنَا ، وَلَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْ
شُعُورِنَا ، وَلَا يَفُونَ بِحَاجَاتِنَا ، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَسُؤُوا
بِالْعُظَمَاءِ الَّذِينَ نُرِيدُهُمْ ، وَإِنَّمَا الْعُظَمَاءُ هُمُ الَّذِينَ

(١) ملهاة غرائر : أى مكناها (٢) قران : أى الكواكب علوية ذات
تأثير خاص فى العالم الأرضى (٣) لا يملئون فراغاً

أَدْنَى مَنْ يَكُونُونَ إِلَيْنَا وَهُمْ أَبَدًا مِنَّا قَرِيبٌ ، وَإِنَّا
لَنَعْرِفُهُمْ بِمَجَرَّدِ رُؤْيَيْهِمْ ، وَنَتَّبِعُهُمْ مِنْ أَوَّلِ نَظَرَةٍ
إِلَيْهِمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَجِئُونَ إِلَيْنَا ، لِأَنَّا نَنْتَظِرُ مَجِيئَهُمْ .
وَنَتَقَرَّبُ ظُهُورَهُمْ ، فَإِذَا جَاءُوا أَخَذُوا مِنَّا أَمَّا كِنَهُمْ ،
وَاحْتَلُّوا لَدَيْنَا مَوَاضِعَهُمْ كَأَنَّمَا كَانُوا مِنَّا عَلَى مَوْعِدٍ
مَضْرُوبٍ .

إِنَّ كُلَّ مَا هُوَ خَيْرٌ وَصَالِحٌ ، هُوَ كَذَلِكَ
كَبِيرُ الْأَثَرِ ، مَحْبُوبٌ مُحَدَّثٌ ، خَالِقٌ مُنْشِئٌ ، بَارِزٌ
الْوُجُودِ . وَهُوَ يَجِدُ مَكَانَهُ ، وَيَفْسَحُ لِمَنْزِلِهِ ،
وَيُهَيِّئُ لِمَقَامِهِ . وَيَصْطَنِعُ ^(١) الْأَعْوَانَ وَالْخُلَفَاءَ ،
وَالنَّفَاحَةَ الصَّالِحَةَ السَّلِيمَةَ تُنْبِتُ بُدُورًا ، وَأَمَّا

(١) يصطنع الخ : يتخذهم أنصاراً وعونة .

الْفَاسِدَةُ فَلَا تُخْرِجُ شَيْئًا ، وَمَتَى كَانَ الْمَرْءُ فِي
 مَوْضِعِهِ ، كَانَ الطَّيِّبَ الصَّالِحَ ، وَالْخَصِيبَ الْمُمْرِعَ ^(١) ،
 وَالسَّاحِرَ الْمَغْنَاطِيْسِيَّ ، وَالغَازِيَّ النَّفُوسَ بِقَاهِرِ غَايَتِهِ ،
 وَعَظِيمِ مَقْصِدِهِ وَبُعَيْتِهِ ، وَإِنَّ النَّهْرَ لَيَصْطَنِعُ ضِفَافَهُ ،
 وَالْجُدُولَ الْفَيَاضَ لَيُوجِدُ مَجْرَاهُ وَعِدْوَتِيهِ ^(٢) ، وَكَذَلِكَ
 كُلُّ فِكْرَةٍ صَالِحَةٍ طَبِيعِيَّةٍ تَخْلُقُ مَجَارِيَهَا وَأَقْنِيَتَهَا ،
 وَتُرْعَاهَا وَجَدَاوِلَهَا ، وَهِيَ الْمُرْحَبُ بِهَا ، الْمَفْرُوحُ
 بِمَجِيئِهَا ، الْمُعْتَرُ مَتَجَرُّهَا ، وَإِنَّ لَهَا لَخَصَادًا حَسَنًا ،
 وَمَعَاهِدَ طَبِيعَةً ، وَهِيَ الْأَسْلِحَةُ الَّتِي يُدَادُ ^(٣) بِهَا ،
 وَهِيَ الْمَوْجِدَةُ ^(٤) الْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ بَيَانَهَا
 وَشَرْحَهَا ، وَالذَّادَةَ الْمُكَافِحِينَ عَنْهَا وَمِنْ أَجْلِهَا ، كَمَا

(١) الكثير العشب ناضره (٢) عدوتيه : شاطئيه (٣) يداد بها :
 يدافع بها (٤) الموجدة : المحدثه والمنشئة .

أَنَّ الرَّسَامَ الْمُطْبُوعَ^(١) ، وَالْمُصَوِّرَ الْحَادِقَ ، إِنَّمَا يَتَّخِذُ
 الْكَوْكَبَ الْأَرْضِيَّ كُلَّهُ قَاعِدَةً لِتَمَثِيلِهِ ، وَمَسْنَدًا
 لِتَصْوِيرِهِ ، وَسَبِيلًا إِلَى إِخْرَاجِ أَحْسَنِ تَهَاوِيلِهِ
 وَصُورِهِ ، أَمَّا الْأَفَاقُ الْجَوَالَةُ الْمُشْعَوِذُ ، فَلَا يَجِدُ
 بَعْدَ السَّنِينَ الطَّوَالَ فِي ذَرَعِ الْأَرْضِ ، وَالتَّقَلُّبِ فِي
 الدُّنْيَا وَالِاخْتِيَالِ لِلْعَيْشِ أَعْجَبَ الْحَيْلِ ، غَيْرَ نَعْلِهِ ،
 وَقَدْ بَلَى ، وَحِذَاءَهُ وَقَدْ خَلَقَ ، وَأَصْبَحَ يَطْلُبُ
 الْخَاصِفِينَ^(٢) ، وَيَسْأَلُ الْأَسَاكِفَةَ !



وَقَدْ أَلْفَنَا فِي أَحَادِيثِنَا وَسَمَرِنَا وَمَأْلُوفٍ كَلَامِنَا ،
 أَنْ نَعْتَبِرَ نَاحِيَتَيْنِ لِفَضْلِ الْعُظَمَاءِ ، وَوَجْهَيْنِ مِنْ

نظرنا
الى
العظماء

(١) المطبوع : الذى لا يتكلف . (٢) الخاصفين : جمع خاصف :
 وهو الذى يطبق النعل على النعل ويخرزها بالخصف وهو مخرز الاسكاف .

أَوْجُهُ النَّفْعِ ، نَسْتَمِدُّهُ مِنْ أَخْيَارِنَا ، وَنَوَابِغِنَا وَكِبَارِنَا ،
وَهُمَا الْفَائِدَةُ الْأَدَبِيَّةُ أَوْ الْمَعْنَوِيَّةُ ، وَالْفَائِدَةُ الْمُحَسَّسَةُ
أَوْ الْمَادِّيَّةُ ، وَإِنَّ النَّفْعَ الْمُبَاشَرَ لَحَرِيٌّ ^(١) يَبْعَثُ
الْإِيمَانَ سَرِيعًا فِي نُفُوسِنَا بِالْعُظْمَاءِ وَأَفْضَالِهِمْ ، إِذَا
مَا كَانَ نَفْعًا لَنَا فِي الصِّحَّةِ أَوْ الشَّبَابِ ، أَوْ فِي
الْحَوَاسِّ وَالشَّهَوَاتِ ، أَوْ فِي الطَّبِّ وَالسَّخْرِ وَالْتَّنَجِيمِ ،
أَوْ الثَّبُوتِ وَالْكَهَانَةِ ، وَعِلْمِ الْغَيْبِ وَالْعَدِ الْمَجْهُولِ .
وَإِنَّ الصَّبِيَّ الْحَدَّثَ ^(٢) لَيَعْتَقِدُ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ يَلْبِغُهُ
الْحِكْمَةَ ^(٣) ، وَيَلْقُنُهُ الْمَعْرِفَةَ وَفَصَلَ الْخُطَابِ ^(٤) .
وَإِنَّ الْكَنَائِسَ - أَيْ الْأَدْيَانَ - لَتَعْتَقِدُ أَنَّ الْفَضْلَ

(١) لحرى : لجدير . (٢) الحدث : الناشئ الصغير .

(٣) الحكمة : الهداية الى الصواب (٤) فصل الخطاب : الفصل

بين الحق والباطل .

يُعَارُ^(١) ، وَالْخَيْرُ يُعَدِي ، وَالْمَوَاهِبُ تُكْتَسَبُ ،
وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ كَمَا قُلْتُ : الثَّبَاتُ الطَّيِّبُ الَّذِي
يَنُمُو مِنْ دَاخِلِهِ ، وَيَزْكُو مِنْ جَوْفِهِ ، وَيَطِيبُ
وَيَتَرَعَّرُ مِنْ ذَاتِهِ وَأَعْمَاقِهِ ، وَمَا التَّرْيِيسَةُ وَالتَّعْلِيمُ
وَالتَّأْدِيبُ غَيْرُ وَسَائِلَ لِكَشْفِ طَبِيعَتِهِ ، وَلِنَشْرِ أَطْوَاءِ^(٢)
خَلِيقَتِهِ ، وَبَسْطِ مَحْجُوبِ دَخِيلَتِهِ . وَإِنَّ الْعَوْنَ الَّذِي
نَسْتَمِدُّهُ مِنَ الْغَيْرِ ، هُوَ فِي الْحَقِّ آلِيٌّ ، وَفِي الْوَاقِعِ
مَيْكَانِيكِيٌّ ، إِذَا هُوَ قُورِنٌ بِمَا تَفْعَلُهُ الطَّبِيعَةُ ذَاتَهَا
فِي كَشْفِ مَسْتُورِنَا ، وَإِبْرَازِ خَفَايَا طِبَاعِنَا ، وَإِظْهَارِ
مُحْتَجَبِ اسْتِعْدَادِنَا . وَمَا يُكْتَسَبُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ
حَسَنٌ مُمْتَعٌ بِأَقْبَى الْأَثَرِ ، وَالْأَخْلَاقُ الطَّيِّبَةُ هِيَ أَبَدًا

(١) يعار : يملك على سبيل العارية . (٢) ونشر أطواء الخ :
أي ما كن من أخلاقه وغلزله .

مَرْكَزِيَّةٌ^(١)، تَمْتَدُّ مِنَ النَّفْسِ إِلَى الْخَارِجِ، وَتَتَّبَعُ^(٢)
مِنَ الرُّوحِ إِلَى مَا حَوْلَهَا، كَالْحُطِّ الْمَأْخُودِ مِنْ نُقْطَةِ
الدَّائِرَةِ. وَالْإِثْمُ^(٣) وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ، هِيَ الْمُنَافِيَةُ
لِشَرِيعَةِ الْكَوْنِ، وَنِظَامِ الْوُجُودِ، وَمَا خِدْمَةٌ غَيْرِنَا
إِلَّا خِدْمَةٌ أَنْفُسِنَا فِي الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ. وَإِذَا لَمْ يَتَّصِلْ
الْإِنْسَانُ بِالنَّاسِ، وَالبَشَرِئُ بِالْبَشَرِ، فَهَلْ يَتَّصِلُ
بِالسَّمَوَاتِ؟ وَيَرْتَبِطُ بِالْعَوَالِمِ؟ وَيُقِيمُ الْعَلَاقَاتِ
مَعَ الْآفَاقِ وَالْكَوَاكِبِ وَطَبَقَاتِ الْفَضَاءِ؟

وَلَكِنَّ الْخِدْمَةَ غَيْرَ الْمُبَاشَرَةِ، أَوْ الْفَائِدَةَ غَيْرَ
الْمُحَسَّسَةِ، هِيَ الَّتِي تُنْتَقَصُ أَبَدًا مِنْ قِيَمَتِهَا، أَوْ يُصَغَّرُ

(١) مركزية نسبة إلى المركز: وهو وسط الدائرة. والمراد أنها فطرية
خلقية. (٢) تنبعث: ترسل وتنفرد. (٣) الإثم: ما استحق
فاعله العقاب عليه.

مِنْ شَأْنِهَا وَفَضْلِهَا ، وَإِنْ كَانَ لِلنَّاسِ صِفَةُ النَّيَابَةِ
عَنْ سَوَاهُمْ ، وَفِي الطَّبِيعَةِ قِيَامُ الْمِثْلِ عَنْ نَظِيرِهِ .
وَقَدْ رَأَى « بِيَهْمَنْ » و « سويدينبرج » أَنَّ لِلْأَشْيَاءِ
أَمْثَلَةً وَنَمَازِجَ تَدُلُّ عَلَيْهَا ، وَتَتِمُّ عَنْ صِفَتِهَا ،
كَمَا أَنَّ لِلنَّاسِ أَفْرَادًا هُمْ النُّوَابُ عَنْ الْإِنْسَانِيَّةِ
وَالْمُمَثِّلُونَ وَالْعَنَاوِينُ .



المخترعون
والطبيعة

وَكَمَا يُحِيلُ النَّبَاتَاتُ الْمَعَادِنَ إِلَى طَعَامٍ لِلْحَيَوَانِ ،
كَذَلِكَ يُحِيلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّْا بَعْضَ الْمَوَادِّ الْخَالِصَةِ
فِي الطَّبِيعَةِ ، إِلَى مَا يُفِيدُ الْبَشَرَ ، وَيُجِدِّي عَلَيْهِمْ
وَيَنْفَعُهُمْ ، وَمُخْتَرَعُو النَّارِ ، وَالْكَهْرُبَاءِ ، وَالْمَغْنَاطِيصِيَّةِ ،
وَالْحَدِيدِ ، وَالرَّصَاصِ ، وَالزَّجَاجِ ، وَالتَّيْلِ ، وَالْحَرِيرِ ،

وَالْقُطْنِ ، وَصَنَاعِ الْعُدَدِ وَالْأَدَوَاتِ ، وَمُحَدِّثُو نَظَرِيَّاتِ
الْكُسْرِ الْأَعْشَارِيِّ ، وَالْهِنْدَسَةِ وَالْحِسَابِ ،
وَالْمُعَادَلَاتِ الْجَبْرِيَّةِ ، وَالْمُوسِيقِيِّونَ وَعُلَمَاءُ الْأَنْعَامِ ،
وَالْأَصْوَاتِ وَالْأَلْحَانِ كُلُّ أُولَئِكَ مِنْ نَوَاحِيهِمُ
الْمُخْتَلِفَةِ ، وَوُجُوهِهِمُ الْمُتَعَدِّدَةِ ، مَهَادُو^(١) السُّبُلِ ،
وَكَاشِفُو الطَّرِيقِ وَسُطَّ مَتَاهَاتِ الْحَيَاةِ ، وَخِلَالَ
مَجَاهِلِ^(٢) الدُّنْيَا وَمَسَالِكِهَا الْمُضَلَّلَةِ ، إِذْ لِكُلِّ
إِنْسَانٍ نَزْوَعٌ^(٣) خَفِيَ يَرْبِطُهُ بِيَعْضِ نَوَاحِي الطَّبِيعَةِ ،
لِيَكُونَ هُوَ عَامِلِيهَا ، وَالْمُفَسِّرَ لِعَمَلِهَا ، وَالشَّارِحَ
لِعَجَائِبِهَا ، وَأَسْرَارِهَا ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ « لِينِيَّاسُ »

(١) مهادو الخ : كثيرو التذليل والتسهيل للطرق (٢) مجاهل .

جمع مجهل : وهو المفازة التي لا أعلام بها ليهتدى السائر فيها .

(٣) نزوع : ميل

لِلنَّبَاتَاتِ ، « وهيو بُر » لِلنَّحْلِ « وفزائِرُ » لِحَشِيشَةِ
 الْبَحْرِ ، « وَفَانِ مَوْنُزُ » لِلْكُمَثَرِيِّ وَالْإِجَاصِ^(١)
 و « والتون » لِلذَّرَّةِ^(٢) وَالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ^(٣) .
 « وإقليدسُ » لِلخُطُوطِ . « وتيوطن » لِلْمَدِّ وَالْجُزْرِ .



الإنسان مَرَكُزُ الطَّيِّعَةِ ، يُرْسِلُ خُيُوطًا مِنْهَا إِلَى
 كُلِّ شَيْءٍ ، سَائِلٍ وَجَامِدٍ ، مَادِّيٍّ^(٤) وَعَنْصُرِيٍّ^(٥) ،
 مُحْسُوسٍ وَغَيْرِ مُحْسَسٍ ، وَإِنَّ الْأَرْضَ لَتَدُورُ ، وَإِنَّ
 كُلَّ حَجَرٍ وَلَبَنَةٍ ، لَيَأْتِي إِلَى مَرَكِزِ الدَّائِرَةِ ، وَكَذَلِكَ

- (١) الثَّفَاحُ أَوْ نَوْعٌ مِنْهُ (٢) الذَّرَّةُ وَاحِدَةُ الذَّرِّ : وَهُوَ صَغَارُ
 النَّمْلِ ، وَيُقَالُ لِكُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْهَبَاءِ الَّتِي تَنْبَثُ فِي الْهَوَاءِ ذَرَّةٌ .
 (٣) الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ : هُوَ الْجُزْءُ الَّذِي لَا يَتَجَزَأُ . أَيْ لَا يَقْبَلُ الْإِتْقَاسَ .
 (٤) الْمَادِّيُّ نِسْبَةً إِلَى الْمَادَّةِ : وَهِيَ الَّتِي يَحْصُلُ الشَّيْءُ مَعَهَا بِالْقُوَّةِ .
 (٥) الْعَنْصُرِيُّ نِسْبَةً إِلَى الْعَنْصَرِ : وَهُوَ الْجِسْمُ الْبَسِيطُ .

كُلُّ عَضْوٍ ، وَكُلُّ حَمَضٍ ، وَكُلُّ تَبْلُورٍ وَكُلُّ حَبَّةٍ
 مِنْ تَرَابٍ ، أَوْ نُقْطَةٍ مِنْ غُبَارٍ ، ذَاتُ صِلَةٍ بِالْعَقْلِ
 الْبَشَرِيِّ ، وَإِنَّهَا لَتَنْتَظِرُ طَوِيلًا ، وَتَرْتَقِبُ مَلِيًّا ،
 وَلَكِنَّ وُرُودَهَا يَأْتِي لَا مُحَالَةً ، وَحِينَهَا يَحِينُ ، مَا فِي
 ذَلِكَ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ ، وَلِكُلِّ نَبَاتٍ طَفِيلِيَّاتُهُ ^(١) ،
 وَلِكُلِّ مَخْلُوقٍ فِي الدُّنْيَا ^(٢) عَشِيقُهُ وَشَاعِرُهُ ، وَقَدْ
 أَنْصَفَتِ ^(٣) الطَّبِيعَةُ الْبُخَارَ وَالْحَدِيدَ ، وَالخَشَبَ وَالْفَحَمَ ،
 وَالْحَجَرَ وَالْيُودِينَ ، وَالْحِنْطَةَ وَالْقُطْنَ ، وَلَكِنَّ
 مَا أَقَلَّ الْمَوَادِّ الَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا أَهْلُ الْفُنُونِ إِلَى الْيَوْمِ ،
 بِجَانِبِ مَا لَمْ يُسْتَخْدَمْ بَعْدُ ، مِنْ مَوَادِّ الطَّبِيعَةِ ، وَمَا
 تَحْوِي مِنْ وَسَائِلَ ، وَأَدَوَاتٍ وَأَشْيَاءَ ؟ ! وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ

(١) ما يتغذى على حساب غيره من نبات آخر كالهالوك في القمح وغيره

(٢) في الدني : في الدنيا (٣) أى أظهرت ما كان كامناً فيها من

الآثار التي استخدمت في سعادة البشرية

ذَلِكَ لَا يَزَالُ خَفِيًّا ، وَإِنَّ مِنْهُ لَمَّا قَتِيٌّ ^(١) مُحْتَجِبًا
لَمْ يَظْهَرْ بَعْدُ ، وَلَمْ يَنْكَشِفْ لِلْإِنْسَانِ ! وَكَأَنَّمَا
كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَنْتَظِرُ دَوْرَهُ ، وَيَرْتَقِبُ ارْتِقَابَ
الْأَمِيرَةِ الْحُسْنَاءِ ، فِي نَوَادِرِ الْجَانِّ ، وَأَسَاطِيرِ الْمُرَدَّةِ ،
وَالْأَرْوَاحِ ، وَأَقْلَاصِصِ الْأَشْبَاحِ ، حَتَّى يَأْتِيَ الْإِنْسَانُ
الْمُنْقِذُ ، وَيَقْدُمَ الْبَاطِلُ الْكَاشِفُ ! وَكُلُّ شَيْءٍ تَرْفَعُ
الْحُجُبُ عَنْهُ ، يَنْبَعِثُ خَارِجًا مِنْ خَبَايَاهُ ، وَالْأَفَافِ
وَسُدُولِهِ ، لِيُظْهَرَ لِلْإِنْسَانِ ، وَيَتَقَدَّمَ يَطْلُبُ الْإِنْتِفَاعَ
بِهِ ، وَالْعَمَلَ عَلَى اسْتِخْدَامِهِ .



وَإِذَا نَحْنُ حَصَرْنَا وَجْهَ الْإِسْتِفَادَةِ ^(٢) فِي الْمَنَافِعِ

المنافع
الأولية

(١) لما فتى الخ: أى لا يزال مستورا (٢) الاستفادة: طلب الفائدة

الْأَوَّلِيَّةِ رَأَيْنَا جَمَالًا رَزِينًا^(١) رَائِعًا ، يَتَّصِلُ بِمَمْلَكَةِ
النَّبَاتِ وَالْمَعَادِنِ ، وَهِيَ الْمَمْلَكَةُ الَّتِي تَلُوحُ^(٢) فِي
أَرْفَعِ الظُّرُوفِ فِتْنَةً^(٣) الطَّبِيعَةِ ، وَسِجْرَهَا الرَّهِيْبِ ،
إِذْ مَا أَسْطَعَ بَرِيقَ الرُّمُوحِ الْعَسَالِ^(٤) ، وَالسَّيْفِ
الْمَصْقُولِ^(٥) ، وَالبِتَّارِ^(٦) الْحَدِيدِ النَّصْلِ ، وَمَا أَجَلَ
فِعْلَ الْجَاذِبِيَّةِ وَالطَّبِيعَةِ ، وَبِنَاءِ الزَّوَايَا الْهِنْدَسِيَّةِ ،
وَإِنَّ الضَّوْءَ وَالظُّلُمَةَ ، وَالْحَرَارَةَ وَالْبُرُودَةَ ، وَالْجُلُوعَ
وَالشَّبَعَ ، وَالْحُلُوَّ وَالْمُرَّ ، وَالْجَامِدَ وَالْمَائِعَ ، وَالْبُخَارَ
وَالْغَازَ . . . كُلُّ أَوْلَيْكَ يُحِيطُ بِنَا فِي لَذَائِثِ
حُلُوَّةٍ ، وَمَسَرَّاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ ، وَمُتَمِّعٍ حِسَانٍ . وَهِيَ

(١) رزينا رائعا : ثابنا عظيماً هائلاً (٢) تلوح : تظهر

(٣) منصوب على الحال (٤) العسال : الذي يهتز ليناً

(٥) المصقول : المجلو (٦) البتار الكثير القطع .

فِي تَنَازُعِهَا الْمَحْبُوبِ ، وَتَخَاصُّمِهَا الْمَقْبُولِ ، وَتَضَادِّهَا
 الطَّبِيعِيِّ ، مَلْهَأَةُ الْحَيَاةِ وَلَعِيمُهَا ، وَمَسْرَّةُ الْعَيْشِ وَمَبَاهِجُهُ .
 وَلَكِنَّا : نُرِيدُ أَيْضًا الْمَنَافِعَ الْعُلْيَا ، وَالضَّرُوبَ
 السَّامِيَةَ مِنَ الْإِسْتِفَادَاتِ ، وَلَا يَزَالُ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ ،
 بِحَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ كَثِيرٍ ، حَتَّى يُصْبِحَ إِنْسَانِيًّا ، وَيَسْتَحِيلَ
 بَشَرِيًّا ، فَإِنَّ جَدُّوَلِ اللُّوْغَارِ تَمَاتِ شَيْءٌ ، وَلَكِنَّ أَثَرَهُ
 فِي عُلُومِ النَّبَاتِ ، وَالْمُوسِيقَى وَالْمَرْثِيَّاتِ ، وَالْهِنْدَسَةِ
 وَالْبِنَاءِ ، شَيْءٌ آخَرُ ، وَإِنَّ هَذِهِ جَمِيعًا ، لَتَمْتَزِجُ
 بِالْحَيَاةِ ، إِذَا هِيَ اتَّصَلَتْ بِالْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ ، وَالْإِرَادَةِ
 الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَحِينَئِذٍ تَعُودُ فَتَبْدُو بِكُلِّ مَنَافِعِهَا ،
 وَخَوَاصِّهَا وَمَزَايَاهَا ، فِي الْحَدِيثِ ، وَالْخُلُقِ ، وَالسِّيَاسَةِ .
 وَلَكِنَّ ذَلِكَ يَأْتِي فِيمَا بَعْدُ ، وَإِنَّمَا نَحْنُ

تَحَدَّثُ عَنْهَا مِنْ حَيْثُ مَعْرِفَتُنَا بِهَا ، فِي آفَاقِهَا ،
وَمُضْطَرِّبَهَا^(١) ، وَدَائِرَتَهَا ، وَالْوَجْهَ الَّذِي تَقْتِنُنَا مِنْهُ ،
وَالنَّاحِيَةَ الَّتِي تَجْتَذِبُ بِهَا عَقْلَ الْعَبْقَرِيِّ ، الَّذِي
يَتَوَفَّرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بِدَرْسِهِ وَبِبَحْثِهِ ، وَيَتَقَصَّاهُ^(٢)
طِيلَةَ حَيَاتِهِ ، حَتَّى لَيَنْدَمِجُ فِيهِ بِكُلِّيَّتِهِ ، وَيُصْبِحُ
الْكَاشِفُ وَالْمَكْشُوفُ سَوَاءً .



النواحي
الروحانية
المادة

إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مَادِّيَّ جَانِبًا سُمُويًّا^(٣) ، وَلَهُ تَحَوُّلُهُ
عَنْ طَرِيقِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَانْتِقَالُهُ إِلَى الدَّائِرَةِ الرُّوحِيَّةِ ،
الَّتِي يَعْمَلُ فِيهَا ، وَيَبْدُو ضَمْنَهَا ، وَفِي أَفْقِهَا الْمُنَاسِبِ
لَهَا ، ثَابِتًا بَاقِيًا ، خَالِيًا لَا يَفْنَى ، وَلَا يَنْعَدِمُ ،

(١) ومضطربها : مكان اضطرابها وتحركها (٢) يتقصاه : يتبعه
ويتفقده (٣) نسبة إلى السمو وهو العلو

كَلِّ الْأَشْيَاءَ ، وَكَافَّةَ مَظَاهِرِ الْمَادَّةِ ، وَإِلَى
هَذِهِ الْغَايَةِ ، وَإِلَى هَذَا التَّحَوُّلِ ، وَإِلَى هَذَا
الِإِنْتِقَالِ ، تَصْعَدُ الْأَشْيَاءُ جَمِيعًا ، وَتَسْمُو كَافَّةً ،
فِي غَيْرِ انْقِطَاعٍ ، بَلْ بِاسْتِمْرَارٍ دَائِمٍ ، لَا يَكْفُ^(١)
وَلَا يَفْتُرُ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الْأُبْحَرَةِ كَيْفَ تَتَجَمَّعُ ،
مُصْعِدَةً^(٢) فِي جَوْ السَّمَاءِ ، مُسْتَحِيلَةً وَدَقًا^(٣) صَيِّبًا ،
وَإِلَى الْمُرْكَبِ الْكِيمَانِيِّ ، أَوِ الْغِذَاءِ ، كَيْفَ يَصِلُ
إِلَى النَّبَاتِ فَيَنْمُو وَيَزْكُو ، وَإِلَى الْحَيَوَانِ فَيَدْبُ
وَيَمْشِي ، وَإِلَى الْإِنْسَانِ فَيُفَكِّرُ وَيَتَأَمَّلُ ؟ ؟

وَلَكِنْ أَلَيْسَتْ الدَّائِرَةُ الْإِنْتِخَايِيَّةُ ، هِيَ الَّتِي
تُثَرَّرُ نَائِبَهَا ، وَتُعَيَّنُ فِي النَّدْوَةِ مُمَثِّلَهَا ، وَلَكِنَّهُ

(١) لا ينفذ . ولا يفتقر : لا يتوانى . (٢) مصعدة : أى
صاعدة . (٣) الودق : المطر . والصيب : الكثير .

لَيْسَ بِنَائِبٍ وَلَا مُمَثِّلٍ لَهَا فَحَسَبُ ، وَإِنَّمَا هُوَ
شَرِيكٌ مَعَهَا ، وَمُقَاسِمٌ لَهَا ، وَمُشَاطِرٌ فِي ارْتِبَاطِهِ
بِهَا ، وَلَيْسَ يَعْرِفُ الْمِثْلَ غَيْرَ الْمِثْلِ ، وَلَا يَفْهَمُ
الشَّبِيهَ غَيْرَ الشَّبِيهِ ، وَلَا النَّظِيرَ إِلَّا النَّظِيرُ ، وَمَا
يَعْرِفُ الْمُثْمَلُ أَوِ النَّائِبُ عَنْ قَوْمِهِ أَمْرَهُمْ ، إِلَّا لِأَنَّهُ
مِنْهُمْ ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَحَادِهِمْ ، وَشَرِيكٌ فِي شُعُورِهِمْ ،
فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الطَّبِيعَةِ أَوْ مِنْ كَوْنِهِ جُزْءًا مِنْ نِيَابَتِهِ ،
وَشَطْرًا مِنْ كِيَانِ تَمْثِيلِهِ ، كَمَا يَعْرِفُ الْكُلُورِينَ
الْحَيُّ ، خَوَاصَّ الْكُلُورِينَ عَامَّةً ، وَكَمَا يَفْهَمُ الزَّنْكَ
الْحَيُّ ، كُلَّ مَعَانِي الزَّنْكِ وَمَزَايَاهُ ، وَإِنَّ خَوَاصَّ
نَوْعِهِ ، هِيَ الَّتِي تُصَرِّفُهُ وَتُقَرِّرُ سَيْرَ حَيَاتِهِ ، وَتُعَيِّنُ
وُضَائِفَهُ ، وَوُجُوهَ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ ، وَإِنَّهُ لَيَنْشُرُ مَطْوًى

مَزَايَاهَا ، وَمَجْهُولَ خَوَاصِّهَا ، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي رُكِبَ
مِنْهَا ، وَتَأَلَّفَ مِنْ مَجْمُوعِهَا ، وَاتَّحَادِهَا .

☆
☆ ☆

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ تُرَابٍ ، فَهُوَ لَا يَنْسَى أَصْلَهُ ،
وَكُلُّ مَا لَا يَزَالُ جَامِداً خَالِياً مِنَ الْحَيَاةِ ، سَيَتَكَلَّمُ
يَوْمًا ، وَيَعْقِلُ وَيُفَكِّرُ ، وَسَيُظْهِرُ الْمُسْتُورَ مِنَ
الطَّبِيعَةِ يَوْمًا ، فَيَتَحَدَّثُ عَنْ قِصَّتِهِ ، وَيُفْشِي سِرَّهُ
وَحَيْثُتَهُ ، وَيُعْلِنُ مَطَاوِي^(١) مَزَايَاهُ وَصِفَاتِهِ ، بَلْ
هَلْ أَقُولُ : إِنَّ جِبَالَ الْيَسَبِ^(٢) ، سَتَتَحَوَّلُ يَوْمًا ،
فَتُكُونُ عَدَدًا لَا يُحْصَى مِنَ الْمُتَحَدِّثِينَ عَنْهَا ،
وَالْعُلَمَاءِ الْكَاشِفِينَ لِأَسْرَارِهَا ؟ وَهَلْ أَقُولُ : إِنَّ

أصل
الانسان

(١) مطاوى : خبايا وخفايا خواصه ومميزاته (٢) ويسمى اليشم
أيضاً : حجر قريب من الزبرجد لكنه أصفى منه — فارسي

الْمَعْمَلِ الْجَوِيِّ وَتَحَالِيلَهُ ، وَأَسْرَارَ كِيمْيَائِهِ ، سَتُخْرِجُ
لَنَا عَلَى الزَّمَنِ كُشَافًا جَدُّدًا ، وَبَجَائِثِنَ آخِرِينَ ،
وَكِيمْيَائِيَّينَ لَا انْقِطَاعَ لِمَوَاطِنِهِمْ ، فِي سَيْرِ الدَّهْرِ
وَالسِّنِينَ ؟؟ .

كَذَلِكَ نَجْلِسُ بِجَانِبِ الْمُوقِدَةِ ، وَنَمْسِكُ
بِقُطْبِي الْأَرْضِ ، وَهَذِهِ الْقُدْرَةُ الْعَامَّةُ ، أَوْ هَذَا
الْحُضُورُ الشَّامِلُ لِلْحَيَاةِ ، الْعَامِرُ الْعَالَمِ مِنَّا نَحْنُ
بَنِي الدُّنْيَا ، لَيْسَ إِلَّا تَخْيِيلًا ، وَتَشْبِيهًا وَتَمْثِيلًا ،
وَمِنْ هُنَا مَوْضِعُ قُصُورِنَا ، وَحُلُّ عَجْزِنَا وَبَلَاهَتِنَا ،
فَإِنَّمَا نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى أَلْفِ رَأْسٍ ، بَلْ لَيْتَ لَنَا
أَلْفَ بَدَنٍ ، وَأَلْفَ عَيْنٍ ، وَأَلْفَ هَيْكَلٍ ^(١) ، حَتَّى

(١) أى جِثان وجسم

نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْتَقِلَ بِجِبَالِ الدُّنْيَا ، وَرَوْعَةِ ^(١) الطَّيِّعَةِ ،
فِي حَيْثُمَا ^(٢) تَكُونُ ، وَأَيًّا مَا تَظْهَرُ ، وَفِي أَيِّ
صُورَةٍ تَتَمَثَّلُ ؟

وَلَكِنْ هَلْ هَذَا فِي الْحَقِّ خَيَالٌ مُجَرَّدٌ ، وَمَحْضٌ
تَوْهُمٌ وَتَصَوُّرٌ ؟؟ نَحْنُ - وَائِمُّ اللَّهِ - إِنَّمَا نَتَكَاثَرُ
بِالنُّوَابِ عَنَّا ، وَنَزْدَادُ بَمَنْ نَتَمَثَّلُ فِيهِمْ ، وَنَقْتَبِسُ
مِنْ عَمَلِهِمْ ، وَنَنْتَفِعُ بِثَمَرَاتِ جُهِدِهِمْ ، بَلْ كُلُّ
سَفِينَةٍ تَذْهَبُ إِلَى أَمْرِيكَ ، إِنَّمَا تَأْخُذُ طَرِيقَهَا مِنْ
خَرِيطَةِ « كُولُوبِس » ، وَكُلُّ قِصَّةٍ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَدِينَةٌ
« لِهَومِيُروس » ، وَكُلُّ نَجَّارٍ يَمْسَحُ الْخَشَبَ بِفَارَتِهِ ،

(١) روعة الطبيعة : جالها . (٢) في حيثما : أى في أى مكان
تكون . وفي أى موضع

إِنَّمَا هُوَ مُسْتَعِيرٌ عَبَقَرِيَّةٌ^(١) مُخْتَرِعٌ مَجْهُولٌ ، وَصَانِعٌ
ذَهَبَ وَلَمْ يُذَكَّرْ .

وَإِنَّ الْحَيَاةَ لَمُكْتَنَفَةٌ^(٢) مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِهَا ،
بِفَلَكَ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ ، هِيَ مِنْ فَضْلِ رِجَالٍ
هَلَكُوا وَمَاتُوا ، وَانْتَهَوْا لِيَضَعُوا نُورًا إِلَى أَنْوَارِ
سَمَائِنَا ، وَضِيَاءَ إِلَى ضِيَاءِ أَفْقِنَا ، وَكُلُّ مُهَنْدِسٍ ،
وَسِمْسَارٍ ، وَقَاضٍ ، وَطَبِيبٍ ، وَفَيْلَسُوفٍ ، وَفَقِيهِ ،
بَلْ كُلُّ إِنْسَانٍ أُوتِيَ حَظًّا مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا
مُسَاهِمٌ فِي صُنْعِ خَرِيطَةِ حَيَاتِنَا ، بِجَمِيعِ أَبْعَادِهَا ،
وَحُطُوطِ طَوْلِهَا وَعَرْضِهَا ، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُعْبِدِينَ^(٣)
لِطَرِيقِ الْحَيَاةِ ، وَالسَّالِكِينَ بِنَا مُخْتَلِفَ الْآفَاقِ ،

(١) العبقرية : النبوغ (٢) لمكتنفة : لحاطة (٣) العبدین : المهدين

هُمْ الَّذِينَ يُعْنُونَ حَيَاتَنَا ، وَيَمْلَأُونَ عَيْشَنَا مَبَاهِجَ ،
وَأَطْيَابَ وَمَنَافِعَ ، وَإِنَّا لَمُطَالِبُونَ بِمَدِّ نِطَاقِ الْحَيَاةِ ،
وَتَوْسِيعِ حُدُودِهَا ، وَتَكْثِيرِ عِلَاقَاتِهَا وَصِلَاتِهَا ، وَإِنَّا
لَنَكْسِبُ بِالْكَشْفِ مِنْ خَاصِيَّةٍ جَدِيدَةٍ فِي هَذِهِ
الْأَرْضِ الْقَدِيمَةِ ، عَدْلٌ^(١) مَا نَكْسِبُ مِنْ كَشْفِ
كَوْكَبٍ جَدِيدٍ فِي السَّمَاءِ .

وَلَكِنَّا فِي الْوَاقِعِ ، قَلِيلًا مَا نَشْعُرُ بِقِيَمَةِ هَذِهِ
الْمَنَافِعِ الْمَادِّيَّةِ الَّتِي تَتَلَقَّاها ، وَنَادِرًا مَا نُحِسُّ بِأَقْدَارِ
هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، الشَّبِيهِةِ بِالْمَادِّيَّةِ الَّتِي تُنْمَحُهَا ، وَكَانَ
أَوَّلَى بِنَا أَلَّا نَكُونَ مِعْدًا^(٢) فَحَسَبُ ، وَبُطُونًا ، وَلَوْ
صَعِدْنَا دَرَجَةً وَاحِدَةً فَوْقَ هَذَا ، لَكُنَّا خَيْرًا مِمَّا

(١) العدل : المثل والنظير . (٢) معداً : جمع معدة وهى معروفة .

نَحْنُ إِحْسَاسًا ، وَأَرْقَى مِمَّا نَحْنُ شُعُورًا ، وَإِنَّ النَّشَاطَ
لَشَدِيدُ الْعَدَوَى ، فَلَوْ نَظَرْنَا إِلَى مَا يَنْظُرُ غَيْرُنَا
إِلَيْهِ ، وَتَطَلَّعْنَا إِلَى مَا يَتَطَلَّعُ سِوَانَا نَحْوَهُ ، وَتَحَدَّثْنَا
وَأَنْدَجْنَا فِيمَا يَنْدَجُونَ فِيهِ ، لَأَسْتَطَعْنَا أَنْ نُذَرِكَ
الْفِتْنَةَ ^(١) الَّتِي أَذْرَكْتَهُمْ ، وَالْجَمَالَ الَّذِي اسْتَبَاهُمْ ^(٢) ،
وَالْجَلَالَ الَّذِي أَخَذَ بِأَعْيُنِهِمْ وَحَوَاسِسِهِمْ ، وَقَدْ قَالَ
نَابُولْيُونُ : يَنْبَغِي أَلَّا تُكْثِرُوا مِنْ مُدَاوِمَةِ الْقِتَالِ مَعَ
عَدُوٍّ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ ، وَإِلَّا عَامَّتْهُمُ كُلُّ فُنُونٍ قِتَالِكُمْ ،
وَلَقَسْتُمُوهُ سَائِرَ أَسَالِيبِ حَرْبِكُمْ .

وَلَوْ أَكْثَرْنَا الْحَدِيثَ مَعَ رَجُلٍ قَوِيٍّ الْعَقْلِ ،
خَصِيبِ ^(٣) الْفِكْرِ ، لَا كَتَسَبْنَا مِنْهُ سَرِيعًا ، النَّزُوعَ

(١) المراد بالفتنة : ما يفتن به (٢) استباهم : بهرهم وسلب عقولهم .

(٣) خصيب الفكر : جيد

إِلَى النَّظَرِ إِلَى الْأَشْيَاءِ بِمِثْلِ نَظَرِهِ ، بَلْ لَأُمْكِنَنَا
أَنْ نَسْتَبِقَ تَفْكِيرَهُ ، وَنَعْرِفَ وَجْهَ نَظَرِهِ ، قَبْلَ
أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ نَاطِرُهُ .



وَأَكْبَرُ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ مِنَ النَّاسِ مَا اسْتَمَدَوْهُ^(١)

تأثر
الفكر
والعاطفة

مِنْ طَرِيقِ الْفِكْرِ ، وَسَبِيلِ الْعَاطِفَةِ ، وَمَا خَلَا
ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْإِنْتِفَاعِ ، أَحْسَبُهُ مُجَرَّدَ ظَاهِرٍ
كَاذِبٍ ، وَنَفْعٍ سَطَحِيٍّ ، فَأَنْتَ إِذْ تَبِيعُنِي خُبْرًا
وَوُقُودًا ، أَحْسُ أَنِّي بِنَقْدِي إِيَّاكَ ثَمَنَ مَا بَعْتَنِي ،
قَدْ أَبْرَأْتَنِي مِمَّا لَكَ ، وَوَفَيْتُكَ حَقَّكَ كَامِلًا ،
وَلَكِنْ مَا أَخَذْتُهُ مِنْكَ ، تَارِكِي آخِرَ الْأَمْرِ كَمَا

(١) ما استمدوه : ما أخذوه

وَجَدَنِي ، لَا أَحْسَنَ وَلَا أَسْوَأَ ، وَلَا خَيْرًا مِمَّا كُنْتُ ،
وَلَا شَرًّا مِمَّا كُنْتُ ، أَمَّا النَّفْعُ الْإِيجَابِيُّ ^(١) ، وَالْخَيْرُ
الطَّيِّبُ الْمُحْسُوسُ ، وَالْفَائِدَةُ الْمَشْعُورُ حَقًّا بِهَا ،
فَذَلِكُمْ هُوَ مَا يُجْدِي عَلَى آخِذِهِ ، مِنْ نَاحِيَةِ عَقْلِهِ
وَحِسِّهِ ، وَنَفْسِهِ وَخَلِيقَتِهِ .

وَإِنَّهُ لَيَنْبَغِي مِنْكَ ، سِوَاهِ أَرَدْتَ أَمْ لَمْ تُرِدْ ،
فَيَنْفَعْنِي ، وَيُجْدِي عَلَيَّ أَنَا الَّذِي لَمْ أَخْطُرْ بِبَالِكَ ،
وَلَمْ أَرِدْ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِكَ ، وَلَمْ أَقَعْ فِي تَصَوُّرِكَ
وَوُجْدَانِكَ ، وَلَسْتُ أَسْمَعُ عَنْ قُوَّةٍ مَّا فِي شَخْصٍ مَّا ،
أَوْ مَزِيَّةٍ مِنَ الْمَزَايَا ، عِنْدَ فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ ،
وَبَرَاعَةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي شَيْءٍ مُعَيَّنٍ عِنْدَ إِنْسَانٍ مُعَيَّنٍ ، إِلَّا

(١) الإيجابي : الذي فيه عمل والسلبى ما لا عمل فيه

اهْتَرَّتْ^(١) نَفْسِي لَهُ ، وَتَطَلَّعْتُ عَيْنِي لِلِقَائِهِ وَهَفَّتْ^(٢)
 رُوحِي نَحْوَهُ ، وَإِنَّا لَنَتَحَمَّسُ وَنَتَأَثَّرُ بِكُلِّ مَا نَسْمَعُهُ ،
 أَوْ نَعْرِفُهُ ، عَنْ فَضْلِ غَيْرِنَا ، وَقُوَّةِ سِوَانَا ، وَإِنَّ
 كَلِمَةَ « سَيْسِيل » فِي وَصْفِ « سِير وَالسَّيْر دَالِي » ،
 وَهِيَ : عَرَفْتُهُ أَقْدَرَ النَّاسِ عَلَى الْعَمَلِ فِي غَيْرِ كَلَالٍ ،
 وَأَحْمَلَهُمْ لِمَتَاعِبِ الْجَهْدِ وَمَشَاقِّهِ . إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ ،
 لِأَشْبَهَ شَيْءٍ بِالْمَسَةِ الْكَهْرُبَائِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ تَصَوِّرَاتُ
 « كَلَارَنْدَن لِهَامْدَن » وَوَصْفُهُ لَهُ فِي قَوْلِهِ : « لَقَدْ كَانَ
 مِنَ الدَّابِّ^(٣) وَالْيَقْظَةِ ، بِحَيْثُ لَا يُضْجِرُهُ جَهْدُ
 مَهْمَا عَنَفَ^(٤) ، وَلَا يُضْنِيهِ^(٥) عَمَلُ مَهْمَا آدَ ،

(١) اهترت : طربت . (٢) هفت : حنت ومالت .

(٣) الدَّابُّ : الجَدُّ والمداومة على العمل (٤) عنف : اشتد

(٥) ولا يضنيه : لا يتعبه عمل مهما آد « أى أثقل »

وَأَنْقَضَ الظَّهْرَ ، وَكَانَ عَلَى صِفَاتٍ وَسَجَايَا ، وَخِلَالَ
لَا يَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا أَشَدُّ الذِّكَا ، وَلَا أَمْرُهُ الْخِدْعُ ^(١) ،
وَكَانَ شُجَاعًا ، أُوتِيَ ^(٢) مِنَ الشَّجَاعَةِ أَنْسَبَهَا
لِصِفَاتِهِ . وَأَخْلَقَهَا ^(٣) بِمَزَايَاهُ . وَكَذَلِكَ وَصَفُهُ
« لِفَوْلِكَلَانْد » فِي قَوْلِهِ : لَقَدْ كَانَ مُسْتَهَامًا ^(٤) بِحُبِّ
الْحَقِّ ، فَلَا يُمَارَى ^(٥) فِي الْبَاطِلِ ، وَلَا يَنْزِعُ ^(٦)
إِلَى التَّغْرِيرِ ، وَلَا يَدْعُ جَانِبَ الْحَقِّ ، « وَلَوْ جَاَزَ
أَنْ يَسْرِقَ ، لَجَاَزَ أَنْ يَنْبُذَ الْحَقَّ » . . .

إِنَّ كَلِمَاتٍ كَهَذِهِ ، فِي نُعُوتِ الْعِظَمَةِ ،
وَوَصْفِ الْخَلِيقَةِ الْمُعَذَّبَةِ ، لَتُشِيرُ ^(٧) فِينَا إِلَى عَجَابِ ،

(١) الْخِدْعُ : جَمْعُ الْخِدْعَةِ : مَا يُخْدَعُ بِهِ (٢) أُوتِيَ : أُعْطِيَ

(٣) أَخْلَقَهَا : أَحَقَّهَا وَأَجْدَرَهَا (٤) مُسْتَهَامًا : مُشْغُوفًا

(٥) لَا يُمَارَى : لَا يُجَادَلُ (٦) لَا يَنْزِعُ : لَا يَمِيلُ

(٧) تُشِيرُ : تَبْعَثُ وَتَوْقُظُ .

وَتَوْقِدُ مِنَّا الْأَضَالِعَ^(١)، وَأَطْوَاءَ^(٢) الصُّدُورِ . وَلَا يَسْعُنَا
 إِذْ نَقَرْنَا كِتَابَ « فُلُوطَارْخُس »^(٣) — بُلُوتَارْكَ —
 عَنْ حَيَاةِ الْعُظَمَاءِ وَتَرَاجِمِهِمْ أَنْ نَحْبِسَ حَمَاسَةَ قُلُوبِنَا ،
 وَلَا أَنْ نَمْلِكَ فَوْرَةَ دِمَائِنَا ، فِي أَعْرَاقِنَا ، وَشَرَائِينَا .
 وَإِنِّي لِأَحْبِذُ قَوْلَ الْحَكِيمِ الصِّينِيِّ الْقَائِلِ :
 « إِنَّ الْحَكِيمَ هُوَ مُعَلِّمٌ مِائَةِ جِيلٍ ، وَيَوْمَ يَسْمَعُ
 الْجَاهِلُ حِكْمَ لَوْلِينِيز ، وَالْغَبِيُّ إِذَا سَمِعَهَا يَتَزَكَّى ،
 وَالْمُتَرَدِّدُ يُغَادِرُ تَرَدُّدَهُ » .



هَذِهِ هِيَ حِكْمَةُ وَضْعِ التَّرَاجِمِ لِلْعُظَمَاءِ ، وَتَأْلِيفِ
 السِّيرِ لِأَهْلِ النُّبُوغِ ، بَلْ هَذَا فَضْلُهَا ، وَآثَرُهَا ،

حكمة
التراجم

(١) الأضالع جمع ضلع (٢) أطواء الصدور : ثناياها

(٣) فيلسوف يوناني قديم وكذلك من بعده بلوتارك

وَمَغْزَاهَا الرَّفِيعُ ، وَلَكِنَّ تَأْثِيرَ الرَّاحِلِينَ ، وَالْمَوْتَى
 الذَّاهِبِينَ ، فِي نُفُوسِنَا مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، لَا يَعْدِلُ^(١)
 أَثَرُ صَحْبِنَا وَرُفَقَائِنَا ، وَإِنْ كَانَتْ أَسْمَاؤُهُمْ ، لَنْ
 تَمُكَّتْ قَدْرَ مَا مَكَّشَتْ أَسْمَاءُ أَوْلِيكَ فِي الذَّاكِرَاتِ ،
 إِذْ مَنْ هُوَ الَّذِي لَا أَفْكَرُ فِيهِ ، وَلَا تَنْطَلِقُ نَفْسِي
 دَائِمًا إِلَيْهِ ؟؟ بِجَانِبِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ فِي كُلِّ عَزَلَتِنَا ،
 وَخَلَوَاتِنَا إِلَى نُفُوسِنَا ، يُغَذُّونَ أَرْوَاحَنَا ، وَيُلْهِمُونَ
 نُفُوسَنَا ، وَيَهَيِّجُونَ فِينَا أَسْمَى الْأَحَاسِيسِ .

إِنَّ فِي الْحُبِّ لَقُوَّةً تُعِينُ عَلَى اكْتِشَافِ مَصِيرِ
 الْمَحْبُوبِ ، أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَطِيعُ هُوَ أَنْ يَكْشِفَهُ ،
 بَلْ إِنَّ فِي الْحُبِّ ، لَمَا يُشْجِعُ وَيُخَفِّزُ^(٢) إِلَى الْبُطُولَةِ ،

(١) لا يعدل : لا يساوى . (٢) يحفز : يدفع .

وَجِسَامٌ^(١) الْفِعَالِ ، وَعَظَائِمُ الْأُمُورِ . وَهَلْ فِي
 الصَّدَاقَةِ مَا هُوَ أَسْمَى مِنْ جَاذِبَتِهَا ، الرَّفِيعَةِ الْجَلِيلَةِ ،
 نَحْوُ كُلِّ مَا هُوَ فَضِيلَةٌ فِينَا ، وَمَكَارِمُ وَمَنَابِعُ
 إِحْسَانٍ ؟ . وَيَوْمَ يَقَعُ لَنَا ذَلِكَ ، لَا نَعُودُ نَحْتَقِرُ
 أَنْفُسَنَا ، أَوْ نَنْظُرُ نَظْرَةَ الْمُسْتَخِفِّ إِلَى قِيَمَتِنَا ،
 وَأَقْدَارِنَا ، أَوْ نَرْتَحِصُ^(٢) مِنْ شَأْنِ حَيَاتِنَا ، إِذْ
 نَصْبِحُ مُرْتَبِطِينَ بِغَرَضٍ فِي الْحَيَاةِ مُعَيَّنٍ ، وَمَقْصِدٍ
 فِي الْعَالَمِ مُحَدُودٍ ، فَلَا نَسْتَحْيِي مِنْ صِنَاعَةٍ أَوْ
 مُحْتَرَفٍ ، وَإِنْ كَانَ احْتِقَارُ الطَّرِيقِ وَالْعَمَلِ هُوَ
 فِي دُنْيَا^(٣) الْمِهْنِ .

(١) من إضافة الصفة إلى الموصوف . وكذلك ما بعده (٢) نرتحص :
 نعدّها رخيصة (٣) أحقرها والمهن الحرف والصناعات . والمعنى المهن
 الدنيئة .



وَفِي هَذَا الْبَابِ أَيْضًا ، يَدْخُلُ ذَلِكَ الْإِحْتِرَامُ ^{أكبار} الْعِظَامِ ^{العضاء} ، وَالْإِجْلَالُ الطَّاهِرُ ، السَّامِيُّ الْخَالِصُ ، الَّذِي يُؤَدِّيهِ النَّاسُ جَمِيعًا عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبَتِهِمْ ، وَتَبَايُنِ طَبَقَاتِهِمْ ، لِرَجُلِ السَّاعَةِ ، وَبَطْلِ الْعَصْرِ وَالْأَوَانِ ، مِنْ أَمْثَالِ : « كوريوليناس » « وجراكاس » فَنَازِلًا إِلَى « رَبِت » « ولافايت » « وولنجتون » « ودييستر » « ولامارتين » . . . أَلَا تَسْمَعُ الْهَيْتَافَ الدَّائِي فِي الشَّوَارِعِ ، وَالصِّيَاحَ الْمُتَفَجِّرَ مِنَ الْوُفِ الْحَنَاجِرِ ، فِي أَغْرَاضِ الطَّرِيقِ ؟ ؟

إِنَّ النَّاسَ لِيَزْدَحْمُونَ ، وَيَتَدَافِعُونَ بِالْمَنَازِكِ ،

وَتَشْرَبُ^(١) مِنْهُمْ الْأَعْنَاقُ ، لِيَمْلُوا^(٢) الْأَبْصَارَ مِنْ
 شَخِصِ الْعَظِيمِ ، وَيَظْفَرُوا بِنَظَرَةِ خَاطِفَةٍ^(٣) إِلَيْهِ ،
 وَإِنَّهُمْ لَيَفْرَحُونَ بِهِ وَيُسْرُونَ ، وَيَعْجَبُونَ بِقَدِّهِ^(٤)
 الْمَدِيدِ ، وَرَأْسِهِ الرَّفِيعِ ، وَجِدْعِهِ الْبَاسِقِ^(٥) ، وَطَلْعَتِهِ
 الْبَاهِرَةِ ، وَعَيْنَيْهِ الْحَدِيدَتَيْنِ^(٦) ، وَكَتِفَيْهِ الْعَرِضَيْنِ ،
 وَسِمَاتِهِ^(٧) الرَّهْبِيَّةِ ، سِمَاتِ الْبَطْلِ الْعَظِيمِ ، ذِي الْقُوَّةِ
 الْهَائِلَةِ ، الَّتِي تُحَرِّكُ الْأَدَاةَ الضَّخْمَةَ ، وَالذُّوْلَابَ الْجَسِيمَ .
 وَهَذَا السُّرُورُ الَّذِي يُدَاخِلُ النَّاسَ ، إِنَّمَا يَسْمُو
 وَيَزْدَادُ لِإِدْرَاكِ التَّعْبِيرِ الْكَامِلِ ، لِمَا نَحْسُ نَحْنُ بِهِ ،
 وَنَعْجُزُ نَحْنُ عَنْ بَيَانِهِ ، وَالتَّصْوِيرِ الصَّادِقِ لِمَا يَخْتَلِجُ

(١) تشرب : تتطلع (٢) ليملوا الخ : ليمتعوا

(٣) خاطفة : سريعة (٤) القد : القامة (٥) الباسق : الطويل

(٦) الحديدتين : الحادتين في الابصار (٧) سمات : جمع سمة .

فِي مَشَاعِرِنَا ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى تَصْوِيرِهِ . وَهَذَا هُوَ
 سِرُّ فَرَجِ الْقَارِيِّ بِمَا يَقْرَأُهُ مِنْ كُتُبِ النَّوَابِغِ ،
 وَثَمَارِ تَفَكِيرِ الْعَبَقَرِيِّينَ ، فَلَيْسَ فِي كُتُبِهِمْ مَا يَحْجُبُونَ
 عَنِ النَّاسِ ، أَوْ يَكْتُمُونَ عَنِ الْبَشَرِ . بَلْ إِنَّ فِيهَا
 مِنَ النَّارِ الْمُتَأَجِّجَةِ ^(١) ، مَا يُحَرِّكُ الْجِبَالَ ، وَيُلْهَبُ ^(٢)
 الصَّخَرَ ، وَيُسَعِّرُ الْجَلَامِيدَ . وَقَدْ يَكُونُ مِنْ صَحِيحِ
 التَّعْبِيرِ ، عَنْ قِيَمَةِ شِكْسِيرٍ وَفَضْلِهِ ، قَوْلُنَا :
 إِنَّهُ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ ، كَانَ أَعْرَفَهُمْ بِاللُّغَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ ،
 وَأَمْلَكَ لِنَاحِيَّتِهَا ، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى إِبْرَازِ فُنُونِهَا وَسِحْرِهَا ،
 وَإِنَّهُ يَلْعَبُ بِهَا كَمَا يَشَاءُ ، وَيَقُولُ بِهَا مَا يَنْبَغِي ،
 وَيَتَنَاوَلُهَا كَأَنَّهُ سَيِّدُهَا وَخَدُّهُ ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا ،

(١) المتأججة : الملتبئة (٢) ويلهب الصخر : يشعله

وَلَا مُقَاسِمَ وَلَا نَظِيرَ . وَإِنَّ هَذِهِ الْبِنَايِعَ الْمُتَفَجِّرَةَ ،
وَالْمُفَاضَاتِ^(١) الْمُتَدَفِّعَةَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ أَعْمَاقِ الْمَشَاعِرِ ،
وَأَغْوَارِ الْإِحْسَاسِ ، إِنَّ هِيَ إِلَّا سِمَاتُ الصِّحَّةِ
وَالْعَافِيَةِ ، وَالْقُوَّةِ وَالْبَيِّنَةِ الْمُكْتَمَلَةِ ، الْمَشِيدَةِ
الْمَكِينَةِ ، النَّاطِحَةِ الْأَفْقِ ، وَإِنَّ اسْمَ « شَكْسِير » ،
لَيُوحِي إِلَى الذَّهْنِ ، حَسَنَاتٍ ذَهْنِيَّةً كَثِيرَةً ،
وَأُخْرَى تَقِيَّةً سَامِيَةً ، رَفِيعَةً الْمِقْدَارِ .



إِنَّ كَاشِفِي قِيَمِ الْمَادَّةِ مِنَ الْمُخْتَرِعِينَ وَالْمُبْتَدِعِينَ ،
لَيُنْزَلُونَ مَنْزِلَةَ الطَّبَّاخِينَ وَالطُّهَّاءِ ، وَالْحُلُوءَائِيِّينَ ،
يَوْمَ يَظْهَرُ كَاشِفُو قِيَمِ الْفِكْرِ ، وَمُسْتَحْدِثُو الْجَدِيدِ

كاشفو
المادة

(١) والمفاضات جمع مفاضة . المواضع التي يفيض منها الماء

مِنَ الرَّأْيِ ، وَالْمُبْتَكِرِ مِنَ الْخَوَاطِرِ ، فَإِنَّ الْعَبْقَرِيَّةَ
 هِيَ فِي التَّشْبِيهِ الْجُغْرَافِيِّ ، الْمَصَوِّرِ لِأَقَالِيمِ الْأَحَاسِيْسِ
 الرَّفِيعَةِ ، وَآفَاقِ الْمَشَاعِرِ الَّتِي فَوْقَ مَا لَوْفِ الْوُجْدَانِ ،
 بَلْ هِيَ الرَّاسِمَةُ لِخَرِيْطَتِهَا ، الْوَاصِفَةُ لِمُصَوِّرِهَا ،
 الْمُرْتَبَةُ لِتَقْوِيمِهَا ، وَإِنَّمَا تَتَفَتَّحُ أَمَامَ أَعْيُنِنَا أَقْطَارًا
 جَدِيدَةً مِنَ النَّشَاطِ ، وَنَوَاحِي مِنَ الْفِكْرِ ، تُطْفِئُ
 مَحَبَّتَنَا لِلْقَدِيمِ مِنْهَا ، وَوُلُوعَنَا بِالتَّلِيدِ^(١) ، بَلْ إِنْ
 هَذِهِ يَوْمَئِذٍ ، لَيَكْلُوحُ لَنَا أَنَّهَا الْوَاقِعُ وَالْحَقِيقَةُ ،
 وَأَنَّ مَا عَرَفْنَاهُ حَدِيثًا وَخَبَرْنَاهُ ، إِنْ هُوَ بِالنِّسْبَةِ لَهَا ،
 إِلَّا الظِّلُّ ، وَالصُّورَةُ ، وَالْخَيَالُ ، وَالْمَعْرِضُ^(٢) الْحَسَنُ
 الطَّرِيفُ .

(١) التلید : القديم (٢) المعرض : مكان العرض . والطريف :
 الحديث . يقال « ما له طريف ولا تلید » أى ما عنده قديم ولا حديث .



وَنَحْنُ نَذْهَبُ إِلَى مَيْدَانِ الْأَلْعَابِ الرِّيَاضِيَّةِ ،
 وَحَوْضِ السَّبَّاحَةِ ، لِنَشْهَدَ قُوَّةَ الْأَجْسَامِ ، وَجَمَالَ
 الْأَبْدَانِ ، وَشَبِيهَ بِالْمُتَعَةِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي هَذَا الْمَشْهَدِ ،
 وَإِنْ كَانَتْ أَسْمَى ، وَأَرْفَعَ شَأْنًا وَقَدَرًا ، مُتَعْتِنًا
 بِرُؤْيَا الْعَمَلِ الذَّهْنِيِّ الْعَظِيمِ ، مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَصِنْفٍ ،
 وَلَوْ ، كَمُدْهَشَاتِ الذَّاكِرَةِ ، وَعَجَائِبِ الْبِرَاعَةِ فِي
 الْحِسَابِ ، وَأَفَانِينِ الْمُخَيَّلَةِ ، كَأَنَّمَا نَحْنُ مِنْ ذَلِكَ
 كُلِّهِ ، فِي مَيْدَانِ رِيَاضِيٍّ آخَرَ . وَإِنْ كُنَّا لَا نَحْتَارُ
 الرِّجَالَ فِيهِ بِحَسَبِ قُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ ، وَجَمَالِ قُدُودِهِمْ ،
 وَلَكِنَّهَا بِحَسَبِ قُوَّةِ أَذْهَانِهِمْ ، وَعَظَمَةِ أَلْبَابِهِمْ ،
 وَجَلَالِ تَفْكِيرِهِمْ ، وَنَحْكُمُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَصْدَقِ

كيف
نختار
العضلاء ؟

سَمَاتِهِمْ ، وَأَصَحَّ طَوَائِعِهِمْ ، وَأَعْلَى مَا فِيهِمْ ، مِنْ
مَوَاهِبَ وَمَلَكَاتٍ .

وَلَعَلَّ أَجَلَ وَأَسْبَقَ هَذِهِ الْمَوَاهِبِ ، قَفَزَاتُ
الْخَيَالِ وَطَفَرَاتُهُ ^(١) ، وَمَفَاتِنُهُ وَانْبِعَاطَاتُهُ ، فَإِذَا
مَا تَيَقَّظَتْ هَذِهِ الْمُخَيِّلَةُ فِي الْإِنْسَانِ ، بَدَأَ ، وَكَانَّهُ
قَدْ زَادَ أَلْفَ مَرَّةٍ عَمَّا هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ وَتَحَوَّلَ عَشْرَةَ
أَمْثَالِ مَا كَانَ مِنْ قُوَّتِهِ ، لِأَنَّ الْمُخَيِّلَةَ النَّبَاضَةَ ،
الْمُفَكِّرَةَ الْمُصَوِّرَةَ لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ ، وَلَا
تَهَيَّبُ قُصُورًا ، وَلَكِنَّهَا الْجَرِيئَةُ الْمُقْدَامُ ، الْمُتَقَحِّمَةُ
الزَّاحِفَةُ الْمُتَصَدِّرَةُ ، وَنَحْنُ قَدْ خُلِقْنَا قَابِلِينَ لِلتَّمَدُّدِ ،
أَشْبَهَ شَيْءٌ بِالْغَازِ أَوْ دُخَانِ الْبَارُودِ . وَإِنَّ جُمْلَةً فِي

(١) طفراته جمع طفرة : وهى الوثبة فى ارتفاع

كِتَابٍ ، أَوْ كَلِمَةً عَارِضَةً فِي حَدِيثٍ ، لَكَافِيَةٍ ،
لَكِنِّي تَطْلُقُ مُخَيَّلَتَنَا مِنْ عِقَالِهَا ، وَتُرْسِلُهَا حُرَّةً
مُنْبَعَثَةً ، مُرْفَرَفَةً الْأَجْنَحَةِ فَلَا تَلْبَثُ رُءُوسُنَا أَنْ
تَسْمُوَ إِلَى الْمَجَرَّةِ^(١) ، وَإِنْ ظَلَّتْ أَقْدَامُنَا فَوْقَ الثَّرَى ،
وَلَكِنَّ الْخَيْرَ فِي ذَلِكَ وَالنَّفْعَ وَاقِعٌ ، وَالْفَائِدَةَ
مَأْتِيَةً مُحَقَّقَةً ، لِأَنَّنَا أَحْرِيَاءُ بِهَذَا السُّمُوِّ ، خُلَقَاءُ
بِهَذَا الْمُرْتَقَى ، وَسَاعَةً نَجْتَازُ الْحُدُودَ ، وَنَعْبُرُ الثُّخُومَ^(٢) ،
لَنْ نَعُودَ الصُّغَارَ ، الضُّعَافَ الْأَذْعِيَاءَ ، كَمَا كُنَّا .

✱
✱ ✱

الادراكات
التصورية
إِنَّ وَظَائِفَ الْعَقْلِ الْعُلْيَا ، مُتَحَالِفَةٌ مُرْتَبِطَةٌ
بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، حَتَّى لَيْشَاهِدُ عَادَةً عِنْدَ كَافَّةِ أَصْحَابِ

(١) المجرة : منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة تسميها العامة درب التبانة

(٢) الثخوم : الحدود

الْعُقُولِ الْجَبَّارَةِ ، وَكِبَارِ الْأَذْهَانِ ، أَنَّهُمْ لَا يَخْلُونِ
 مِنْ بَعْضِ النَّزَعَاتِ التَّصَوُّرِيَّةِ ، وَالْمَلَكَاتِ التَّخِيلِيَّةِ ،
 بَلْ إِنَّ ذَلِكَ لَيْشَاهِدُ أَيْضًا فِي كِبَارِ الرِّيَاضِيِّينَ ،
 وَعُلَمَاءِ الْحِسَابِ ، وَلِكِنَّهُ أَكْثَرُ مَا يَبْدُو خَاصَّةً
 عِنْدَ الْمُفَكِّرِينَ ، الَّذِينَ أُوتُوا مَلَكَهَ التَّفَكِيرِ ،
 وَنَزَعَةَ الْإِلْهَامِ^(١) ، وَحِدَّةَ الْعُقُولِ ، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ
 الْمُفَكِّرِينَ يُجْدِي عَلَيْنَا ، وَيَنْفَعُنَا وَيُرَكِّبُنَا ، لِأَنَّهُ
 قَدْ اكْتَسَبَ مَلَكَهَ إِدْرَاكِ الْأَشْيَاءِ عَلَى حَقَائِقِهَا ،
 وَإِدْرَاكِهَا بِالتَّصَوُّرِ وَالْخِيَالِ ، وَأَوْقَى الْمُقَدَّرَةَ عَلَى
 تَصَوُّرِهَا بِالْعَقْلِ وَرَدِّهِ ، وَمَا كَانَتْ أَعْيُنُ « أَفْلَاطُون »
 وَ « شَكْسِير » وَ « سَوِيدَنْبُرْج » وَ « جُوتَه » ،

(١) هو الخاطر الذي يهبط على النفس من غير سابقة تفكير .

لَتَغْمُضَ لَحْظَةً عَنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ مِنَ الْإِدْرَاكِ ،
 أَوْ تَعْفَلَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى أَثَرِ هَذَيْنِ النَّامُوسَيْنِ ^(١) فِي
 الْحَيَاةِ ، فَإِنَّ إِدْرَاكَهُمَا هُوَ أَثْبَتُ شَيْءٍ بِمِيزَانِ
 الْعَقْلِ وَانْسِجَامِهِ ، وَكَالْوَزْنِ فِي الشَّعْرِ وَرَوِيَّةٍ .
 وَمَا كَانَتْ صِغَارُ الْعُقُولِ صِغَارًا ، إِلَّا لِعَجْزِهَا عَنْ
 هَذِهِ الرُّؤْيَا ، وَنَقْصِهَا وَقُصُورِهَا ، عَنْ هَذَا الْإِدْرَاكِ .



وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَنَاعِمَ الْعَظِيمَةَ ، لَا تَرَالُ عُرْضَةً
 لِنُقْصَانِهَا ، وَهَذِهِ الْأَطْعِمَةَ الشَّهِيَّةَ الْفَاحِشَةَ ، قَدْ
 تُحْدِثُ الْبَشَمَ وَالشُّحْمَةَ وَالْكَظَّةَ ، فَإِنَّ فَرَحَنَا بِالْعَقْلِ
 الْعَظِيمِ ، وَإِجْلَالَنَا لِلذَّهْنِ الْجَبَّارِ ، قَدْ يَسْتَحِيلُ إِلَى
 عِبَادَةِ أَصْنَامٍ ، وَيَصِيرُ إِلَى وَثْنِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ ، بِالنَّسَبَةِ

سلطان
العظيم
وخطره

(١) الناموس : الشريعة والقانون

لِلْعَظِيمِ الْمُتَفَوِّقِ ، وَالْعَبْقَرِيِّ الْفَذِّ النَّادِرِ الْمِثَالِ ،
وَأَوْضَحُ مَا يَبْدُو ذَلِكَ ، إِذَا كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْعَقْلِ
الْجَبَّارِ ، مُعَلِّمًا لِلنَّاسِ هَادِيًا ، صَاحِبَ طَرِيقَةٍ أَخَذَةٍ
بِالْقُلُوبِ فِي الْإِمَامَةِ ، وَذَا أَسَالِيبَ قَوِيَّةٍ فِي الْقِيَادَةِ ،
وَالزَّعَامَةِ ، وَالتَّعْلِيمِ ، فَإِنَّ سُلْطَانَ الْعَظِيمِ لَطَاغٍ ،
وَأَثَرَ الْعَبْقَرِيِّ النَّابِغَةِ لَتَكْلِيفٍ قَاسٍ ، وَاسْتِعْبَادٌ
عَجِيبٌ ، وَيَكْفِي لِلتَّذْلِيلِ عَلَى هَذَا السُّلْطَانِ ، النَّافِذِ
الْغَالِبِ الْمُسْتَعْبَدِ ، مَا رَأَيْنَا مِنْ تَعَالِيمِ « أَرِسْطُو »^(١) ،
أَوْ زَعَامَةِ « الْبَطَالِسَةِ » ، فِي عُلُومِ الْفَلَكَ وَأَسْرَارِ
النُّجُومِ ، وَمَا أَحْسَنَتْهُ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنْ سُلْطَانِ « لَدَرْ » ،
و « يَكُون » و « لوك » ، بَلْ مَا قَامَ مِنْ سُلْطَانِ
الدِّينِ ، وَمَا نَامَسُهُ فِي تَارِيخِ الْكَهْنُوتِ^(٢) ،

(١) الفيلسوف اليوناني العظيم واستاذ الاسكندر المقدوني (٢) التعاليم المسيحية

وَالرِّيَّاسَاتِ الرُّوحِيَّةِ ، وَأَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ ، وَالْمِلَلِ ،
وَالنَّحْلِ^(١) الْمُتَعَدِّدَةِ ، هُوَ عَلَى مَا أَقُولُ شَاهِدٌ وَدَلِيلٌ .

وَأَسْفَاهُ ! كُلُّ امْرِئٍ لِهَذَا السُّلْطَانِ النَّافِذِ عَبْدٌ ،
وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِهَذَا النُّفُوزِ فَرِيسَةٌ ، وَإِنَّ ضَعْفَ
النَّاسِ وَقُصُورَهُمْ ، وَوَهْنَ إِرَادَتِهِمْ ، هِيَ أَبَدًا الْمُغْرِيَّةُ
بِاِكْتِسَابِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَالِاسْتِقْوَاءِ عَلَى ضَعْفِهِمْ ،
وَالِاسْتِحْمَاقِ^(٢) الْأَقْوِيَاءِ فِي امْتِلَاكِهِمْ وَقَهْرِهِمْ ،
وَالِاسْتِبْدَادِ بِهِمْ . وَلَكِنَّ النَّبُوغَ السُّوقِيَّ ، هُوَ
الَّذِي يَفْرَحُ وَيَهْنَأُ ، وَيَجِدُ لَذَّتَهُ وَشَهْوَتَهُ ، فِي
الطَّمَسِ عَلَى أَبْصَارِ النَّاسِ وَتَقْيِيدِهِمْ ، وَشَدِّ وَثَاقِ
نَفْسِهِمْ إِلَيْهِ . أَمَّا الْعَبْقَرِيَّةُ الصَّحِيحَةُ ، أَمَّا النَّبُوغُ

الصَّادِقُ ، أَمَّا الْعِظَمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ ، فَتِلْكَ هِيَ الَّتِي
تَحْمِينَا مِنْ نَفْسِهَا ، وَتَقِينَا مِنْ ذَاتِهَا ، وَهِيَ الَّتِي
تَهْبِنَا وَلَا تَسْلُبُنَا وَالَّتِي تُعْطِينَا وَلَا تُجَرِّدُنَا ، وَالَّتِي
تُحَرِّرُنَا وَلَا تُقَيِّدُنَا ، وَتَزِيدُنَا مَوَاهِبَ ، وَأَحَاسِيسَ ،
وَمَشَاعِرَ ، وَلَا تَنْقُصُنَا مِنْ أَنْفُسِنَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا .

☆
☆ ☆

وَيَوْمَ يَظْهَرُ فِي قَرَيْنَتِنَا رَجُلٌ كَلِيمٌ ^(١) ، لَا يَلْبَثُ
أَنْ يُحَدِّثَ فِي نُفُوسِ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُونَ إِلَيْهِ ،
وَيَتَصَلُونَ بِهِ ، وَيَنْدَجُونَ فِيهِ ، شُعُورًا جَدِيدًا ،
بِأَنَّهُمْ قَدْ اِزْدَادُوا شَيْئًا كَثِيرًا ، عَمَّا كَانُوا مِنْ قَبْلِ
ظُهُورِهِ . فَقَدْ عَلَّمَهُمْ كَيْفَ يَفْتَحُونَ أَعْيُنَهُمْ ، عَلَى أَمْرِ
لَمْ يَكُنْ لِيَكْشِفُوهُ ، لَوْ لَا هِدَايَتُهُ ، وَبُيُصِرُونَ أَشْيَاءَ ،

أثر
المرشد
المعظم

لَمْ يَكُونُوا مِنْ قَبْلُ لَهَا يُبْصِرُونَ . بَلْ إِنَّهُ لَكَثِيرٌ^(١)
 فِي أَنْفُسِنَا إِحْسَاسًا رَفِيعًا بِالمُسَاوَاةِ ، وَإِنَّهُ لَيَهْدِي
 مِنْ ثَائِرَاتٍ وَجَدَانَا^(٢) ، وَيُوَكِّدُ لَنَا أَنَّنَا لَنْ نُخْذَعَ
 وَلَنْ يُغَرَّرَ بِنَا . وَيَوْمَئِذٍ يَرْوَحُ كُلُّ فَرْدٍ فِينَا يُدْرِكُ
 خَوَافِي^(٣) عَيْشِهِ ، وَضَمَانَ حَيَاتِهِ ، وَضَوَابِطَ نَفْسِهِ ،
 وَمَعَائِبَ ذَاتِهِ . فَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ : فَيَأْمَسُونَ أَغْلَاطَهُمْ ،
 وَيُدْرِكُونَ فَقْرَهُمُ الْحَقِيقِيَّ وَفَاقَتَهُمْ . وَأَمَّا الْفُقَرَاءُ :
 فَيُدْرِكُونَ مَنْجَاتَهُمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ ، وَمَقَرَّهُمْ وَمَصَادِرَهُمْ ،
 وَمَوَارِدَهُمْ . وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ الْجُهَلَاءِ بِهَا ، وَالْمُعْدِمِينَ
 مِنْهَا ، وَالْمَحْرُومِينَ الْمُجَرَّدِينَ .

(١) يثير : يوقظ ويحيي (٢) الوجدان : الشعور والاحساس

(٣) خوافي عيشه : بواطنه



يَدُ^(١) أَنَّ الطَّبِيعَةَ تُودِي ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مُنَاسِبٍ تطلع
النفس
الى
الطريف ظَرْفِهِ ، وَتُحَدِّثُ ذَلِكَ جَمِيعَهُ فِي مُلَائِمٍ حِينِهِ ، فَإِنَّ
دَيْدَنَهَا^(٢) : هُوَ الْعَمَلُ بِالذَّوْرِ وَالتَّنَاوُبِ ، وَالْمَوَاقِيتِ ،
وَمَحْدُودِ الْأَحْيَانِ ، وَإِنَّ النَّفْسَ لَتَضْجُرُ بِالسَّادَةِ
عَلَيْهَا ، وَتَبْرُمُ بِمُتَلِكِيهَا . وَيَأْتِي يَوْمٌ عَلَيْهَا ، تَرْهَدُ
فِي الْمُتَحَكِّمِينَ فِيهَا وَمَوَالِيهَا ، فَتَلْتَفِتُ عَلَى جَدِيدٍ ،
وَتَتَطَلَّعُ إِلَى طَرِيفٍ ، وَتَلْتَمِسُ تَغْيِيرًا ، وَتَبْتَغِي
تَبْدِيلًا . وَلَقَدْ طَلَمَّا رَأَيْنَا رَبَّاتِ الْبُيُوتِ ، مِنْ مَلَالٍ
وَبَرَمٍ وَضَجَرٍ ، تَقُولُ عَنْ خَادِمٍ لَهَا — وَإِنْ كَانَتْ
النَّافِعَةَ الصَّالِحَةَ — لَقَدْ طَالَ مُكُثُهَا بِدَارِنَا ، وَمَسَّنَا

(١) يَدُ : إِلَّا (٢) الدين : الدأب والعادة

مِنْهَا سَامَةٌ^(١) مُؤَمِّلَةٌ . وَنَحْنُ جَمِيعًا نَاقِصُونَ ، نَعِيشُ
أَبَدًا عَلَى النَّزَعَاتِ وَالنَّوَازِعِ ، وَالْمَيُولِ وَالْأَهْوَاءِ ،
وَلَسْنَا كَمَا لَا تَأَمَّا ، وَلَا شُعُورُنَا أَبَدًا بِالْمَوْفُورِ
الْمُسْتَكْمَلِ السَّلِيمِ . وَنَحْنُ نَزُوحٌ وَنَعْدُو ، وَنَأْمَسُ
الشَّيْءَ وَنَدَعُهُ ، وَنَحْرُ بِهِ شَمَّ نُعَادِرُهُ ، وَنَأْخُذُ مِنْ
الْأَشْيَاءِ الزَّبَدِ^(٢) وَالسُّطُوحِ ، وَنَتَنَاوَلُ مِنْهَا مِقْدَارَ
الظَّوَاهِرِ ، وَالْأَغْشِيَةِ وَالْقُشُورِ .



التَّنَاوُبُ هُوَ نَامُوسُ الطَّبِيعَةِ وَقَانُونُهَا ، وَيَوْمَ
تُزِيلُ الطَّبِيعَةُ رَجُلًا عَظِيمًا مِنْ مَوْضِعِهِ ، وَتُزَحِّزُهُ
عَنْ مَكَانِهِ ، يَذَرَعُ^(٣) النَّاسُ الْأَفْقَ بِأَبْصَارِهِمْ ،

تعدد
مظاهر
النبوغ

(١) السامة : الملل (٢) الزبد : القشور (٣) ذرع الشيء قاسه بالذراع

تَطَلُّعًا إِلَى مَنْ يَخْلُفُهُ ، وَالتَّمَا سًا لِمَنْ يَلِيهِ ، وَلَكِنْ
لَا أَحَدَ يَأْتِي ، وَلَا أَحَدَ هُوَ آتٍ ، فَقَدْ انْتَهَى نَوْعُهُ
بِانْتِهَائِهِ ، وَانْقَرَضَ الصَّنْفُ بِذَهَابِهِ وَغِيَابِهِ ، وَلَكِنْ
قَدْ يَظْهَرُ عَلَى إِثَرِهِ ، طِرَازٌ آخَرٌ مِنَ النَّبُوغِ ،
وَمَظْهَرٌ جَدِيدٌ مِنَ الرُّجُولَةِ ، وَمَنْ يَلْتَمِسُوا بَعْدَ
« جَفْرُسُنْ » مَثَلًا « جَفْرُسُنْ » مِثْلَهُ ، أَوْ بَعْدَ
« فِرَانَكِلِينَ » ، « فِرَانَكِلِينَ » عَلَى غِرَارِهِ ^(١) ،
لَا يَجِدُوهُ ، وَإِنَّمَا قَدْ يُصِيبُونَ مُخْتَرَعًا ، وَمُثَبَّتَةً طُرُقٍ ،
أَوْ عَالِمًا مِنْ عُلَمَاءِ الْأَسْمَاكِ ، أَوْ رَحَّالَةً صَيَّادًا أَخَا
قَنْصٍ ، أَوْ قَائِدًا عَسْكَرِيًّا نِصْفَ هَمْجِيٍّ ، أَوْ نِصْفَ
مُتَوَحِّشٍ ، وَهَكَذَا نَجِدُ دَائِمًا تَعْوِيضًا مِنْ نَوَابِغِنَا فِي

(١) غراره : شاكلته

النَّوْعِ الْخَشِنِ ، وَالطَّرَازِ الْجَافِ ، وَلَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ
لَا نَعْدُمُ تَعَزِيَّةً عَنِ النَّوَابِغِ الْمُفَكِّرِينَ ، وَأَصْحَابِ
الْمَوَاهِبِ الرَّفِيعَةِ ، وَالتَّبُوءَاتِ اللَّيِّنَةِ الرَّفِيعَةِ السَّامِيَةِ ،
وَذَلِكَ أَنَّ الْقُوَّةَ الَّتِي نَجْتَنِيهَا مِنْهُمْ ، وَنَسْتَمِدُّهَا مِنْ
تُبُوءِهِمْ ، لَيْسَتْ لَهُمْ فِي ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ ، بَلْ هِيَ
لِأَفْكَارِهِمْ وَأَرَائِهِمْ ، وَنَحْنُ إِذْ نَغْتَبِطُ وَنَتَّبَحِّجُ
بِالْأَفْكَارِ وَالْآرَاءِ ، لَا نَزُوحُ مَدِينِينَ بِتِلْكَ الْغِبْطَةِ ،
وَذَلِكَ الْإِبْتِهَاجُ « لِأَفْلَاطُونِ » صَاحِبِهَا ، أَوْ
« شَكْسِير » رَبِّهَا ، أَوْ « جَوْتِه » مُدْلِمِهَا وَالْمُوحِي
بِهَا ، وَلَكِنَّا مَدِينُونَ لِلْفِكْرَةِ الَّتِي كَانَ أَفْلَاطُونُ
نَفْسُهُ أَيْضًا لَهَا مَدِينًا .



وَلَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَنْسَى أَنْ عَلَيْنَا أَيْضًا دِينًا خَاصًّا
 لِطَبَقَةِ مُعَيَّنَةٍ بِالذَّاتِ ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ مَرَاتِبُ وَدَرَجَاتُ ،
 وَيَنْ كُلُّ مَرْتَبَةٍ مِنْ عُظَمَائِنَا وَنَوَابِغِنَا ، وَالْمَرْتَبَةِ
 التَّالِيَةِ ، مَسَافَاتٌ وَاسِعَةٌ ، وَرَحْبُ فتراتٍ ، وَقَدْ
 تَعَلَّقَتْ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي جَمِيعِ الْأَجْيَالِ بِبِضْعَةِ رِجَالٍ
 كَانُوا ، إِمَّا بِسَبَبِ الْفِكْرَةِ الَّتِي جَاءُوا لِيُمَثِّلُوهَا ،
 أَوْ بِفَضْلِ سَعَةِ مَدَارِكِهِمْ ، وَبَعْدَ مَطَارِحِ (١) حِسِّهِمْ
 وَوُجْدَانِهِمْ ، اخْتِلَافِ (٢) بِالْمَوَاضِعِ الَّتِي اخْتَلَوْهَا
 كَمُشَرِّعِينَ ، وَزُعَمَاءَ ، وَقَادَةِ ، وَهَدَاةٍ ، وَمُعَلِّمِينَ ،
 وَهَوَؤَلَاءِ هُمْ : الَّذِينَ يُعَلِّمُونَنَا خَوَاصَّ الطَّبِيعَةِ وَمَبَادِيهَا ،

(١) مطارح : مراعى ادراكهم البعيدة (٢) الخلفاء : الجديدين

وَيَكْشِفُونَ مَغَالِيقَ أَسْرَارِهَا وَمُعَمِّيَاتِهَا ، وَيُذِخُونَ
لَنَا التَّغْلُغَ^(١) فِي جَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ ، وَيَقُودُونَنَا إِلَى
الْكَيَانِ^(٢) عَنْهَا وَالسِّرِّ وَاللُّبَابِ .

وَإِنَّا لَنَسِيحُ كُلِّ يَوْمٍ فِي نَهْرٍ مِنَ الْأَوْهَامِ ،
وَالْأَخِيلَةِ وَالْخُدْعِ ، وَلَنَلْهُو بِتَشْيِيدِ مَغَانٍ^(٣) وَقُصُورٍ
فِي الْهَوَاءِ ، يَنْخَدِعُ بِهَا الَّذِينَ مِنْ حَوْلِنَا ، وَيَحْسِبُهَا
الَّذِينَ يُصَدِّقُونَنَا قَوَائِمَ ، وَهِيَ لَيْسَتْ قَائِمَةً ،
وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ صِدْقٌ وَحَقَائِقُ ، وَجِدٌّ وَوَاقِعٌ ،
وَنَحْنُ فِي فتراتٍ الْجِدِّ ، وَالصَّحْوِ وَالتَّجَرُّدِ ، مِنْ
الْخِيَالِ ، قَائِلُونَ لِأَنْفُسِنَا ، لَتَكُنْ هَذِهِ الْمَغَانِي

(١) التغلغل : التدخل (٢) الكيان : الحقيقة (٣) مغان :

جمع مغنى : المكان المأهول بسكانه

وَالْقُصُورُ ، مَدَاخِلَ وَرَدَهَاتٍ^(١) تَفْتَحَتْ أَمَامَنَا ،
لِنَجْتَازَهَا إِلَى الْحَقَائِقِ ، وَحَسَبْنَا أَنَّنَا لَهَوْنَا طَوِيلًا ،
وَكُنَّا الْحَقَّ الْمَغْفَلِينَ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي .

وَيَوْمَئِذٍ نَعْرِفُ مَعَانِيَ اقْتِصَادِيَّاتِنَا ، وَسِيَاسَاتِنَا ،
بَلْ أَعْطَوْنَا السَّرَّ وَالسَّفَرَ^(٢) . وَإِذَا كَانَ النَّاسُ وَالْأَشْيَاءُ
مُخْتَزِنًا^(٣) مُوسِيقَى سَمَاوِيَّةٍ ، وَمَدَارِجَ أَنْعَامٍ إِلَهِيَّةٍ ،
فَدَعُونَا لِنَسْتَفْرِئَ^(٤) الْأَوْتَارَ ، وَنَتَبَيَّنَ السَّلْمَ وَالذَّرَجَ ،
وَلِنَبْزَنَ كُنَّا قَدْ خُدَعْنَا فِي عُقُولِنَا ، فَلَقَدْ كَانَ لَنَا حُكَمَاءُ
وَعُقَلَاءُ ، وَهَدَاةٌ عَاشُوا مِنَّا أَجْلِنَا . وَمَا تَعَلَّمُوهُ
وَعَرَفُوهُ وَكَشَفُوهُ ، إِنَّمَا تَعَلَّمُوهُ وَعَرَفُوهُ وَكَشَفُوهُ

(١) ردهات : فسحات بين الحجرات (٢) السفر : الكتاب
الكبير الحجم (٣) مختزن : مخزن (٤) نستفري : نتبع

لَأَجْلِنَا ، وَخَيْرِنَا وَنَفَعِنَا ، وَبِظُهُورِ كُلِّ عَقْلٍ جَدِيدٍ ،
يُنْبَشِقُ^(٥) وَتَفْتَحُ ، وَيُنْكَشِفُ مِنَ الطَّبِيعَةِ سِرُّ جَدِيدٍ
مِنْ أَسْرَارِهَا . وَلَنْ تُمَحَى التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ
حَتَّى يُوَلِّدَ آخِرُ رَجُلٍ عَظِيمٍ فِي الدُّنْيَا ، وَيَخْرُجَ
إِلَى الْعَالَمِ .

العظماء
والإنسانية
إِنَّ هَؤُلَاءِ الْعُظَمَاءَ : هُمُ الَّذِينَ يُلَطَّفُونَ مِنْ
هَذِيانِ حَيَوَانِيَّتِنَا وَيَكْسِرُونَ مِنْ حَدَّةِ بُحْرَانِ^(١)
بِهَيْمِيَّتِنَا ، وَهُمْ الَّذِينَ يَرُدُّونَنَا مُتَدَبِّرِينَ مُتَعَقِّلِينَ ،
وَيَقُودُونَنَا إِلَى غَايَاتٍ وَمَقَاصِدَ عُلْيَا ، وَيُكْسِبُونَنَا
قُوَّاتٍ جَدِيدَةً لَمْ تَكُنْ لَنَا ، وَإِنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ لَتَخْصُ
هَؤُلَاءِ بِأَكْبَرِ اخْتِرَامِهَا ، وَتُحْلِلُهُمْ فِي أَرْفَعِ الْمَوَاضِعِ

(١) ينبثق : يظهر (٢) البهران : التهييج والاختلال في القوى المدركة

مِنْ تَقْدِيرِهَا ، وَإِجْلَالِهَا . . . أَلَمْ تَرَ إِلَى أَكْثَرِ
 الْأَنْصَابِ ^(١) وَالتَّمَاثِيلِ ، وَالصُّوَرِ وَالتَّهَاوِيلِ ^(٢) ،
 وَالْأَلْوَاكِحِ وَالرُّسُومِ ، الَّتِي تَسْتَعِيدُ ذِكْرِيَّاتِ بُعْثِهِمْ ،
 وَتُثِيرُ ^(٣) هَوَاجِعَ ^(٤) سَيْرِهِمْ ، وَقِصَصَ عُبْقَرِيَّاتِهِمْ ،
 فِي كُلِّ مَدِينَةٍ وَقَرْيَةٍ ، وَدَارٍ ، وَسَفِينَةٍ وَجَارِيَةٍ ^(٥) .
 إِنَّ أَشْبَاهَهُمْ ^(٦) لَتَرْتَفِعُ أَمَامَ أَبْصَارِنَا ، وَشُخُوصَهُمْ
 لَتَتَجَسَّمُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِنَا إِخْوَتُنَا أَوْلِيَاكَ : وَلَكِنْ
 أَعَزُّ مِمَّنْ هُمْ إِخْوَةٌ لَنَا ، بِالدَّمِ وَالْقُرْبَى ، وَاللَّحْمَةِ
 وَالرَّحِمِ ، وَإِنَّهُمْ لَيُطْلُونَ عَلَيْنَا ، وَنَحْنُ عَلَى الْمَوَائِدِ
 مَصْفُوفُونَ ، وَإِنَّهُمْ لَيُشْرِفُونَ فَوْقَ مِهَادِنَا ^(٧) ، وَنَحْنُ

(١) الأنصاب : الأعلام (٢) التهاويل : الألوان المختلفة

(٣) تثير : توقظ (٤) هواجع : جمع هاجعة وهى النائمة الغافلة

(٥) الجارية : السفينة وما إليها (٦) أشباههم : أشخاصهم وصورهم

(٧) مهاد : مضاجع النوم .

صَاجِعُونَ ، وَإِنَّهُمْ لَيَنْظُرُونَ إِلَيْنَا فِي نَظَرَاتِ جَمَالٍ ،
وَرَفَقٍ وَحَنَانٍ ، وَيَتَحَدَّثُونَ إِلَيْنَا فِي نَجْوَى ^(١) ،
وَبِالرُّوحِ وَالْوُجْدَانِ .

— لِيَ اللَّهُ ! — كَيْفَ أَصَوِّرُ فَضْلَ الْفِكْرِ عَلَى
الْذُّنْيَا ؟ وَأَيْنَ لِي بِوَصْفِ جَلِيلِ النَّفْعِ ، وَعَظِيمِ
الْجُدْوَى ^(٢) ، وَكَبِيرِ الصَّنِيعِ ^(٣) ، الَّذِي يُسَدِّدُهُ الَّذِينَ
يَكْشِفُونَ لَنَا عَنِ الْحَقَائِقِ الْخُلُقِيَّةِ ، وَالْمَعَانِي
السَّامِيَةِ ، وَالْحِكْمَةِ الْعَالِيَةِ ؟ إِنِّي وَاللَّهِ لَمُتَبَرِّمٌ
صَجِرٌ طِيلَةَ حَيَاتِي بِتَعْرِيفَةِ الْأَسْعَارِ ، وَمَادِيَةِ الْعَيْشِ ،
وَرَتِيبِ جَرَيَانِ الْأَيَّامِ ، وَمُزْهَدِ سَيْرِ السِّنِّينِ ،
فَلَوْ اشْتَغَلْتُ فِي حَدِيقَةِ دَارِي ، مُشَدِّبًا الشَّجَرَ ،

(١) النجوى : المسارة (٢) الجدوى : الفائدة (٣) الصنيع : المعروف

فضل
الفكر
على العالم

مُقَلَّمًا الْأَمَالِيدَ^(١) ، مُهَذَّبًا الْأَفْرُعَ وَالْأَفْنَانَ ، لَوَجَدْتُ
 مُتَعَةً كَافِيَةً ، أَحْسَبُنِي مُسْتَطِيعًا أَنْ أُوَصِّلَهَا بِلَا
 انْقِطَاعٍ ، وَلَا أَكْفَ عَنْهَا آخِرَ الْحَيَاةِ ، وَلَكِنِّي
 لَا أَلْبَثُ أَنْ أَحْسَّ الْيَوْمَ قَدْ ذَهَبَ ، وَلَمْ أَصْنَعْ
 شَيْئًا ، فَأَذْهَبَ إِلَى « بُوسْطَن » أَوْ أَشْخَصَ^(٢) إِلَى
 « نِيويورك » ، وَأَرْوَحَ أَغْدُو مَقْضِيًّا مَطَالِبِي مَعْنِيًّا
 بِمَشَاغِلِي وَهَامِهِمْ^(٣) عَيْشِي ، وَلَكِنَّ النَّهَارَ يَمْضِي
 قَبْلَ أَنْ أَظْفَرَ مِنْ عَمَلٍ فِيهِ يَنْفَعُ ، أَوْ خَيْرٍ
 مُحْسُوسٍ ، فَأَتَمَثَّلُ جِلْدَ الْحَمَارِ^(٤) الَّذِي يُقَالُ : إِنَّ
 مَنْ يَقْتَعِدُهُ يَجِدُ مَتَمَنَّهُ ، وَيُصِيبُ رَغْبَةً نَفْسِهِ

(١) الأماليد : الأغصان اللينة الناعمة (٢) أشخص : أذهب

(٣) هام الحياة : مشاغلها . وهام العيش : متاعه وآلامه .

(٤) أتمثل جلد الحمار : هذا المثل يضرب للتبذل .

وَمُشْتَهَاهُ ، وَلَكِنِّي أَذْكُرُ أَيْضًا : أَنَّ كُلَّ قِطْعَةٍ
 مِنْ ذَلِكَ الْإِهَابِ ، تَذْهَبُ لِقَاءَ كُلِّ رَغْبَةٍ ،
 وَبَسْبِيلِ كُلِّ أُمْنِيَّةٍ ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ يَصْلُحُ
 مُقْتَعَدًا ، فَذْهَبُ ائْتِمَسُّ مَجْمَعِ أَهْلِ الْخَيْرِ ، وَمُحِبِّ
 الْإِحْسَانِ ، وَالْمَيَامِينِ ^(١) الْمُنَادِينَ إِلَى نَفْعِ الْبَشَرِيَّةِ ،
 وَلَكِنِّي لَا أَكَادُ أَجْلِسُ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى أَتَطَّلَعَ بِنَظَرِي
 إِلَى السَّاعَةِ الْمُعَلَّقَةِ فَوْقَ الْجِدَارِ ، مِنْ شِدَّةِ الْبَرَمِ ،
 وَطُولِ الضَّجَرِ ، وَكَلَالِ ^(٢) الْخَاطِرِ وَالرُّوحِ ، وَلَكِنْ
 لَوْ أَنَّ فِي الْجُمُعِ رَجُلًا ذَا نَفْسٍ سَمْحَةٍ ، رَفِيقَةٍ كَرِيمَةٍ ،
 يَعْرِفُ قَلِيلًا مِنْ نَوَادِرِ النَّاسِ ، وَطَرَفًا مِنْ أَخْبَارِ
 الْأُمَمِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَشُدُورًا ^(٣) مِنْ أَحْوَالِ الْبِلَادِ

(١) الميامين : جمع ميمون وهو ذو اليمين والبركة (٢) كلال خاطر :

ضعف التفكير (٣) شذور : أجزاء

وَالْآفَاقِ ، وَالْأَمْصَارِ وَالْأَقَالِمِ ، وَيَشْرَحُ الْقَانُونَ
الَّذِي يَسْرِي عَلَى هَذِهِ جَمِيعًا ، وَالنَّوَامِيسَ الطَّبِيعِيَّةَ
الْمُسَيِّطَرَةَ عَلَى الْعَوَالِمِ مُجْمَلَةً ، وَيُوَكِّدُ لِي بِفَتْوَنِ
حَدِيثِهِ ، وَطِيبِ سَمَرِهِ ، رُوحَ الْعَدْلِ السَّمَوِيِّ .
الَّذِي يَكْشِفُ خَدِيعَةَ كُلِّ خَدَّاعٍ وَأَكْذُوبَةَ
كُلِّ كَذَّابٍ ^(١) أَشَرٍ ، وَمَذْقَ ^(٢) كُلِّ مُمَازِقٍ ،
وَتَمَخِذُ كُلِّ أَنَانِيٍّ أَثَرٍ ^(٣) ، وَتُوحِي إِلَى نَفْسِي حُرِّيَّتَهَا
وَاسْتِقْلَالَهَا ، فِي أَيِّ بَلَدٍ مِنَ الْبِلَادِ ، وَزَمَنٍ مِنَ
الْأَزْمَانِ ، وَآيَةٍ حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ . لَوْ أَنَّ شَيْئًا مِنْ
ذَلِكَ ، تَوَاتَى ^(٤) لِي فِي حَدِيثِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، أَوْ تَهَيَّأَ لِي
الِاسْتِمْتَاعُ بِهِ . إِذَنْ : لَنَسِيتُ الْوَقْتَ ، وَغَفَلْتُ

(١) أَشَرٍ : بَطَر (٢) مَذْقُ الْمَازِقِ : مِدَاهِنُهُ وَعَدَمُ اخْلَاصِهِ

(٣) أَنَانِيٍّ أَثَرٍ : مَحَبِّ لِنَفْسِهِ دُونَ سِوَاهُ (٤) تَوَاتَى : تَهَيَّأَ

عَنِ السَّاعَةِ ، وَلَمْ أَعُدْ أَعْبَأُ بِالزَّمَنِ وَمَرُّهُ . وَإِذَنْ :
 لَتَحَلَلْتُ مِنْ صِلَاتِي الْمَأْلُوفَةِ بِالنَّاسِ ، وَعَلَاقَتِي
 الْمُضْجِرَةِ بِالْجَمَاعَاتِ . وَإِذَنْ : لَشُفِيتُ مِنْ آلَامِي ،
 وَبَرَأْتُ مِنْ جِرَاحِي ، وَلَعُدْتُ مُخْلَدًا بِفَضْلِ إِدْرَاكِي
 هَذِهِ الْمُتَعِ النَّفْسِيَّةِ ، وَظَفَرِي بِهِذِهِ الْحَسَنَاتِ الطَّاهِرَةِ ،
 النَّقِيَّةِ السَّامِيَّةِ . بَلْ فِي هَذَا : فَلَيْتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ،
 وَلَيْتَرَاحِمِ الْمُتَزَاحِمُونَ ، أَغْنِيَاءُ وَفُقَرَاءُ عَلَى السَّوَاءِ .



التناحر
على
الحياة

وَلَكِنَّا نَعِيشُ فِي سُوقٍ ، حَيْثُ لَا نُصِيبُ غَيْرَ
 غَلَالٍ أَوْ حِنْطَةٍ ، أَوْ صُوفٍ أَوْ نَسِيجٍ ، أَوْ أَرْضٍ ،
 وَمَنْ يَأْخُذُ أَكْثَرَ ، إِنَّمَا يَدَعُ غَيْرَهُ يَأْخُذُ أَقَلَّ ،
 وَلَسْتُ أَصِيبُ خَيْرًا ، إِلَّا كَانَ بِجَانِبِهِ ضَرٌّ لِسِوَايَ .

وَمَا مِنْ أَحَدٍ هُوَ الْفَرِحُ الطَّرُوبُ ، الْمُبْتَهِّجُ بِفَرَحِ
أَخِيهِ وَطَرَبِهِ وَابْتِهَاجِهِ . وَمَا حَيَاتُنَا إِلَّا حَرْبٌ دَائِمَةٌ ،
يُرَادُ مِنْهَا التَّفَوْقُ بِالْأَذَى ، وَبِالشَّرِّ الْإِسْتِعْلَاءُ . وَكُلُّ
طِفْلٍ مِنَ الْجِنْسِ السَّكْسُونِيِّ ، يُودَّبُ وَيُرَبَّى عَلَى
الرَّغْبَةِ فِي أَنْ يَكُونَ الْأَوَّلَ ، وَيُرَوِّحَ فِي الْحَلْبَةِ ^(١)
الْمُحَلِّيِّ وَالسَّبَّاقِ . هَكَذَا هِيَ حَيَاتُنَا وَنِظَامُنَا ، وَإِنَّ
الرَّجُلَ مِمَّا لَيَقِيسُ عَظَمَتَهُ ، وَخَطَرَ مِقْدَارِهِ ، وَبَعِيدَ
شَأْوِهِ ^(٢) بِمَبَالِغِ النَّدَامَاتِ وَالْآلَامِ ، وَالْحُسْدِ وَالْبَغْضَاءِ ،
وَالْمُنَازَعَاتِ الَّتِي يُقَاسِمُهَا مُنَافِسُوهُ ، وَالْأَقْرَانُ ^(٣) .

* *

وَإِنِّي لَا عَجَبُ بِالْعُظَمَاءِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَنْوَاعِ ،
وَتَبَايُنِ الطَّبَقَاتِ ، الْعُظَمَاءَ الَّذِينَ يُقَرَّرُونَ الْحَقَائِقَ

من
الاعجاب
العوام

(١) الحلبة الميدان (٢) الشأو : القدر (٣) الأقران: الأنداد والنظراء

سَوَاءٍ عِنْدِي فِي مَوَاضِعِ الْإِعْجَابِ . وَالْعُظْمَاءِ بِالْأَفْكَارِ
وَالْآرَاءِ ، بَلْ أَنَا أَحِبُّ الْخُشْنَ مِنْهُمْ وَاللِّينَ ،
وَسَيَّاطَ^(١) اللَّهَ فِي الْأَرْضِ ، وَالْأَعِزَّةَ الرُّفَقَاءَ الْمُحِبِّينَ ،
أَحِبُّ « الْقَيْصَرَ الْأَوَّلَ » ، وَ « شَارْلَ الْخَامِسَ عَاهِلَ^(٢) »
الْأَسْبَانَ » ، وَ « شَارْلَ الثَّانِي عَشَرَ مَلِكَ السُّوَيْدِ » .
وَأَحِبُّ « رَيْتشارد بِلانتاجنت » وَ « نَابليون نابِغَةَ
الْفَرَنْسِيِّينَ » . وَإِنِّي لَا خَفِقُ إِعْجَابًا بِالرَّجُلِ الْكَافِي ،
بِالرَّجُلِ الْكَفِّءِ لِمَوْضِعِهِ ، الْمُنَاسِبِ لِمَكَانِهِ ، سَوَاءٍ
أَكَانَ مِنَ الْقَوَادِ وَالرَّبَّانِيَّةِ ، وَالنُّوَابِ أَمْ الْوُزَرَاءِ ...
أَحِبُّ السَّيِّدَ الثَّابِتَ الْمُسْتَوِيَّ عَلَى قَدَمٍ مِنْ حَدِيدٍ ،
الْحَسَنَ الْمُنْبِتَ ، الْغَنَى ، الْجَمِيلَ ، الْفَصِيحَ ، الْبَلِيعَ

(١) سياط : عذاب وهي جمع سوط (٢) العاهل : الملك .

النَّفَاعَ الصَّالِحَ ، الْمَنَاحَ لِلْخَيْرِ ، الْمُجْتَذِبَ النَّاسَ
جَمِيعًا بِسِحْرِهِ ، وَمُيِّنَ سُلْطَانِهِ ، لِيَكُونُوا أَقْنِيَةً^(١)
وَفُرُوعًا وَرَوَافِدَ^(٢) لِقُوَّتِهِ وَنَفْوذِهِ . وَإِنَّ السَّيْفَ
وَالْعَصَا ، أَوِ الْمَوَاهِبَ الْمُتْرَهَفَةَ كَالسَّيْفِ ، أَوِ الْمُتَمِينَةَ
كَالْعَصَا ، هِيَ الَّتِي تُسِيرُ الْعَالَمَ ، وَتَسْوِقُهُ وَتَقْتَادُهُ
إِلَى الْأَمَامِ .

☆ ☆

وَلَكِنِّي : أَرَاهُ أَعْظَمَ وَأَجَلَّ وَأَرْوَعَ ، إِذَا هُوَ
عَنْصَرُ
الْإِثَارِ
أَسْتَطَاعَ أَنْ يُلْغِيَ نَفْسَهُ ، وَيُنْكَرَ ذَاتَهُ ، وَيَتَجَرَّدَ
رُوحُ
الْعَظَمَةِ
مِنْ أَثَرِهِ ، وَإِنَّ الْأَبْطَالَ جَمِيعًا لَكَذَلِكَ عِنْدِي ،
إِنْ هُمْ أَشْرَبَتْ^(٣) نَفُوسُهُمْ هَذَا الْعُنْصَرَ ، وَأَفْعَمَتْ

(١) أقنية : جمع قناة وهي التي يسير فيها الماء لسقي الزرع (٢) روافد
النهر : مستمداته وفروعه التي تمده بالماء (٣) أشربت نفوسهم :
خالطت وامتزجت

قُلُوبِهِمْ بِهَذَا الرُّوحِ ، فَغَضُّوا النَّظَرَ عَنِ الْأَشْخَاصِ ،
وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَصَوْتِ الْفَرْدِيَّةِ وَالذَّاتِيَّةِ ، وَأَذِنُوا
لِهَذَا الْعَامِلِ ، السَّامِيِّ الْعَظِيمِ الرَّفِيعِ ، الَّذِي يُجِلُّهُمْ
أَرْفَعَ مَوْضِعٍ مِنْ أَنْفُسِنَا ، أَنْ يُبِيدَ ^(١) فِيهِمْ أَثَرَتَهُمْ ،
فَيَكُونَ السُّلْطَانُ بِهِمْ عَظِيماً ، وَصَاحِبُ السُّلْطَانِ
لَيْسَ شَيْئاً مَذْكُوراً ، وَيَكُونَ الثُّفُودُ هُوَ الْمُسَيِّطِرُ ،
وَصَاحِبُ الثُّفُودِ غَيْرُ مُسَيِّطِرٍ ، وَمَنْ يَكُنْ هَكَذَا
شَأْنُهُ ، يَكُنْ مَلِكاً يَمْنَحُ الشَّعْبَ دُسْتُوراً ، أَوْ
حَبِيراً ^(٢) يُعَلِّمُ النَّاسَ وَيَعْظُمُهُمْ ، فِي مُسَاوَاةِ النَّفُوسِ
وَالْأَرْوَاحِ ، أَوْ عَاهِلاً مَحْبُوباً تَتَفَانَى الدَّوْلَةُ فِيهِ

☆

☆☆

أَحْسَبُنِي تَرَامِي الْقَوْلُ بِي وَامْتَدَّتْ أَنْفَاسُ

مزايا
العامة

الْكَلَامَ ، وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُعَيِّنَ عَلَى التَّحْدِيدِ وَجْهَيْنِ
أَوْ ثَلَاثَةَ وُجُوهِ لِفَضْلِ الْعُظَمَاءِ وَبِرِّ النَّوَابِغِ
وَصَلَاحِيَّتِهِمْ وَإِجْدَائِهِمْ^(١) عَلَى النَّاسِ . إِنَّ الطَّبِيعَةَ
لَا تَسْتَعْنِي يَوْمًا عَنِ الْمُخَدَّرِ وَالْأَفْيُونِ ، حَيْثُ
تَشَوُّهُ مَخْلُوقَاتُهَا بِعَاهَةِ أَوْ تَقْصُ أَوْ مَعَابٍ ، تَضَعُ
بَلْسَمَهَا^(٢) بِكَثْرَةِ وَسَخَاءِ عَلَى الْجُرُوحِ وَالنَّدُوبِ^(٣)
وَمَوَاضِعِ النَّقْصِ وَالْآلَامِ ، فَيَمْضِي الْمِسْكِينُ مُتَهَلِّلًا
طَرُوبًا^(٤) فِي الْحَيَاةِ غَيْرَ شَاعِرٍ بِمَا أَصَابَهُ ، وَلَا عَابِيٍّ
بِمَا انْتَابَهُ ، وَلَا مُحْسِنٍ النَّقْصِ أَوْ الْمَعَابِ^(٥) الَّذِي
فِيهِ ، وَلَا قَادِرٍ عَلَى رُؤْيَا الدَّمَامَةِ ، أَوِ الشَّوْهَةِ^(٦)

(١) إجداء : إحسان (٢) بلسم : دواء (٣) الندوب : آثار
الجروح (٤) متهللا طروبا : فرحا (٥) المعاب : الذي يعيبه الناس
(٦) الدمامة والشوهة : قبح النظر .

الَّتِي تَعْرِوهُ ، وَإِنْ وَقَفَ النَّاسُ جَمِيعًا يُشِيرُونَ إِلَيْهَا
 بِالْأَنَامِلِ لَيْلَ نَهَارٍ ، وَإِنَّ صِغَارَ النَّاسِ وَأَرَادِلَهُمْ ،
 وَمَنْ لَا فَضْلَ لَهُمْ ، وَالْأَشْقِيَاءَ وَالْأَشْرَارَ فِيهِمْ ،
 وَالَّذِينَ حَيَاتُهُمْ ضُرٌّ عَلَى الْمُجْتَمَعِ ، وَحَرْبٌ وَوَيْلٌ ،
 لِيَحْسَبُونَ أَنْفُسَهُمْ مَظْلُومِينَ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، أَسْوَأَ
 النَّاسِ حُظُوظًا فِي الدُّنْيَا . وَلَا يَنْفَكُونَ أَبَدًا فِي
 عَجَبٍ وَدَهْشَةٍ ، مِنْ جُحُودِ عَصْرِهِمْ لِفَضْلِهِمْ ،
 وَنُكْرَانِهِ لِأَقْدَارِهِمْ ، وَأَنَانِيَةِ جِيلِهِمْ وَآثَرَتِهِمْ .

إِنَّ دُنْيَانَا هَذِهِ إِنَّمَا تَكْتَشِفُ خَافِي مَزَايَاهَا ،
 وَخَبِيءَ فِضَائِلِهَا ، لَا فِي الْأَبْطَالِ وَحْدَهُمْ ، وَلَا فِي
 الْأَخْيَارِ وَالْأَطْهَارِ دُونَ سِوَاهُمْ ، وَلَكِنْ فِي أَحَادِيثِ

الِاعْتِيَادِيَّيْنَ وَمَجَامِعِهِمْ ، وَعَجَازِ النِّسَاءِ وَلَغَطِهِنَّ ^(١) ،
وَكَلَامِ الْمَجَالِسِ وَضَوْضَامِهَا ، أَلَيْسَ مِنْ غَرِيبِ
الْحِيلَةِ ، وَعَجِيبِ التَّدْيِيرِ ، أَنَّ اللَّهَ وَضَعَ فِي كُلِّ
مَخْلُوقٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، رُوحًا مِنْ الْإِلْحَاحِ ^(٢) عَلَى
الِاعْتِقَادِ ، وَالْجُمُودِ عَلَى الْفِكْرَةِ الْمُتَّصِلَةِ ، حَتَّى
لَتَغْضِبُهُ الْإِثَارَةُ مِنَ الشُّكُونِ ، وَيَسْتَنْفِرُهُ الدَّافِعُ
إِلَى التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ ، وَأَنَّ هُنَاكَ الْإِعْتَزَازَ بِالْفِكْرِ ،
وَكِبْرِيَاءَ الرَّأْيِ ، وَهِيَ مُسْتَقَلَّةٌ عَنِ الْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ
فِي ذَاتِهَا ، وَمَبْلَغَ الْمَوْهَبَةِ الذَّهْنِيَّةِ وَقِيمَتِهَا ، ذَلِكَ
الِإِعْتَزَازُ الَّذِي يُوحَى إِلَيْنَا الطَّمَأْنِينَةَ إِلَى أَنَّ عَلَى
الْحَقِّ ، وَتِلْكَ الْكِبْرِيَاءُ الْفِكْرِيَّةُ الَّتِي تُكْسِبُنَا

(١) اللفظ : الكلام الذى لا طائل تحته ولا فائدة فيه

(٢) الالاح : كثرة السؤال

الثَّقةَ وَالْيَقِينَ بَأَنَّنَا عَلَى الصَّوَابِ ، وَإِنَّ أَوْهَنَ عَجُوزٍ
عَظْمًا ، وَأَضْعَفَ امْرَأَةً ذِهْنًا ، بَلْ إِنَّ أَشَدَّ الْبُلْهَ^(١)
بِلَاهَةً ، وَأَكْثَرَ الْحُمَقَى حِمَاقَةً ، لَا يَزَالَانِ يَسْتَخْدِمَانِ
بَقِيَّةَ مَا بَقِيَ لَهُمَا مِنْ شَرَارَةِ الْإِذْرَاكِ ، وَآخِرَ
مَا تَرِكَ لَهُمَا مِنْ مَلَكََةِ الشُّعُورِ ، وَلَا يَزَالَانِ
يَفْرَحَانِ وَيَتَهَجَّجَانِ ، وَيَعْتَزَّانِ بِانْتِصَارِ رَأْيِهِمَا ، وَفَوْزِ
فِكْرِهِمَا ، عَلَى غَيْرِهِمَا مِنَ الْحُمَقَى ، وَالنُّوَكَى^(٢) وَالْبُلْهَ
وَالضُّعْفَاءِ ، وَمَا اخْتِلَافُكَ مَعِيَ فِي الرَّأْيِ إِلَّا مَقْيَاسُ
الْحِمَاقَةِ عِنْدِي ، وَحَدُّ الْجَهْلِ ، وَمُنْعَكَسُ الْغَبَاءِ ،
هَكَذَا جُبِلَ النَّاسُ جَمِيعًا ، لَا يَشْعُرُ امْرُؤٌ بِخَطِيئِهِ ،
وَلَا يُقِرُّ أَحَدٌ بِأَنَّهُ قَدْ جَانَبَ الصَّوَابَ ، وَلَكِنْ ،

(١) البله : جمع أبله وهو ضعيف العقل عاجز الرأي

(٢) النوك : جمع أنوك وهو الأحمق .

أَلَمْ يَكُنْ مِنْ الْخَيْرِ : أَنْ يَتَّصِلَ هَذَا الزُّوْعُ^(١)
بِعُقُولِ الْبَشَرِ وَيُلَازِمَهَا وَيَخْتَلِطَ بِهَا اخْتِلَاطَ الْحُمْرَةِ
بِالْمَوَادِّ الْأُخْرَى فِي الْبِنَاءِ وَامْتِزَاجِ « الْمِلَاطِ »
— الْأَسْمَتِ — بِهَا ، كَأَقْوَى لِحَامٍ وَأَفْضَلَ مِسَاكِ ،
وَأَثَبَتْ مُلْتَصِقٍ ؟ أَلَيْسَ فَرَحُ أَضْعَفِ النَّاسِ بِآرَائِهِمْ ،
حَرِيًّا^(٢) بِالْإِعْجَابِ ، حَقِيقًا بِالْحُبِّ وَالتَّقْدِيرِ ؟ !
أَلَا يَنْبَغُ مِنْهُ عَلَى الطَّرِيقِ رَجُلٌ يُمَسِّكُ بِأَيْدِينَا ،
وَيَدُلُّنَا عَلَى السَّبِيلِ ، وَيُعَرِّفُنَا إِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ ؟
وَيُعِينُنَا مَعُونَةً لَا حَدَّ لَهَا ، وَلَا نِهَايَةَ تَنْتَهِي
عِنْدَهَا ، فَلَوْلَا رَجُلٌ كَهَذَا ، لَوْلَا أَفْلَاطُونُ
كَشَالٍ عَلَيْهِ ، لَكِدْنَا نَفَقْدُ إِيمَانَنَا ، فِي احْتِمَالِ

(١) الزووع : الميل والمقصود (٢) حريا : جديراً .

ظُهُورِ كِتَابٍ مَعْقُولٍ ، وَمُصَنَّفٍ مَقْبُولٍ ، وَسِفَرٍ
طَيِّبٍ ، وَإِنَّهُ لَيُلَوِّحُ لَنَا : أَنَّنَا لَا نَبْغِي غَيْرَ بَطْلٍ
وَاحِدٍ ، وَلَا نَطْلُبُ إِلَّا عَظِيماً وَاحِداً ، وَلَكِنَّا
مُضْطَرُونَ فِي الْوَاقِعِ ، إِلَى أَنْ نَتَّصِلَ بِالْأَبْطَالِ ،
وَنَخْرُجَ بِالْعُظَمَاءِ ، مَا دَامَتْ مَدَارِكُنَا مُتَعَدِّدَةً
النَّوَاحِي ، غَيْرَ مَحْدُودَةِ الْجِهَاتِ ، وَفِي حَضْرَةِ الْعُظَمَاءِ ،
تَرْوُحٌ ^(١) أَفْكَارُنَا وَآدَابُنَا وَسَلُوكُنَا ، وَأَخْلَاقُنَا
عَظِيمَةً مِثْلَهُمْ ، بَلْ لَا نَلْبَثُ أَنْ نُصْبِحَ جَمِيعاً حُكَمَاءَ ،
عُقَلَاءَ بِالشُّعُورِ وَالْإِدْرَاكِ ، وَإِنْ لَمْ نَكُنْ كَذَلِكَ
قُوَّةً وَنَشَاطاً وَفِعْلاً ، وَلَيْسَ يَحْتَاجُ الْأَمْرُ إِلَى أَكْثَرِ
مِنْ حَكِيمٍ وَاحِدٍ ، أَوْ رَجُلٍ عَاقِلٍ ، بِإِدِهِ ^(٢) الْعَقْلِ

(١) تروح : تصير (٢) باده العقل : يفهم الأمر بغير تفكير لقوة عقله

فِي الْجَمَاعَةِ الْوَاحِدَةِ ، لِيَكُونَ الْكُلُّ عُقْلَاءَ حُكَمَاءَ ،
إِذْ لَشَدَّ مَا تَسْرِي الْعَدَوَى ، وَسَرْعَانَ مَا يَكُونُ
الِاقْتِدَاءُ وَالْاِكْتِسَابُ .

✱ ✱

الْعُظَمَاءُ هُمْ إِذَنْ : الَّذِينَ يُطَهَّرُونَ أَنْفُسَنَا مِنْ
الْأَثَرَةِ ، وَيَفْتَحُونَ أَعْيُنَنَا لِنُبْصِرَ غَيْرَنَا ، وَنَرَى
أَعْمَالَهُمْ ، وَنَشْهَدَ أَفْضَالَهُمْ وَفِعَالَهُمْ ، وَلَكِنَّ هُنَاكَ
شُرُورًا وَرَذَائِلَ ، وَهَمَاقَاتٍ وَأَغْلَاطًا ، مُلَازِمَةٌ لِكُلِّ
جَمَاعَةٍ ، وَكُلِّ عَصْرِ ، وَكُلِّ جِيلٍ ، وَالنَّاسُ أَذْنَى
شَبَهًا مِنْ مُعَاصِرِيهِمْ ، وَأَقْرَبُ صُورَةً إِلَى جِيلِهِمْ ،
مِنْهُمْ إِلَى أَجْدَادِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ ، وَأَكْثَرُ مَا يَلَاحِظُ
هَذَا فِي الزَّوْجَيْنِ الشَّيْخَيْنِ ، أَوْ فِي الشَّخْصَيْنِ

اللَّذِينَ لَبِثَا طَوِيلًا مُشْتَرِكِينَ فِي الْحَيَاةِ ، مُتَقَاسِمِينَ
الْعَيْشَ ، فَإِنَّهُمَا يُصْبِحَانِ عَلَى طُولِ الدَّهْرِ مُتَشَابِهَيْنِ
مُتَمَاثِلَيْنِ ، وَلَوْ عَاشَا أَطْوَلَ مِنْ ذَلِكَ أَمَدًا ^(١) ،
لَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَعْرِفَ أَحَدَهُمَا ، إِذَا هُوَ افْتَرَقَ
عَنْ صَاحِبِهِ ، أَوْ نَأَى ^(٢) وَحَدَّهُ عَنْ مُشَارِكِهِ .

إِنَّ الطَّبِيعَةَ لَتَكْرَهُ هَذِهِ الْخَوَاصَّ ^(٣) ، وَتَقْتُلُ
هَذِهِ الْإِنْدِمَاجَاتِ ، لِأَنَّهَا تُوشِكُ أَنْ تُفْرِغَ الْعَالَمَ
كُلَّهُ فِي قَالِبٍ وَاحِدٍ ، وَتَصُبَّهُ فِي قِطْعَةٍ أَوْ كُتْلَةٍ
وَاحِدَةٍ ، وَلِذَلِكَ : لَا تَلْبَثُ الطَّبِيعَةُ أَنْ تُبَادِرَهَا
بِالتَّفَكُّكِ ، وَتَعْمَلَ عَلَى انْفِصَامِ رَوَابِطِهَا ^(٤) الْعَارِضَةِ .
وَلَكِنَّ هَذَا التَّمَاثُلَ مُسْتَمِرٌّ لَا يَنْقَطِعُ ، وَهَذَا

(١) الأمد : الزمن (٢) نأى : بعد (٣) الخواص : الصفات

الخاصة (٤) انفصام روابطها : انحلال عقدها

التَّشَابَهُ قَائِمٌ لَا يَكْفُ ، بَيْنَ أَهْلِ الْبَلَدِ الْوَاحِدِ ،
وَالطَّرِيقَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَالْحَزْبِ السِّيَاسِيِّ الْوَاحِدِ .
وَأَفْكَارُ الْعَصْرِ مُتَطَايِرَةٌ فِي الْفَضَاءِ ، تُعْدِي كُلٌّ
مَنْ يَنْشَقُّهَا ^(١) ، وَتَسْرِي إِلَى كَافَّةٍ مَنْ يَتَنَفَّسُهَا ،
وَلَوْ أَطْلَلَتْ عَلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ « نِيويورك » مِنْ عَلٍ ،
أَوْ أَشْرَفَتْ عَلَى لُنْدُنَ مِنْ شَاهِقٍ ، أَوْ أَلْقَيْتَ مِنْ
مُحَلِّقٍ ^(٢) ، الْبَصَرَ عَلَى الْحَضَارَةِ الْغَرَبِيَّةِ ، لِلَاَحْتِ
لَكَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْحِمَاقَاتِ ، وَحُزْمَةٌ مِنَ السَّخَفِ ،
وَالْبَلَاهَةِ وَالْحُمَقِ ، وَنَحْنُ نَتَلَاقَى عَلَى تَوَاحٍ ^(٣) وَوِفَاقٍ ،
بَلْ نَحْنُ بِالْوُجُوهِ وَالطَّلَعَاتِ نَتَبَاسَمُ ، وَلَكِنَّا
بِالْحَسَدِ وَالنَّفْسِ ^(٤) ، وَالتَّزَاحُمِ وَالْغَيْرَةِ ، وَالْمُبَارَاةِ ،

(١) تعدى : تكسب . ينشقها : يشمها (٢) محلق البصر : أفقه

(٣) تواخ : تأخ (٤) النفس : المنافسة .

تَزِيدُ فِي جَنَّةِ ^(١) الْعَصْرِ ، وَشِرَّةِ الْجِيلِ ، وَحِدَّةِ
 الْحَيَاةِ ، وَمَا يَمْنَعُ وَخَزَاتِ ^(٢) الضَّمِيرِ ، غَيْرَ أَنَّنَا فِي
 الْإِثْمِ وَالْخَطَا سَوَاءٌ ، وَهَذِهِ الْمُعَاصِرَةُ هِيَ الْمَانِعُ ،
 وَاشْتِرَاكُ الْمُعَاصِرِينَ فِي الْمَعَائِبِ وَالْجُنَايَاتِ هِيَ
 الْحَائِلُ ، دُونَ النَّدَامَةِ وَتَبَكُّيْتِ ^(٣) الضَّمِيرِ .

*
* *

وَلَكِنَّا أَيْضًا نُحْسُّ مِنَ السَّهْلِ وَالْهَيْئِ ، أَنْ
 نَكُونَ أَخْيَارًا وَعُقْلَاءَ ، وَرَاشِدِينَ كَمُعَاصِرِينَا ،
 وَرُفَقَائِنَا وَصَحْبِنَا وَخُلَطَائِنَا ، فَنَحْنُ نَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ مَا نُرِيدُ
 أَنْ نَعْلَمَهُ ، بِلَا جَهْدٍ وَلَا مَتْعَبَةٍ ^(٤) ، وَلَا أَذًى
 تَكْلِيفٍ ، بَلْ إِنَّهُ لَيَسْرِي إِلَيْنَا مِنْ مَسَامٍ جُلُودِنَا ،

أثر
الخطأ

(١) جنة : جنون (٢) وخزات الضمير : آلامه (٣) تبكيت

الضمير : تأنيبه (٤) متعبه : مصدر ميمي معناه التعب .

بَلْ إِنَّا لَنَلْتَقِطُهُ بِمُجَرَّدِ الْمَشَارَكَةِ فِي الشُّعُورِ ، أَوْ
كَمَا تَرَقَّى الزَّوْجُ إِلَى سُمُوِّ زَوْجِهَا ، وَمَزَايَاهُ الرَّفِيعَةِ ،
وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِ ، بِمَحْضِ ^(١) الْإِتِّصَالِ .

✱ ✱

يَبْدَأُنَا نَقْفُ حَيْثُ يَقِفُونَ ، وَنَعْجُزُ عَنْ أَنْ ^{أُر} الْعُظَمَاءُ
تَتَقَدَّمَ وَحَدَنَا خُطْوَةً وَاحِدَةً ، وَإِنَّمَا الْعُظَمَاءُ أَوْ ^{في حماية العامة}
مَنْ تَجْعَلُهُمُ الطَّبِيعَةُ كَذَلِكَ هُدَاةً ، هُمْ الْمُنْقِذُونَ
لَنَا مِنْ أَغْلَاطِ جِيلِنَا ، الْمُنْجُونَ إِيَّانَا مِنْ مَعَايِينَا
الْعَامَّةِ وَضِلَّاتِنَا ، بَلْ هُمْ الَّذِينَ يَحْمُونَنَا مِنْ مُعَاصِرِينَا ،
وَهُمُ الْمُسْتَشْنِيَاتُ الَّتِي نَحْتَاجُ إِلَيْهَا ، وَالشَّوَاذُ ^(٢) الَّتِي
نُرِيدُهَا ، لِأَنَّهُمْ الْغُنْصُرُ الْغَرِيبُ عَنَّا ، الَّذِي يُوفَدُ
لِتَطْهِيرِنَا مِنْ مَسَاوِينَا ^(٣) .

(١) محض الاتصال : خالصة (٢) الشواذ : النوادر

(٣) يوفد : يرسل . ومساوينا : سيئاتنا

وَهَكَذَا نَحْنُ نَتَغَذَّى عَلَى الْعِظَمَةِ ، وَنَسْتَمِدُّ مِنْ
 الْعَبْقَرِيَّةِ ، وَنُنْعِشُ أَرْوَاحَنَا وَنُرَكِّي نُفُوسَنَا ،
 مِنْ طُولِ الْمَلَالِ وَالسَّامَةِ الَّتِي تَعْرُونَا^(١) مِنْ الْحَدِيثِ
 إِلَى أَشْبَاهِنَا ، وَالِاخْتِلَاطِ بِأَمْثَالِنَا ، وَصَحْبِنَا وَقُرَنَائِنَا ،
 وَنَحْنُ نَسْمُو بِهَدَى الْعَظِيمِ ، وَنَتَزَكَّى بِإِمَامَتِهِ ،
 وَنَسِيرُ فِي إِثْرِ حِكْمَةِ قِيَادَتِهِ ، وَإِنَّ ظُهُورَ الْعَظِيمِ
 هُوَ - وَاللَّهِ - أَكْبَرُ تَعْوِيزٍ عَنِ الْمَلَائِكَةِ مِنَ
 الضُّعَفَاءِ ، وَالصُّعَارِ وَالْأَفْزَامِ^(٢) .

كُلُّ أُمٍّ تَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ أَحَدُ أَبْنَائِهَا نَابِغَةً^(٣) ،
 وَوَلَدٌ مِنْ وَلَدِهَا عَظِيمًا عَبْقَرِيًّا ، وَلَوْ بَقِيَ كُلُّ

(١) تعرونا : تصيبنا (٢) الاقزام : القصار (٣) النابغة :

البلغ الفطن

الْآخَرِينَ صِغَارًا ، ضِنَالًا فُسُولًا^(١) خَامِلِينَ .



أخطار
العظمة
عَلَى أَنْ فِي ظُهُورِ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ ، وَتَنَاهَى سُلْطَانِهِ ،
وَتَرَامَى نَفُودِهِ ، خَطَرًا جَدِيدًا عَلَى النَّاسِ ، وَضَرِيبَةً
فَادِحَةً^(٢) ، لِأَنَّ جَاذِبِيَّتَهُ تَنَزِعُنَا مِنْ مَكَانِنَا ،
وَتُزَحِّزُنَا مِنْ مَوَاضِعِنَا ، وَنَحْنُ مُصْبِحُونَ بِهِ ،
مُجَرَّدِينَ مِنَ الْحَوْلِ ، أَصَاغِرَ مُشْتَحِرِينَ اتِّحَارًا
أَدَبِيًّا ، ... وَلَكِنَّ النِّجَاةَ لَا تَفْتَأُ^(٣) تُلْتَمَسُ ...
هَا هُوَ ذَا فِي أَقْصَى الْأَفْقِ مَفْزَعُنَا^(٤) ، وَعِنْدَهُ
مَنْجَانَا ... هُنَالِكَ عُظْمَاءُ آخَرُونَ ، بِصِفَاتٍ وَمَزَايَا
أُخْرَى ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ مُحَاسِنَةٌ وَمَفَاتِنَةٌ ، وَنَحْنُ

(١) الفسل : الضعيف الذى لا فائدة فيه (٢) الفادحة : الثقيلة

(٣) لا تفتأ : لا تزال (٤) مفزعنا : ملجؤنا

النَّاسَ تَقْطِفُ جَنَى الشَّهْدِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ فِيهِمْ
وَنَرَشِفُ أَفَاقِيْقَ (١) كُلِّ عَظْمَةٍ مِنْ نَوَعِيهَا ، وَنُبُوغِ
بِذَاتِهِ ، فَإِنَّ كُلَّ بَطْلٍ ، وَكُلَّ عَظِيمٍ ، لَا يَلْبَثُ
أَنْ يُصْبِحَ مُمَلًّا مُتَبَرِّمًا بِهِ ، وَيَنْقَلِبُ أَخِيرًا مُسَمًّا
مُجْتَوًى (٢) يَضِيقُ النَّاسُ بِهِ ، وَمَا نَحْسَبُ « قَوْلَتِيرَ »
كَانَ سَيِّئَ الْقَلْبِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ : الْقَائِلُ فِي
الْمَسِيحِ الْكَرِيمِ « أَرْجُوكُمْ أَلَّا تَدْعُونِي أَسْمَعَ هَذَا
الِاسْمَ مَرَّةً أُخْرَى ! وَإِنَّهُمْ لَيَتَحَدَّثُونَ عَنْ فَضْلِ
« جُورْجِ وَاشْنُطُن » وَصِفَاتِهِ وَمَزَايَاهُ ، فَيَنْبَرِي (٣)
فَرَدُّ مِنْهُمْ صَائِحًا فِي سُخْطٍ « اللَّعْنَةُ عَلَى
« وَاشْنُطُن » دَعُونَا مِنْ ذِكْرِهِ وَاتْرُكُونَا

(١) أفأويق : جمع فيفة : ما اجتمع في الضرع بين الحلبتين

(٢) مجتوى : مبغضا مكروها (٣) ينبري : يتصدى .

مِنْهُ » ! وَمَا أَسَاءَ « وَاشْنُطْنَ » وَقَدْ أَحْسَنَ ، وَلَكِنَّ
 ذَلِكَ هُوَ دِفَاعُ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ عَنْ نَفْسِهَا ، بَلْ
 تِلْكَ هِيَ الْقُوَّةُ الْمُرَكِّزِيَّةُ الطَّارِدَةُ ، تَتَخَلَّصُ مِنْ
 مُقَاوَمَتِهَا . وَنَحْنُ قَدْ جُبِلْنَا عَلَى أَنْ نُوَارِثَ رَجُلًا بِرَجُلٍ ،
 وَنَدَعَ حَيَاتِنَا الْعَامَّةَ قَائِمَةً عَلَى التَّوَازُنِ ، مُتَوَقِّفَةً
 عَلَى أَرَاغِيجِ^(١) الْعُظَمَاءِ ، يَبْنِ عُلُوٌّ وَخَفَضٌ ،
 وَارْتِفَاعٌ وَانْحِدَارٌ .

*

* *

يَبْدُ أَنْ هُنَاكَ حَدًّا سَرِيعًا لِفَضْلِ الْعُظَمَاءِ وَوَجْهٍ
 حَصَانَةِ الْعَبْقَرِيَّةِ
 الْإِثْتِفَاعِ بِالْأَبْطَالِ ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ عَبْقَرِيٍّ فِي وَقَاءِ
 وَحْمَى مِنْ عَبْقَرِيَّتِهِ ، وَنَحْنُ لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَجِدَهُ
 كُلَّمَا أَرَدْنَاهُ ، وَإِنَّ جَاذِبِيَّتَهُ لَتُوْهِمُنَا أَنَّهُ مِنَّا قَرِيبٌ ،

(١) أى عدم ثباتهم على حالة واحدة . وتراوحهم بين مختلف الصفات

وَعِنْدَ طَلَبِنَا إِذَا طَلَبْنَا ، وَلَكِنَّا لَا نَكَادُ نَدْنُو حَتَّى
نُغْنِعَ ، وَكَلَّمَا اجْتَذَبْنَا إِلَيْهِ ، رُدِدْنَا عَنْهُ ، لِأَنَّ هُنَاكَ
شَيْئًا غَيْرَ مُحْسُوسٍ ، وَلَا مَادِيٍّ مَأْمُوسٍ ، فِي الْخَيْرِ
الَّذِي يُودَى لَنَا ، فَإِنَّ أَفْضَلَ مُكْتَشَفٍ ، إِنَّمَا
اِكْتَشَفَهُ كَاشِفُهُ لِنَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ لَيَظَلُّ خَيَالِيًّا بَعِيدًا
مِنَ الْحَقِيقَةِ ، حَتَّى يُخْرِجَهُ النَّاسُ مُحَقِّقًا ، بَارِزًا قَائِمًا ،
كَأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَسَا كُلَّ نَفْسٍ بِشِمْلَةٍ مِنْ مَزَايَا
وَصِفَاتٍ ، وَقَدْرَانٍ وَمَوَاهِبَ ، لَا تَتَحَوَّلُ إِلَى غَيْرِهَا
مِنَ النَّفُوسِ ، وَكَأَنَّمَا قَدْ أُرْسِلَهَا إِلَى هَذَا الْعَالَمِ ،
لِكَيْ تَقْطَعَ جُزْءًا مُعَيَّنًا مِنْ دَائِرَةِ الْخَلِيقَةِ ، وَحُيْطَ
الْحَيَاةِ ، وَكَأَنَّمَا قَدْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَى تِلْكَ الْأَرْدِيَةِ^(١)

(١) الأردية : جمع رداء وهو الكساء .

المُخْتَلِفَةِ ، الَّتِي خَلَعَهَا عَلَى نَفُوسِ الْعُظَمَاءِ ، وَأَرْوَاحِ
الْأَبْطَالِ « غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّحْوِيلِ أَوْ مُخَصَّصَةٌ بِهِذِهِ
السَّيَّاحَةِ فَقَطْ » ! وَإِنَّ فِي اتِّصَالِ الْعُقُولِ خُلْدَةً ،
لِأَنَّ يَنْهَا حُدُودًا خَفِيَّةً ، وَلِكِنَّهَا عَلَى خَفَائِهَا
الْمُسْتَدِقِّ لَا تُعْبَرُ يَوْمًا وَلَا تُجْتَازُ ، وَقَدْ يَكُونُ
ثَمَّ نُرُوعٌ طَيِّبٌ نَحْوُ الْإِتِّصَالِ ، وَجُنُوحٌ ^(١) خَفِيٌّ
نَحْوُ الْأَخْذِ وَالْإِعْطَاءِ ، حَتَّى لَيْخَشَى أَنْ يُصْبِحَ
كُلُّ عَظِيمٍ أَوْ عَبْقَرِيٍّ صُورَةً مِنَ الْآخِرِ ، وَلِنُسخَةٍ
مِنْ غِرَارِهِ ، وَلَكِنَّ قَانُونَ الدَّائِيَّةِ ، يَأْتِي إِلَّا أَنْ
يُحْدِثَ حَدَثَهُ ، وَيَعْمَلَ عَمَلَهُ ، وَيُبْرِزَ مُجْتَمَعِ قُوَّتِهِ ،
فَأَظْلُ أَنَا آخِرَ الدَّهْرِ أَنَا ، وَتَبْقَى أَنْتَ أَنْتَ . . .

(١) جنوح : ميل .



حماية
الطبيعة
لل فرد

وَذَلِكَ لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ تُرِيدُ أَنْ يَظَلَّ كُلُّ شَيْءٍ
بِدَاتِهِ ، وَبَيْنَمَا يُحَاوِلُ كُلُّ فَرْدٍ أَنْ يَنْمُوَ وَيَبْرُزَ
وَيَنْفَرِدَ . وَيُرِيدُ كُلُّ فَرْدٍ أَنْ يَفْرِضَ قَانُونَ شَخْصِهِ
وَحَلِيقَتِهِ ، وَكَيَانِهِ وَحَيَاتِهِ ، عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ سِوَاهُ ،
إِذْ تَأْتِي الطَّبِيعَةُ إِلَّا أَنْ تَحْمِيَ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ غَيْرِهِ ،
وَتَقِيَّ كُلَّ ذَاتٍ مِنْ ذَاتٍ . وَكُلُّ نَفْسٍ عَلَيْهَا مِنْ
نَفْسٍ حَافِظٌ . وَمَا أَجَلَ الْقُوَّةَ الَّتِي يَتَّقِي الْأَفْرَادُ بِهَا
الْأَفْرَادَ ، فِي عَالَمٍ لَيْسَ أَسْهَلَ فِيهِ مِنْ أَنْ يُصْبِحَ
الْمُحْسِنُ فِيهِ مُسِيئًا ، وَالْخَيْرُ شَرِيرًا ، وَالطَّيِّبُ رَدِيئًا .
وَذَلِكَ بِأَنْ يُبْلَغَ بِنَشَاطِهِ ، وَيَقْدَفَ بِمَوَاهِبِهِ فِي مَوَاضِعَ
لَيْسَتْ لَهُ ، وَنَوَاحٍ لَمْ تُخْلَقْ لِمِثْلِهِ . بَلْ فِي عَالَمٍ

أَكْثَرُ مَا يُلَوِّحُ^(١) فِيهِ الْأَطْفَالُ خَاضِعِينَ لِمَشِيئَةِ آبَائِهِمْ
الْحَقِّقِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَبْدُو فِيهِ النَّاسُ فُضُولِيِّينَ^(٢) ،
أَوْغَالًا^(٣) مُتَهَالِكِينَ عَلَى الْإِمْتِزَاجِ وَالِاخْتِلَاطِ . وَلَقَدْ
أَصْبَنَّا إِذْ تَصَوَّرْنَا لِلْأَطْفَالِ وَالْوِلْدَانِ ، مَلَائِكَ حَارِسِينَ ،
فَمَا أَرْفَعَهُمْ فِي الْحَقِّ ، وَأَسْمَاهُمْ فِي مَنَعَتِهِمْ وَحَصَانَتِهِمْ
مِنَ الْأَشْرَارِ ، وَمِنَ السُّوقِيَّةِ ، وَمِنَ فَاسِدِ الْأَرَءِ ،
وَعَقِيمِ الْخَوَاطِرِ وَالتَّصَوُّرَاتِ . إِنَّهُمْ لَيَسْكُبُونَ أَرْوَاحَهُمْ
الْحُلُوةَ الْعَذْبَةَ فِيمَا يَتَنَاوَلُونَهُ ، وَيُضْفُونَ^(٤) بِجَمَاهِمُ
الرَّمَزِ عَلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَنْظُرُونَهَا . وَهُمْ مِنْ هَذَا
كُلِّهِ فِي مَأْمَنِ مِنَ الْمُؤَدِّينَ السَّيِّئِينَ الْأَشْقِيَاءَ ، الَّذِينَ

(١) يلوح : يظهر (٢) الفضولي : الذى يتعرض لما لا يعنيه .

(٣) الأوغال : الضعاف الأدنياء . ومتهاكين : متهاقين

(٤) يصفون : يزيدون ويكثران .

تَعَرَّضُ نَحْنُ الْكِبَارَ لِسُلْطَانِهِمْ ، وَنَخْضَعُ لِتَأْدِيبِهِمْ ،
وَأَنَا لَنَزَجْرُهُمْ وَنُوْبُهُمْ ، فَلَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَعْتَادُوا
زَجْرَنَا ، وَيَأْلَفُوا تَأْنِينَنَا ، فَلَا يُلْقُوا بَالًا إِلَيْهِ ،
وَلَا هُمْ عَائِبُوهُ ، وَإِنَّمَا يَكْتَسِبُونَ الْإِعْتِمَادَ عَلَى النَّفْسِ ،
وَالثِّقَّةَ بِالذَّاتِ . وَإِذَا نَحْنُ دَلَّلْنَاهُمْ ، وَأَسْرَفْنَا فِي
إِطْلَاقِهِمْ وَمَشِيئَتِهِمْ ، إِلَى حَدِّ الْحِمَاقَةِ ، وَالتَّزْوَانِ^(١) ،
تَعَلَّمُوا هُمُ الْحُدُودَ وَالزَّوَاجِرَ مِنْ نَوَاحٍ أُخْرَى وَوُجُوهِ .



عَلَى أَنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى الْخَوْفِ مِنَ السُّلْطَانِ
الْكَثِيرِ ، وَالتَّفُؤْذِ الْبَعِيدِ الْمَدَى . بَلْ يَصِحُّ لَنَا
أَنْ نَتَّقَ بِالْعَظِيمِ ، الثِّقَّةَ السَّمْحَةَ الْكَرِيمَةَ ، لِنَخْدِمَ

لامهانة
في خدمة
العظيم

الْعُظْمَاءُ . بَلْ لِنَتَبَدَّلَ أَنْفُسَنَا فِي خِدْمَتِهِمْ ، وَلَا تَقُلْ
هَذَا تَحْقِيرٌ لِدَوَاتِنَا وَامْتِهَانٌ^(١) ، وَلَا نَحْبَسُ^(٢) صَنِيعًا
عَنْهُمْ نَحْنُ فِي مَيْسُورِنَا أَنْ نُسَدِّيَهُ . بَلْ لِنَكُنْ لَهُمْ
بِمَثَابَةِ الْأَذْرُعِ وَالشُّوقِ مِنَ الْجُسُومِ وَالْأَبْدَانِ ،
وَلِنَكُنِ الْأَنْفَاسَ مِنَ الْأَفْوَاهِ . وَلِنَرْضَ أَثَرَتَنَا ،
وَلِنُرَاوِدَ أَنَا نَيْتَنَا ، إِذْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْبَأُ بِهِذَا ، إِذَا هُوَ
اكتَسَبَ مَا هُوَ أَشْمَى مِنْ أَنَا نَيْتِهِ ، وَأَرْفَعُ وَأَنْبَلُ
وَأَعْظَمُ ؟ ! وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَرُدَّنَا عَنِ التَّعَلُّقِ بِهِمْ
مَخَافَتَنَا أَنْ نَفْقِدَ شَخْصِيَّتَنَا ، وَنَقْفَى فِيهِمْ فَنَاءً
« بوزول في جونسون » ، فَمَا أَسهَلَ أَنْ يَرُوحَ
الْإِخْلَاصُ أَعْظَمَ وَأَرْوَعَ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ الْبَلِيدَةِ ، الَّتِي
تُحَاوِلُ حِرَاسَةَ حُدُودِهَا . . . كُنْ إِنْسَانًا آخَرَ ، كُنْ

(١) امتهان : اهانة (٢) نحبس : نمنع . والصنيع : المعروف

غَيْرَ مَا أَنْتَ . . . كُنْ أَفْلَاطُونِيًّا ، وَلَا تَكُنْ رُوحًا ،
 بَلْ كُنْ مَسِيحِيًّا ، وَلَا تَكُنْ صَبِيْعِيًّا ، بَلْ كَارْتِيْزِيًّا ،
 وَلَا تَكُنْ شَاعِرًا ، بَلْ شِكْسِيرِيًّا ، فَعَبًّا تَقِفُ
 عَجَلَاتُ الْجُنُوحِ وَالزَّعَاتِ عَنِ الْمَسِيرِ ، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ
 أَنْ تَبْقَى فِي مَوْضِعٍ بِعَيْنِهِ ، أَوْ عَلَى حَالَةٍ بِذَاتِهَا ،
 مَهْمَا اسْتَعْنَتْ بِكُلِّ قُوَى الْجُمُودِ وَالْخَوْفِ ، بَلْ
 بِسُلْطَانِ الْحُبِّ ذَاتِهِ . فَأَنْتَ أَبَدًا مُتَحَوِّلٌ ، مُتَحَوِّلٌ
 لَا يَنْقَطِعُ تَحَوُّلُكَ ، وَلَا يَكْفُ^(١) مَسِيرُكَ وَتَقَدُّمُكَ ،
 إِنَّ الْمِجْهَرَ « الْمَيْكْرُ سُكُوبَ » ، لَيْبِنٌ وَيَكْشِفُ
 عِلَاقَةً^(٢) يَبْنِي الْجَرَائِمَ الدَّوَامَةَ الْحَوَامَةَ فِي الْمَاءِ ، وَإِذَا
 الْعِلَاقَةُ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَنْمُوَ وَتَبْدُو مُخْلَقَةً ، إِذَا هِيَ

(١) يكف : يمتنع (٢) عِلَاقَةُ : قطعة دم .

بَعْدَ قَلِيلٍ ، حَيَوَانَاتٌ كَامِلَاتٌ خِلْقَةً وَتَكْوِينًا ،
وَكَذَلِكَ لَا يَكْفُ هَذَا الْإِنْفِصَالُ الدَّائِمُ فِي عَالَمِ
الْفِكْرِ ، كَمَا لَا يَنْقَطِعُ دَابُّهُ فِي الْجُمَاعَاتِ ، وَإِنَّ
الْأَطْفَالَ لَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَطِيعِينَ يَوْمًا
الْإِفْتِرَاقَ عَنْ آبَائِهِمْ ، وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُ الْإِنْفِصَالُ
أَنْ يَتِمَّ قَبْلَ أَنْ يَكُونُوا بِهِ شَاعِرِينَ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ
يُحْسُونَ اسْتِقْلَالَهُمْ ، وَيَتَبَيَّنُونَ أَنَّهُمْ قَدْ تَحَرَّرُوا مِنْ
ذَلِكَ السُّلْطَانِ الْقَدِيمِ .

*
* *

وَلَكِنْ فِي قَوْلِنَا « الرَّجَالُ الْعُظَمَاءُ . . . أَلَيْسَ الْعُظَمَاءُ
وَالشَّبَابُ فِيهِ مَا يَغُضُّ ^(١) مِنْ أَقْدَارِنَا ، وَيَجْرَحُ كَرَامَتَنَا ،
وَيُوْذِي عِزَّتَنَا وَمَشَاعِرَنَا ؟ ! أَتَنْطَوِي هَذِهِ الْكَلِمَةَ

(١) يغض : ينقص .

عَلَى عِبَادَةٍ ، أَمْ عَلَى دِينٍ ، أَمْ هُوَ قَدَرٌ مَقْدُورٌ ،
 وَلَوْحٌ مَسْطُورٌ ؟ ! وَمَا مَصِيرُ الْفَضِيلَةِ إِذَنْ
 وَوَعُودُهَا ؟ ؟ وَالرَّجَاءُ فِي الْخَيْرِ وَثِمَارِهِ ؟ ؟ إِنَّ
 الشَّبَابَ الْمُفَكِّرَ لَيَحْزَنُ وَيَأْسَفُ عَلَى مَا فِي الطَّبِيعَةِ
 مِنْ حَشْوٍ وَنَافِلٍ ، وَزَائِدٍ عَنِ الْحَاجَةِ ، وَتَافِهِ ^(١)
 لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَيَقُولُ إِنَّ بَطَلَكَمُ لَكَرِيمٌ ،
 وَإِنَّ عَظِيمَكُمْ لَجَمِيلٌ ، وَإِنَّ عَبَقْرِيَّكُمْ الْفَذَّ ^(٢)
 لَنَادِرٌ وَجَلِيلٌ ، وَلَكِنْ انْظُرُوا إِلَى الْفَرْدِ الْإِعْتِيَادِيِّ
 الْمُسْكِنِ الضَّعِيفِ ، الَّذِي كُلُّ الْوَطَنِ عِنْدَهُ فِي
 عَجَلَةٍ ^(٣) يَدِهِ ، بَلْ انْظُرُوا إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُؤَلَّفَةِ

(١) التافه : الشيء الحقير (٢) الفذ : الفرد الذي لا نظير له

(٣) في عجلة يده : أى في قبضة يده وتحت تصرفه

مِنْ أَمْثَالِهِ ، وَالشَّعْبِ الْمُجْتَمِعِ مِنْ أَشْبَاهِهِ وَمَنْ
 عَلَى شَاكِلَتِهِ . . . لَيْتَ شِعْرِي . . . لِمَاذَا قُضِيَ
 مِنْ فَجْرِ التَّارِيخِ إِلَى الْيَوْمِ ، أَنْ يَكُونَ الْجَمَاهِيرُ
 وَالْدَّهْمَاءُ^(١) طَعَامًا لِلْبَارُودِ وَغِذَاءً لِلْقَذَائِفِ^(٢) ،
 وَمُقْتَطَعًا لِلسُّيُوفِ الْبَاتِرَةِ^(٣) .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَتَمَجِيدًا لِبِضْعَةٍ مِنَ الزُّعَمَاءِ ، لِأَنَّهُمْ
 أُوتُوا الْعَاطِفَةَ وَالرَّأْيَ ، وَالْحُبَّ وَاحْتِرَامَ الذَّاتِ ،
 بَلْ هُمْ الَّذِينَ يُجْعَلُونَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْمَوْتِ
 مُقَدَّسِينَ . . . وَلَكِنْ مَاذَا تَقُولُ فِي أَوْلِيكَ
 الْمَسَاكِينِ وَالضَّحَايَا التَّعْسَاءُ^(٤) ، الَّذِينَ يَسْتَاجِرُونَهُمْ
 وَيُعِدُّونَهُمْ طَعَامًا لِلنَّارِ ، وَيَهَيِّجُونَ فِي أَعْمَاقِهِمُ الزُّوْعَ

(١) الدهماء : عامة الناس (٢) القذائف : المذقوقات النارية

(٣) الباترة : القاطعة (٤) التعساء جمع تعيس : وهو منكود الحظ سيئه

الْبَاسِمِ^(١) ، إِلَى مُلَاقَةِ الْمَوْتِ ؟ ! إِنَّ الْإِنْسَانَ
وَاللَّهُ لَرَّخِيسٌ ، وَإِنَّ حَيَاتَهُ لَتَافِهَةٌ ، زَهِيدَةُ السَّعْرِ ،
هَذِهِ هِيَ الْمَأْسَاءُ ، وَهَذِهِ هِيَ الْفَاجِعَةُ^(٢) الدَّائِمَةُ
فِي غَيْرِ زَوَالٍ ، وَمِنْ الْخُسَارَةِ حَقًّا وَالْمُؤَلِمِ فِي
الْوَاقِعِ ، أَنْ يَكُونَ غَيْرُنَا ضِنَالًا ، لِأَنَّنَا نَحْنُ
ضِنَالٌ ، إِذْ لَا غِنَى^(٣) لَنَا عَنْ إِقَامَةِ الْمُجْتَمَعِ ، وَتَأْلِيفِ
كَيَانَ الْجَمَاعَاتِ .



أَفْهَذَا هُوَ الرَّدُّ عَلَى قَوْلِنَا : إِنَّ الْمُجْتَمَعَ هُوَ
أَشْبَهُ شَيْءٍ بِمَدْرَسَةٍ بِاسْتَأْذِينَةٍ ، كُلُّ مَنْ فِيهَا مُعَلِّمٌ
وَتَلَامِيذٌ بِالتَّنَاوُبِ وَالْأَدْوَارِ ، وَإِنَّ النَّفْعَ لَمَيَسُورٌ ،

مدرسة
المجتمع

(١) النزوع الباسم : الميل مع السرور (٢) الفاجعة : المصيبة

(٣) لا غنى : أى لا بد

وَالْفَائِدَةُ لِحَاصِلَةٍ ، سِوَايَ بِمَا نَأْخُذُ ، وَمَا نُعْطِي
وَمَا تَتَلَقَّى وَمَا نَحْنُ دَافِعُوهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ يَتَسَاوَوْنَ
فِي مَبْلَغِ الْعِلْمِ ، وَيَتَشَابَهُونَ فِي مُجْمَلِ الْمَعْرِفَةِ ، لَا يَطُولُ
اِحْتِمَالُ بَعْضِهِمْ رِفْقَةَ الْآخَرِينَ ، وَلَكِنْ وَكُلُّ
بِأَحَدِهِمْ رَجُلًا ذَكِيًّا ، جَرَّبَ مَا لَمْ يُجَرِّبْهُ ، وَاخْتَبَرَ
مِنَ الْحَيَاةِ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، فَكَأَنَّكَ أَطْلَقْتَ الْمَاءَ
يَتَدَفَّقُ مِنَ الْبُحَيْرَةِ بِقَطْعِ مَجْرَى تَحْتَهَا ، وَاحْتِفَارِ قَنَاةٍ
دُونَ مُسْتَوَاهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لِفَائِدَةً هَيِّنَةً فِي غَيْرِ
جَهْدٍ ، وَمَنْفَعَةً مَكْفُولَةً بِغَيْرِ عَنَاءٍ ، وَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمَا
يَوْمَئِذٍ لَيَسْتَطِيعُ تَصْوِيرَ خَاطِرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَالتَّفَكِيرَ
فِي خَلْوَةٍ بِمُفْرَدِهِ ، وَنَحْنُ مَا أَسْرَعَ مَا نَنْتَقِلُ فِي
أَطْوَارِنَا الْخَاصَّةِ مِنْ حَالَةِ الْإِسْتِغْنَاءِ وَالْعِزَّةِ ، إِلَى حَالَةِ

الِاعْتِمَادِ ، وَالِاسْتِضْعَافِ وَالْهَوَانِ ^(١) . فَإِذَا رَأَيْتَ
 فَرْدًا لَا يُرِيدُ إِطْلَاقًا أَنْ يَتَّخِذَ مَكَانَ الرِّيَاسَةِ ، وَإِنَّمَا
 يَظُلُّ أَبَدًا وَاقِفًا عَلَى سَاقِيهِ ، مُسْتَوِيًّا عَلَى قَدَمَيْهِ ،
 لِيَخْذُمَ وَيَتَعَبَ وَيَكِدَّ ، فَاعْلَمْ أَنَّ السِّرَّ فِي ذَلِكَ :
 أَنَّنَا لَا نَرَى الْجَمَاعَةَ ، وَلَا نُلَاحِظُهَا الْفَتْرَةَ الْكَافِيَةَ ،
 الَّتِي تَسْتَعْرِقُهَا دَوْرَةُ السَّائِبِ ، حَتَّى يَبْلُغَ كُلُّ امْرِئٍ
 فِيهَا دَوْرَهُ حِينَ يُؤَافِيهِ ، وَمَا نَحْنُ فِي قَوْلِنَا الْجَمَاهِيرِ
 وَالذَّهْمَاءِ ، وَالنَّوَاتِي ^(٢) وَالِاعْتِيَادِيِّينَ بِمُصَيِّبِينَ ، فَلَيْسَ
 فِي الْعَالَمِ ذَهْمَاءٌ وَلَا اعْتِيَادِيُونَ ، لِأَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا
 يُصْبِحُونَ فِي نِهَآيَةِ الْمَطَافِ ^(٣) أَشْبَاهًا وَأَمْثَالًا ،
 وَمُتَعَادِلِينَ فِي الْحُجُومِ وَالْأَقْدَارِ ، وَلَا يَتَوَاتَى الْفَنُّ

(١) الهوان : الصغار والذل (٢) النواتي : الملاحون

(٣) المطاف : الطواف

الصَّادِقُ الصَّحِيحُ ، إِلَّا بِالِاقْتِنَاعِ بِأَنَّ لِكُلِّ نُبُوغٍ
 رِفْعَةً قِيَمَتَهُ ، وَإِلَٰهِيَّةً^(١) عُنْصُرَهُ وَمِقْدَارَهُ ، وَجَوْهَرَهُ
 فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى مِنْ نَوَاحِيهِ . وَلِكُلِّ مَوْهَبَةٍ
 مَظْهَرُهَا وَجَلَالُهَا فِي جِهَةٍ غَيْرِ الْجِهَةِ الظَّاهِرَةِ ،
 وَمَوْضِعٍ غَيْرِ الْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ ، وَإِذَا كَانَ الْمَجَالُ
 الْفَسِيحُ لِلنُّبُوغِ ، وَالْمُسَيِّدَاتُ الْمُتَرَامِي لِلْعُظَمَاءِ ،
 وَالْمُضْطَرَبُّ الْوَاسِعُ لِلْبُطُولَةِ ، وَأَجْمَلُ الْأَكَالِيلِ
 وَأَنْضَرُ^(٢) تَيَجَانِ الْغَارِ لِكَافَّةِ الَّذِينَ اكْتَسَبُوهَا ، وَسَائِرِ
 الَّذِينَ ظَفِرُوا بِهَا ، فَإِنَّ السَّمَاءَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ تَحْتَفِظُ
 لِكُلِّ مَخْلُوقٍ بِمَجَالِهِ ، وَتُعِدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ مِيدَانَهُ
 الْمُنَاسِبَ ، وَمُضْطَرَبَهُ الْخَلِيقَ^(٣) بِهِ . وَكُلُّ إِنْسَانٍ

(١) الإلهية عنصره : تقديس أصله (٢) أنضر التيجان : أحسنها
 وأجلها والغار : الجمع الكثير الناس (٣) الخلق : الجدير

قَلِقٌ هَائِجُ النَّفْسِ ، ضَجْرٌ مُتَحَفِّزٌ ^(١) ، حَتَّى يُؤَاتِيَهُ
إِحْدَاثُ شُعَاعِهِ الْخَاصِّ فِي أَفْقِ الْحَيَاةِ ، وَحَتَّى يَشْهَدَ
مَا هُوَ مُيسَّرٌ لَهُ ، مُؤْتِيًا ثَمَرَتَهُ ، بَالِغًا أَوْجُهُ ،
مُوفِيًا عَلَى نِهَائِيَّتِهِ ، وَآخِرِ حُدُودِ نَبَاتِيَّتِهِ وَرَفْعَتِهِ .

✱ ✱

رجال
الساعة

إِنَّ أَبْطَالَ الْعَصْرِ ، وَرِجَالَ السَّاعَةِ ، هُمْ بِالنَّسْبَةِ
عُظَمَاءُ ، وَإِنَّ عَظَمَتَهُمْ لَأَسْرَعُ نُمُوءًا وَزَكَوَةً مِنْ
سِوَاهُمْ . بَلْ إِنَّهُمْ لَكَذَلِكَ فِي حَيْثُمَا تَكُونُ صِفَةٌ
مِنَ الصِّفَاتِ ، وَفَقَ حَاجَةِ الْعَصْرِ ، وَمَطْلَبِ الْيَوْمِ ،
وَمُقْتَضَى السَّاعَةِ . وَفِي حَيْثُمَا تَنْضَجُ الْمَوَاهِبُ فِي
لَحْظَاتِ التَّوْفِيقِ ، وَأَنَاءِ النَّجَاحِ . وَلِكُلِّ أَيَّامٍ
مَطَالِبُ أُخْرَى مِنَ الصِّفَاتِ ، وَلِكُلِّ أَرْزَمَةٍ مُقْتَضِيَاتُ

تُنَاسِبُهَا مِنَ الْمَزَايَا ، وَالْمَوَاهِبِ وَالنَّزَعَاتِ . وَقَدْ تَفُوتُ
بَعْضُ الْأَشْئَةِ وَالْأَضْوَاءِ نَظَرَ الْفَرْدِ الْإِعْتِيَادِيَّ
فَلَا يَرَاهَا ، وَتُجَاوِزُهُ فَلَا يَشْهَدُهَا ، لِأَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى
عَيْنٍ نَفَازَةٍ ^(١) لِتَكْشِفَهَا ، وَتَقْتَضِي بَصَرًا حَدِيدًا
لِيَهْتَدِيَ إِلَيْهَا . وَاسْأَلُوا الرَّجُلَ الْعَظِيمَ هَلْ شَمَّ ^(٢)
مَنْ هُمْ أَكْثَرُ مِنْهُ ، فَإِنَّ رُفَقَاءَهُ هُمْ كَذَلِكَ ، وَمَا هُمْ
بِأَقْلَ عَظَمَةٍ مِنْهُ . بَلْ إِنَّهُمْ لَأَسْمَى مِنْهُ فِيهَا ،
وَأَكْبَرُ مِنْهُ نَصِيبًا . وَلَكِنَّ الْمُجْتَمَعَ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يَرَاهُمْ ، وَالنَّاسُ عَنْهُمْ حَسِيرُوا ^(٣) الْأَبْصَارِ . وَمَا تَبَعَتْ
الطَّبِيعَةُ يَوْمًا بِعَظِيمٍ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، إِلَّا كَشَفَتْ
لِنَفْسٍ أُخْرَى عَنْ سِرِّهِ ، وَخَبِيرَةٍ حَقِيقَتِهِ .

(١) نفاذة : حادة (٢) شَم : اسم إشارة بمعنى هناك (٣) حسيروا
الأبصار : كليلو النظر ضعفأوه



السمو
الحقيق

وَفِي هَذَا الْبَحْثِ الَّذِي تَنَاوَلْنَاهُ ، تَنْبَعْتُ حَقِيقَةً
جَلِيلَةً كَبِيرَةً الشَّانِ ، وَهِيَ : إِنَّ السَّمُوَّ الْحَقِيقَ هُوَ
فِي الْحُبِّ ، وَسَيَأْتِي يَوْمٌ يُذَكَّرُ فِيهِ بُنُوغُ الْقَرْنِ
التَّاسِعَ عَشَرَ ، لِلتَّذْلِيلِ عَلَى وَخَشِيَّتِهِ وَخَلَائِهِ مِنْ
الْحُضَارَةِ ، وَتَجَرُّدِهِ مِنَ السَّمُوِّ وَالرَّفْعَةِ وَالْإِحْسَانِ ،
فَإِنَّ عِبْقَرِيَّةَ الْبَشَرِ ، هِيَ الْمَوْضُوعُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي
كُتِبَتْ تَرْجُمَتُهُ ، وَدُوْنَتْ سِيرَتُهُ فِي تَارِيخِنَا . وَإِنَّ
فِيهِ لَشُعْرَاتٍ كَثِيرَةً وَفَرَاغًا كَبِيرًا ، مَضَى بِغَيْرِ سَدَادٍ .
وَلَا يَزَالُ بِحَاجَةٍ إِلَى مَا يَمَلَأُ فَجْوَاتِهِ ^(١) ، وَيَسْتَوْفِي
نَقْصَهُ . وَإِنَّ تَارِيخَ الْعَالَمِ لَتَغْلِبُ فِيهِ الْأَغْرَاضُ ،

وَالْبَوَادِرُ^(١) وَالْعَلَامَاتُ ، أَكْثَرَ مِمَّا تَبْدُو فِيهِ الْحَقَائِقُ ،
وَالْجَوَاهِرُ ، وَالِاسْتِكْمَالُ . وَإِنَّ الْحَيَاةَ لَمَعْرُضٌ ،
فَمَا مِنْ رَجُلٍ فِي كُلِّ مَوَاقِبِ^(٢) الْعُظَمَاءِ ، وَالْأَعْلَامِ
وَالْأَبْطَالِ ، هُوَ الْعَقْلُ الْكَامِلُ ، وَالْعِرْفَانُ التَّامُّ ،
وَالضِّيَاءُ السَّاطِعُ ، وَالنُّورُ اللَّامِعُ . بَلْ مَا مِنْ رَجُلٍ
هُوَ الْجَوْهَرُ الَّذِي نَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ ، وَالْمَثَلُ الْأَعْلَى الَّذِي
نَنْشُدُهُ^(٣) . وَلَكِنَّهُ عَلَى أَكْثَرِ تَقْدِيرٍ لَيْسَ إِلَّا
مَعْرُضًا ، أَوْ ائْتُمُودَجًا ، أَوْ قَرِيبًا مِمَّا كُنَّا نَنْتَظِرُهُ ،
أَوْ اِحْتِمَالًا فِي طَرِيقِ مَا نَبْحَثُ عَنْهُ ، وَشُرُوعًا فِيمَا
نَحْنُ مُلْتَمِسُوهُ . أَفْسِيَاتِي يَوْمٌ يُتَاحُ^(٤) لِلْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ
أَنْ تَسْتَكْمِلَ الصُّورَةَ الرَّائِعَةَ الْعَظِيمَةَ ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ

(١) بواذر كل شيء : أوائله (٢) مواكب : محافل

(٣) نشده : نطلبه (٤) يتاح : يهيا

هَذِهِ الْجُزْئِيَّاتُ الْمُتَعَدِّدَةُ إِلَّا مَوَاضِعَ مِنْهَا ، أَوْ نَوَاحِيَ
فِيهَا ، أَوْ نُقْطًا مُشَوِّهَةً لَهَا .



تاريخ
العظام

إِنَّ دِرَاسَةَ تَوَارِيخِ الْعُظْمَاءِ ، تُؤَدِّي بِنَا إِلَى
إِقْلِيمٍ عُصْرِيٍّ ، وَنَاحِيَةٍ نَوْعِيَّةٍ ، يَتَلَشَّى ^(١) فِيهَا
الْفَرْدُ ، وَلَا يَعُودُ عِنْدَهَا ظَاهِرًا بَادِيًا ، بَلْ عِنْدَهَا
يَتَلَاقَى الْعُظْمَاءُ جَمِيعًا مُتَسَاوِي الْقِيَمِ ، وَتَقِفُ
صُفُوفُهُمْ مُتَقَارِبِي الرُّؤُوسِ ، مُتَعَادِلِي الْهَامِ ، وَإِنَّمَا
كُلُّ سِرِّ عَظْمَةِ الْعُظْمَاءِ أَوْ أَرْفَعِهِمْ عَظْمَةٌ ، أَنَّ
أَرْوَاحَهُمْ تَنْشُرُ نَفْسَهَا ، وَتَتَمَدَّدُ وَتَسْرِي ، وَتُذِيعُ
وَتَنْبُتُ فِي غَيْرِهَا ، وَإِنَّ الْمَوْهَبَةَ الْعَقْلِيَّةَ الْجَدِيدَةَ

لَتَطُوفُ وَتَحُومُ^(١) ، وَتَجُوبُ وَتَتَنَقَّلُ فِي دَوَائِرِ
وَمُحِيطَاتٍ مُتَرَامِيَةٍ مِنْ نَقْطِ ابْتِدَائِهَا ، وَمَرْكَزِ
أَصْلِهَا ، وَمُنْبَعِثِهَا وَنُشُوءِهَا ، فَتَنْتَشِرُ بِوَسَائِلِ
مُجْهُولَةٍ ، وَتَعْمُ وَتُعْلِنُ عَنْ ذَاتِهَا ، وَمَا أُوثِقَ وَحْدَةَ
الْعُقُولِ جَمِيعًا ، وَأَجْلَاهَا^(٢) ظُهُورًا وَأَدْقَهَا رَابِطَةً ،
فَمَا يَتَّصِلُ بِأَحَدِهَا لَا يَمْتَنِعُ عَنْ سَائِرِهَا ، وَأَيْنَمَا
يَتَأَتَّى الظِّفْرُ يَبْعُضُ الْحَقِيقَةَ ، أَوْ بَعْضُ الْفَضْلِ
وَالْإِحْسَانِ فِي نَاحِيَةٍ مَا أَوْ دَائِرَةٍ بِذَاتِهَا ، تَعْمُ الْفَائِدَةُ
مَجْمُوعَةَ النُّفُوسِ ، وَيَسْرِي خَيْرُهَا إِلَى كَافَّةِ الْأَرْوَاحِ .



إِنَّ عَبَقْرِيَّةَ الْبَشَرِ ، أَوْ عَظْمَةَ الْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ عَظْمَةُ
الانسانية

(١) تحوم : تدور (٢) أجلاها : أوضحها

أَحَقُّ مَوْضِعٍ بِالنَّظَرِ فِي مَجْمُوعَةِ التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ
 كُلِّهِ ، فَإِنَّ الصِّفَاتِ تَبْقَى ، وَالْأَفْرَادَ يَفْنَوْنَ
 وَيَتَلَاشَوْنَ ، وَكُلُّ مُوهِبَةٍ فِي ذَاتِهَا ، تَعْمُرُ وَتَمُكُثُ ،
 وَإِنْ ذَهَبَ الَّذِي عَرَضَهَا وَظَهَرَتْ فِيهِ ، وَتَلَاشَى
 مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ، وَمَرَّ فِي مَوَاكِبِ النُّبُوغِ ، حَتَّى
 غَابَ عَنِ الْبَصَرِ ، وَتَوَارَى بِالْحِجَابِ . بَلْ إِنْ
 الصِّفَاتِ وَالْمَزَايَا ، لَتَبْقَى حَتَّى تَبْدُو عَلَى جَبِينٍ غَيْرِ
 ذَلِكَ الْجَبِينِ ، وَعَقْلٍ غَيْرِ ذَلِكَ الْعَقْلِ ، وَهَذَا هُوَ
 مَا شُوهِدَ فِي الْعَالَمِ ، وَجُرَّبَ فَلَا رَيْبَ فِيهِ ،
 وَلَا شَكَّ يُمَارِيهِ^(١) ، وَإِنَّ الْأَوَانِي الَّتِي تَقْرَأُ عَلَيْهَا
 شَارَاتٍ مُقَدَّسَةً ، وَرُمُوزًا غَرَائِبَ ، قَدْ يَتَيَّنُ لَكَ

(١) يُمَارِيهِ : يعارضه .

بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهَا لَيْسَتْ سِوَى أَوْعِيَةٍ مِنْ مَأْلُوفٍ
 الصَّلَاحِ ، وَشَائِعِ الْخَزَفِ ^(١) ، وَلَكِنَّ رُوحَ الصُّورِ
 نَفْسُهَا هِيَ الْمُقَدَّسَةُ . وَقَدْ تَظَلُّ تَقْرُؤُهَا مُتَحَوِّلَةً
 مُتَنَقِّلَةً إِلَى جُذُرَانِ الْعَالَمِ وَحَوَائِطِهِ ، وَإِنَّ هُدَاتَنَا
 وَمُعَلِّمِينَ ، وَعُظَمَاءَنَا وَنَوَابِغَنَا ، لَيَظْلُونَ فِتْرَةً مِنْ
 الدَّهْرِ يَخْدُمُونَنَا وَيَهْذُبُونَنَا ، وَيُزَكُّونَنَا بِأَشْخَاصِهِمْ ،
 وَيُلَوِّحُونَ بِمِثَابَةِ أَعْلَامٍ ، وَشُخُوصٍ مَائِلَةٍ ^(٢) عَلَى
 طَرِيقِ التَّقَدُّمِ ، أَشْبَهَ شَيْءٍ بِيَّانِ الْأُمِّيَالِ وَالْفَرَاسِخِ
 عَلَى جَوَانِبِ الطُّرُقِ الْحَدِيدِيَّةِ ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ
 رُسُلَ الْمَعْرِفَةِ ، وَأَقْيَالَ ^(٣) الْعِلْمِ ، وَمَصَايِحَ الْهُدَى

(١) الخزف : الصيني (٢) مائلة : قائمة (٣) أقيال : جمع قيل
 وهو الرئيس دون الملك

وَكَانَتْ شُخُوصُهُمْ وَقُدُودُهُمُ الرَّفِيعَةُ ، تَامِسُ
السُّحُبَ ، وَتَذْهَبُ صُعْدًا بِرُؤُوسِهَا فِي السَّمَاءِ ، فَلَمَّا
اقْتَرَبْنَا مِنْهُمْ رَأَيْنَاهُمْ عَلَى حَقَائِقِهِمْ ، وَأَبْصَرْنَا
مَقَادِيرَ عُلُومِهِمْ وَثَقَافَاتِهِمْ ، وَحُدُودَ مَعْرِفَتِهِمْ ، وَإِذَا
هُمْ يُسَامُونَ مَوَاضِعَهُمْ لِعُظَمَاءِ آخَرِينَ ، وَيُخْلَفُونَ
أَمَّا كِنَهُمْ لِنَوَابِغِ وَعَبَاقِرَةِ سِوَاهُمْ ، وَالْفَائِزُونَ
الْفَائِزُونَ هُمُ الْقِلَّةُ الَّذِينَ تَبَقَّى أَسَامِيهِمْ عَلَى أَوْجِهَا^(١)
عَالِيَاتٍ مُتَسَامِيَاتٍ ، نَعْجِزُ عَنْ مَعْرِفَتِهِمْ لِعَجْزِنَا عَنْ
الدُّنُوِّ مِنْهُمْ ، وَالذَّلْفِ^(٢) إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الدَّهْرُ
بِأَجْيَالِهِ وَأَحْقَابِهِ^(٣) الْمُتَلَحِّقَةِ ، وَلَا الرُّفُقَاءُ وَالْأَشْبَاهُ

(٢) الذلف : الاسراع

(١) الأوج : الارتفاع

(٣) الأحقاب : السنين

وَالنُّظَرَاءُ ، أَنْ يَسْلُبُوهُمْ شُعَاعاً^(١) مِنْ أَشْعَتِهِمُ السَّاطِعَةِ
 الَّتِي لَا تَنْطَفِئُ يَوْماً ، وَلَا تَغِيْمُ وَلَا تَغِيبُ آخِرَ الْحَيَاةِ
 وَلَكِنْ فِي النَّهَايَةِ سَنَكْفُ عَنْ التَّطَّلُعِ فِي
 الْعُظْمَاءِ وَالتَّوَابِغِ إِلَى الْكَمَالِ ، قَامِنِينَ^(٢)
 بِصِفَاتِهِمُ الْإِنْسَانِيَّةِ ، رَاضِينَ عَنْ قِيَامِهِمْ ، مُمَثِّلِينَ
 لِأَنْوَاعِهِمْ ، نَائِبِينَ عَنْ صُنُوفِهِمْ ، أَمْثِلَةً وَنَمَازِجَ
 لِمُضْرُوبِهِمْ ، وَفَرَقِهِمُ الْمُخْتَلِفَةَ .



إِنَّ كُلَّ مَا يَتَّصِلُ بِالْفَرْدِ عَارِضٌ زَائِلٌ ، مُفْتَرَضٌ
 الْمَوْجُودِ كَالْفَرْدِ ذَاتِهِ ، الْخَارِجُ مِنْ حُدُودِهِ إِلَى

(١) شعاعاً : ضوءاً (٢) قامنين : جديرين متيقنين .

الدَّائِرَةُ الْعَامَّةُ ، وَالْوُجُودُ الْجَامِعُ الشَّامِلُ ، وَمَا
 أُتِيحَ لَنَا يَوْمًا أَنْ نَبْلُغَ خَبَرَ مَا عِنْدَ النَّبِغَةِ ، وَلَا
 أَنْ نُصِيبَ أَقْصَى الْإِثْفَاعِ ، وَأَفْضَلَ الْإِسْتِفَادَةِ بِهِ ،
 لِأَنَّا ظَلَلْنَا نَنْظُرُ إِلَيْهِ كَقُوَّةٍ جَدِيدَةٍ ، وَنَعُدُّهُ نَوْعًا
 طَرِيفًا مُبْتَكِرًا مِنَ النُّبُوغِ ، مَعَ أَنَّهُ يَوْمَ يَكْفُ
 عَنْ خِدْمَتِنَا وَنَفْعِنَا كَعِلَّةٍ وَسَبَبٍ ، يَتَدَيُّ يَخْدُمُنَا
 وَيَنْفَعُنَا كَمَعْلُولٍ وَنَتِيجَةٍ ، وَيَوْمَئِذٍ يَبْدُو لَنَا أَوْسَعَ
 عَقْلًا ، وَأَفْسَحَ مَدَى ذِكَاً ، وَأَكْبَرَ مَشِئَةً وَإِرَادَةً ،
 بَلْ يَوْمَئِذٍ تَسْتَحِيلُ النَّفْسُ الْمُعْتَمَةُ ^(١) الْقَاتِمَةُ ،
 نَفْسًا شَفَافَةً يَخْطِفُ ^(٢) عَلَيْهَا ضِيَاءُ اللَّهِ ، أَوِ الْمُنْشِئُ
 الْأَوَّلُ ، وَانْخَلَقُ الْعَظِيمُ .

(١) المعتمة : المظلمة . والقاتمة : الشديدة الظلمة (٢) يخطف : يمر سريعاً

عَلَى أَنَّنَا فِي حُدُودِ الْعِلْمِ الْإِنْسَانِيِّ وَوَسَائِلِ
 الْبَشَرِيَّةِ الْمَحْدُودَةِ ، يَصِحُّ لَنَا أَنْ نَقُولَ : إِنَّ الْعُظَمَاءَ
 إِنَّمَا يُوجَدُونَ وَيُظْهَرُونَ ، لَكِنِّي يُوجَدَ وَيُظْهَرُ
 مَنْ يَرُوحُونَ أَعْظَمَ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ نَامُوسَ الطَّبِيعَةِ إِنَّمَا
 يَعْمَلُ عَلَى التَّحْسِينِ وَالتَّرْقِي ، وَالتَّعْدِيلِ وَالتَّهْدِيدِ ،
 فَمَنْ ذَا الَّذِي يُدْرِكُ إِلَى أَى حَدٍّ يَصِلُ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي
 يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ أَى مَدَى هُوَ بَالِغٌ . ؟ ؟



وَمَا عَلَى الْإِنْسَانِ إِلَّا أَنْ يُحَارِبَ الْفَوْضَى ،
 وَيُنْظِمَ الْحَيَاةَ ، وَيَهْدِبَ الدُّنْيَا ، بَلْ إِنَّ عَلَيْهِ أَنْ
 يَنْتَرِ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَفِي جَمِيعِ الْجِهَاتِ مِنْ حَوْلِهِ ،

وَطِيلَةَ مَدَى حَيَاتِهِ ، بُذُورَ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ وَالْفَضِيلَةِ ،
لِكَيْ يَسْتَحِيلَ الْمُنَاحُ وَالنَّبَاتُ ، وَالْحَيَوَانُ
وَالْإِنْسَانُ ، أَخَفَّ وَأَرْفَقَ وَالْأَيْنَ ، وَأَرْقَّ طِبَاعًا
وخاصَّةً وَمَزَاجًا ، وَهِيَ تَتَكَثَّرُ جَرَائِمُ الْحُبِّ ،
وَيَنُمُو الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ ، وَيَتَوَالِدُ الْفَضْلُ وَالنَّفْعُ
وَالْفَائِدَةُ ٢



وَإِنَّ سِيَاقَ الْحَدِيثِ يُلْزِمُنَا أَنْ نُطَالِعَكَ عَلَى
رِسَالَةٍ صَافِيَةٍ أُخْرَى .

رِسَالَةٌ أُخْرَى ضَافِيَّةٌ^(١)

فِي الرَّدِّ عَلَى إِمْرُسُون سَيِّدِ كُتَّابِ أَمْرِيكَ الْمُحَدِّثِينَ

بِقَلَمِ النَّقَّادَةِ الْأَدِيبِ الْإِنْكِلِيزِيِّ الْكَبِيرِ

جِيمْسُنْ أَنتُونِي فِرُودْ

مَنْ سَأَتِ أَنْسَلِمَ إِلَى الْمُسْتَرِزِ إِمْرُسُونَ ، أَوْ الرَّدَّ عَلَى
إِمْرُسُونِ
بِعِبَارَةٍ أُخْرَى مِنْ « اِكْتَسَانُتُورْم » رَأَى تَرَاجِمَ
الْقَدِيسِينَ وَالْأَوَّلِيَاءِ الصَّالِحِينَ ، إِلَى كُتَّابِ الْعُظَمَاءِ
الْمُمَثِّلِينَ لِأَنْوَاعِهِمْ ، رِحْلَةً طَوِيلَةً نَعْبُرُ بِهَا سَبْعَةَ
قُرُونٍ سَوِيًّا^(٢) . وَبَيْنَ هَذَيْنِ الْعَهْدَيْنِ ، قَدْ انْقَرَضَ

(١) ضافية : مسهبه (٢) سانت انسلم فيلسوف مشهور من
الفلاسفة الدينيين في أوائل القرن الحادى عشر وقد اشترك فى تكملة مجموعة
تراجم القديسين المسماة « اكتسانتورم » بينما عاش ايمرسون فى القرن
التاسع عشر فبينهما اذن ثمانية قرون لا سبعة كما قال فرود والعظماء الممثلون
لانواعهم فى رسالة ايمرسون التى مرت بك .

النَّوعُ الْقَدِيمُ مِنَ الْمُثَلِّ الْعُلْيَا ، وَالنَّمَاذِجِ الصَّالِحَةِ
لِلْعُظَمَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، كَمَا انْقَرَضَتِ الزَّوَاهِفُ الَّتِي كَانَتْ
تَدِبُّ فِي هَذَا الْعَالَمِ قَبْلَ ظُهُورِ الْإِنْسَانِ ، وَهَذَا نَحْنُ
الْيَوْمَ أَمَامَ نَمَاذِجِ أُخْرَى ، وَصُنُوفٍ مُغَايِرَةٍ ، وَأَنْوَاعٍ
مُحْدَثَةٍ ^(١) ، نُرِيدُ أَنْ نَنْظُرَ فِيهَا ، وَنَسْتَمِدَّ مِنْهَا ،
وَنَتَشَجَّعَ بِوُجُودِهَا .

فَالْفَيْلَسُوفُ ، وَالِدِّينِيُّ ، وَالشَّاعِرُ ، وَالْمُتَشَكِّكُ ،
وَالدُّنْيَوِيُّ ، وَالْكَاتِبُ ، هِيَ الْأَنْوَاعُ النُّمُودَجِيَّةُ
الْحَدِيثَةُ ، أَوْ الْأَمْثَلَةُ النَّوْعِيَّةُ ، الَّتِي رَتَّبَهَا الْمُسْتَرُ
«إِمْرِسُون» وَنَسَقَ ^(٢) فِهْرِسَهَا ، وَهُوَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ
نَظَرَتْ إِلَيْهِ «كَتَالُوجٌ» اسْتَشْنَائِيٌّ ، وَفِهْرِسٌ مُبْتَدِعٌ

جَدِيدٌ . وَأَوَّلُ مَا يَبْدَهُكَ ^(١) مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ ، أَنَّهُمْ
 جَمِيعًا مُفَكَّرُونَ خَلَا وَاحِدًا ، وَلَيْسَ الْفِكْرُ بِالَّذِي
 يَسْتَوِي فِي الْمُوَازَنَةِ وَالْعَمَلِ . وَمَا اكْتَسَبَ الْقَدِيسُونَ
 ألقَابَ قَدَاسَتِهِمْ بِسَبَبِ عَدَدِ كُتُبِهِمْ ، وَمُؤَلَّفَاتِهِمْ ،
 وَدَفَائِرِهِمْ ، وَتَعْلِيقَاتِهِمْ ^(٢) .

وَإِذَا كَانَتْ ضَرُورَاتُ الْحَيَاةِ هِيَ الَّتِي اسْتَنْفَرَتْ
 أَفَاضِلَ النَّاسِ وَأَخْيَارَهُمْ ، مِنْ مَيَادِينِ الْعَمَلِ إِلَى دَائِرَةِ
 الْفَلَسَفَةِ وَالشَّعْرِ ، فَذَلِكَ هُوَ شَرُّهُمْ ، وَلِلْعَالَمِ كُلِّهِ ،



وَلَيْسَ فِي مَجْمُوعَةِ الْعُظَمَاءِ الَّذِينَ تَحَدَّثَ «إَيْرِسُون»
 عَنْهُمْ ، غَيْرُ رَجُلٍ عَمَلِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ «نَابَلْيُونُ بُونَابَرْت»

نابليون
بونا بارت

(١) يبدئك . يبدؤك ويفاجئك (٢) مفردها تعليقة وهي الكراسات
 التي تدون فيها الافكار ، والمحصول العلمي وقد كان الغزالي يسميها كذلك
 وقد اقتبسناها هنا لمطابقتها المعنى المراد .

وَمَا أَحْسَبُهُ بِالشَّخْصِ الَّذِي يَصْلُحُ كَمَا يَشْعُرُ الْيَوْمَ
 أَكْثَرَنَا ، لَكِنِّي يَكُونُ مِثْلًا يُحْتَذَى ، أَوْ نُمُودَجًا
 يُتَرَسَّم ، أَوْ يُهْتَدَى بِهِ . وَلَقَدْ كَانَ خَيْرًا لِلْمِسْتَرِ
 « إيمرسون » أَنْ يَقْتَصِرَ فِي بَيَانِ عُظَمَائِهِ ، عَلَى جَانِبِهِ
 مِنَ الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ ، فَإِنَّهُ لَعَمْرُ الْحَقِّ قَدْ غَضَّ
 مِنْ كَرَامَةِ بِلَادِهِ ، بِالتَّامِّ أَبْطَالِهِ وَعُظَمَائِهِ فِي أَوْرُوبَا
 كُلِّيةً . وَلَقَدْ كَانَ مُؤَدِّيًّا إِلَيْنَا فِي أَوْرُبَّا صَنِيعًا أَجْمَلَ ،
 وَجَمِيلًا أَحَقَّ وَأَصْدَقَ . لَوْ أَنَّهُ حَدَّثَنَا وَقَصَّ عَلَيْنَا
 طَرَفًا^(١) مِنْ أَخْبَارِ رِجَالِ الْغَابَاتِ فِي وَلَايَةِ « أوهيو »
 أَوْ حَطَّابِي الْأَجْمِ فِي وَلَايَةِ « كَنْتَاكي » .

عَلَى أَنَّنَا نَدْعُ ذَلِكَ جَانِبًا ، إِذْ لَسْنَا نُرِيدُ هُنَا أَنْ
 نَشْتَجِرَ^(٢) مَعَهُ أَوْ مَعَ كِتَابِهِ . وَإِذَا كُنَّا قَدْ جَعَلْنَا

(١) طرفا : جزءا (٢) نشتجر : نختلف ونتنازع .

عُنُونَهُ فِي رَأْسِ مَقَالِنَا هَذَا ، فَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ
الْكِتَابَ يُبْرِزُ تَقْصًا مَلْحُوظًا لَمْ يَتَنَبَّهُ الْكَاتِبُ إِلَيْهِ ،
أَوْ غَفَلَ عَنْهُ وَأَهْمَلَهُ إِهْمَالًا .

✱ ✱

إِنَّ هَذِهِ الْأَوَّلِيَّاتِ ^(١) السَّتِ ، كَمَا قَدْ يُسَمِّيهَا الْأَوَّلِيَّاتِ
أَهْلُ الْمَنْطِقِ — مَا هِيَ وَمَا شَأْنُهَا ؟ ! هَلْ هِيَ
تَقْسِيمٌ نِهَائِيٌّ لَا يَقْبَلُ تَبْوِيغًا آخَرَ ، وَلَا يَتَّسِعُ
لِاطِّرَادٍ وَمُتَابَعَةٍ ، أَمْ هُنَاكَ نَوْعٌ مِنَ الْعَظَمَةِ
أَكْبَرُ مِنْ هَذَا ، وَأَفْسَحُ نِطَاقًا ، يَصِحُّ أَنْ تُوَضَعَ
هَذِهِ الْأَوَّلِيَّاتُ تَحْتَهُ ؟ !

إِنَّ الشَّاعِرَ وَالسَّفْسَطَائِيَّ ^(٢) — أَوْ اللَّا أَدْرِي ^(٣) —

(١) الأوليات : البديهيات عند المناطقة (٢) والسفسطائي نسبة إلى
السفسطة وهو الذي يعتمد في مقدماته على المغالطة والتمويه دون الحقيقة والعقل
(٣) اللا أدري نسبة إلى قولك « لا أدري » وهو الذي يعطل العقل
من أحكامه ويتجاهل الحقائق

وَبَقِيَّةَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْمُؤَلِّفُ إِنَّمَا تَأْتِي جَمِيعًا
 فِي تَقْسِيمِ الْعُلَمَاءِ الطَّبِيعِيِّينَ تَحْتَ نَوْعٍ وَاحِدٍ وَهُوَ
 الْإِنْسَانُ بِاعْتِبَارِهِ وَحْدَةً قَائِمَةً بِذَاتِهَا ، فَهَلْ عِنْدَ
 الْمُسْتَرِ إِعْرَاسُونَ فِكْرَةٌ وَاضِحَةٌ كَهَذِهِ فِي مَعْنَى
 الْإِنْسَانِ الْعَظِيمِ ، أَوْ مَعْنَى الْإِنْسَانِ الْفَاضِلِ ؟ !
 وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، فَمَا هُوَ ، وَأَيْنَ هُوَ ؟ ؟
 فَإِنَّمَا نَحِبُّ أَنْ نَعْرِفَ . لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَصْعَدُونَ
 إِلَى السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى هَذَا الْإِعْتِبَارِ
 الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ ، أَوْ بِهَذَا التَّقْسِيمِ الَّذِي قَسَّمَهُ ،
 بَلْ هُوَ ذَلِكَ النَّوْعُ الرَّفِيعُ السَّامِيُّ مِنَ الْخُلُقِ ،
 الَّذِي هُوَ فِي ذَاتِهِ فَاضِلٌ وَعَظِيمٌ ، لَا تَبَايُنَ فِي
 أَمْرِهِ ، وَلَا خِلَافَ عَلَيْهِ ، وَلَا تَمَيِّزَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ

سِوَاهُ . وَهَلْ تَحْوِي الدُّنْيَا شَيْئًا كَهَذَا ، وَإِذَا
حَدَّثَ فَأَيْنَ الصِّفَةُ النَّوْعِيَّةُ فِيهِ ؟ ! أَوْ كَيْفَ
يَكُونُ عَلَى حَدِّ تَقْسِيمِ إِمْرِئُونَ مُمَثِّلًا لِنَوْعِهِ ،
نَائِبًا عَنْ فَصِيلَتِهِ ؟ ! وَقَدْ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ إِنَّ
الْإِنْسَانَ النَّوْعِيَّ لَا وُجُودَ لَهُ فِي وَحْدَةِ الْكَمَالِ ،
وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ تَقَعَ عَلَى إِنْسَانٍ^(١)
كَهَذَا بَيْنَ عَدِيدِ صُنُوفِ النَّاسِ ، بَيْضًا وَسُودًا ،
وَأَنَاسِيَّ^(٢) وَمُتَوَحِّشِينَ .



وَأِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَعْنَى قَوْلِنَا
رَجُلًا عَظِيمًا أَوْ رَجُلًا فَاضِلًا ، وَجَبَ أَنْ نَلْتَمِسَ
حقيقة العظمة والنبوغ

(١) أى يجوز أن يوجد جزئى واحد فى كثرة متعددة . أما النوع فلا

(٢) جمع إنسان ويريد به المدنى

صِفَةً مُعَيَّنَةً ، أَوْ مَجَالًا مَحْدُودًا بِالذَّاتِ ، يَبْدُو
فِيهِ عَظِيمًا ، وَيَلُوحُ مِنْ نَاحِيَّتِهِ فَاضِلًا ، وَمِنْ شَمِّ
نَضَعُ فِكْرَتَنَا الْعَامَّةَ ، وَمَقَائِيسَنَا عَنِ الْعَظَمَةِ
وَالْفَضْلِ وَالشُّبُوغِ .

وَأَقُولُ هَذَا حَسَنٌ ، إِذَا نَحْنُ عَرَفْنَا حَقِيقَةَ
مَا نُرِيدُ ، وَأَدْرَكْنَا فِعْلًا مَا نَقْصِدُ ، وَفَهِمْنَا فِي
اسْتِخْلَاصِ الْأَنْوَاعِ الْمُنَوَّعَةِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْفَضْلِ ،
كَيْفَ نَصِلُ إِلَى الْفِكْرَةِ الْجَوْهَرِيَّةِ ، وَنُقِيمُهَا
وَاضِحَةً جَلِيلَةً ، أَمَامَ أَبْصَارِنَا ، دُونَ أَنْ نَشْتَبِكَ
فِي الْأَعْرَاضِ ^(١) ، أَوْ نُخْطِئَ فِي فَهْمِ الْحَوَادِثِ
وَالظُّرُوفِ ، فَتَجْعَلَهَا هِيَ جَوْهَرًا ؟

(١) الاعراض جمع عرض وهى الصفات التى تلحق الذات وليست من
مقوماتها كالطول والعرض واللون وما الى ذلك ويقابله الجوهر .

إِنَّ الرِّفْعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ — أَوْ الْعِظَمَةَ — بَعْدَ
 كُلِّ التَّعَالِيمِ الَّتِي لُقِّنَهَا النَّاسُ فِي ثَمَانِيَةِ عَشَرَ قَرْنًا
 الْآنَ — كَانَ يَنْبَغِي أَلَّا يَكُونَ عَلَى تَحْدِيدِهَا^(١)
 خِلَافٌ مُطْلَقًا ، بِمَضَى هَذِهِ الْمُدَّةِ ، وَانْقِضَاءِ هَذَا
 الزَّمَنِ ، لِأَنَّهَا الْغَرَضُ الَّذِي عَلَّمُونَا أَنْ نَرْمِيَ إِلَيْهِ ،
 وَالْغَايَةُ الَّتِي قِيلَ لَنَا : إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ نَلْتَمِسَهَا ، وَنَعْمَلَ
 لِبُلُوغِهَا ، دُونَ سَائِرِ الْأَغْرَاضِ ، وَكَافَّةِ الْغَايَاتِ .



وَإِذَا كَانَ فِي الْعِظَمَاءِ الْمُثَنِّينَ لِأَنْوَاعِهِمْ أَيْ
 خَيْرٌ لَنَا أَوْ نَفْعٌ مَا ، فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي تَمْثِيلِهِمْ
 مُجَرَّدَ مَجْمُوعَاتٍ غَرِيبَةٍ مِنَ الظَّاهِرَاتِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ

(١) تحديدها : أى تعريفها بالحد .

ذَلِكَ فِي تَصْوِيرِنَا وَتَمَثُّلِنَا ، فِي أَشْكَالِنَا الْحَقِيقِيَّةِ ،
 وَكَمَا نَحْنُ يَنْبَغِي أَنْ نَكُونَ ، وَكَمَا يُرِيدُ كُلُّ فَرْدٍ
 مِنَّا أَنْ يَتَرَسَّمَ وَيَحْتَدِي ، إِذْ لَيْسَ يَعْنِينَا أَنْ نَعْرِفَ
 الرَّجُلَ الْعَظِيمَ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الْعِلْمِيِّ ، أَوْ رَجُلِ
 الدُّنْيَا كَمَا صَوَّرَ إِمْرِسُونُ ، وَقَسَمَ وَبَوَّبَ الْعُظَمَاءُ
 وَالْعُظَمَاءُ ، وَلَكِنَّ الَّذِي نَعْنِيهِ وَنَحْفِلُ^(١) بِهِ ، هُوَ أَنْ
 نَعْرِفَ « الرَّجُلَ الْعَمَلِيَّ » فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ .
 وَهُوَ شَيْءٌ آخَرُ يَخْتَلِفُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّ الْإِخْتِلَافِ ،
 وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَحْيَا فِي هَذَا الْعَالَمِ ،
 وَنَعِيشَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، فَكَيْفَ نَحْيَا حَيَاةً عَظِيمَةً ،
 وَنَعِيشَ عَيْشَةً فَاضِلَةً ؟ هَذَا هُوَ السُّؤَالُ الَّذِي يَجِبُ

 (١) نحفل به : نبالي

أَنْ نَجِدَ الْجَوَابَ عَلَيْهِ ، وَلَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ نَعْرِفَ
 كَيْفَ يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَظِيماً ، وَكَيْفَ نَصُبُ ^(١) عَظْمَتَهُ
 فِي قَلْبِ عَالَمِيٍّ ، وَنَجْعَلُ مِنْهُ فِي الْعَظْمَةِ نَوْعاً مِنْ
 الْأَنْوَاعِ ؟؟ فَقَدْ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعَمَلِيِّينَ
 النَّاجِحِينَ ، الْمُؤَفَّقِينَ الَّذِينَ لَا حَصْرَ لَهُمْ ، وَلَا عِدَادَ
 لِأَفْرَادِهِمْ ، قَوْمٌ صِغَارُ النُّفُوسِ ، ضِئَالُ الْأَقْدَارِ ،
 شِدَادُ أَدْنِيَاءٍ مَعَ فَرْطِ نَجَاحِهِمْ ، وَدُنْيَوِيَّةِ شَأْنِهِمْ ،
 وَمِنْ شَمِّ تَخَلُّطِ الْفِكْرَةِ الْإِمْرَسُونِيَّةِ بَيْنَ النَّجَاحِ
 وَالْعَظْمَةِ . وَتُرِيدُ أَنْ تُحِيلَ ^(٢) أَقْيَسَتَنَا الْأَخْلَاقِيَّةَ
 فَوْضَى وَاخْتِلَالاً . وَعَلَى هَذَا قِسٌّ كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ

(١) نصب : نضع من صب الماء أفرغه . والكلام على المجاز

(٢) أن تحيل : أن تحول والمعنى أن رأى ايمرسون لا يفرق بين النجاح
 والعظمة ويفضى الى هدم الأقيسة الاخلاقية الاجماعية المتفق عليها .

الْإِنْسَانُ ، وَكُلَّ نَاحِيَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ يَنْتَحِيهَا ، وَقَدْ نَمَتِ
 الْحَيَاةُ ، وَتَضَاعَفَتْ وَتَرَامَتْ حُدُودُهَا وَنَوَاحِيهَا ،
 حَتَّى قَامَ فِي مَوْضِعِ الْعَمَلِ الْوَاحِدِ قَدِيمًا مِائَةُ عَمَلٍ
 الْآنَ ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ هِيَ الْمَعَايِيرَ وَالْأَقْيِسَةَ .
 وَلَكِنْ نَحْنُ الَّذِينَ كَذَلِكَ ، فَنَحْنُ الْغَايَةُ ، وَهِيَ
 لَيْسَتْ سِوَى الْوَسِيلَةِ وَالْمَادَّةِ ، بَلِ الصَّلَاحُ^(١) أَوْ
 الْحَمُّ الْمُسْنُونُ ، أَوِ الرَّخَامُ أَوِ الْبُرْنُزُ ، الَّذِي يَصْطُنِعُ
 الْمَثَالَ مِنْهُ تِمَثَالُهُ ، وَيَنْحِتُ مِنْهُ دُمَيْتَهُ^(٢) ،
 وَالشَّكْلُ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ ، وَلَكِنْ مَا هُوَ الشَّكْلُ ،
 وَمَا حَقِيقَتُهُ ؟ !

(١) الصلصال : الطين والمراد به وبما بعده المادة الأولى والهيولى
 والرخام الذى يصنع منه مختلف الأنواع . والحما المسنون الطين فى قوام
 العجين أو أرق من ذلك (٢) الدمية : الصورة والتماثل تصنع من العاج
 أو الرخام أو غيرها

☆
☆ ☆

مِنَ الْمَهْدِ إِلَى الْمُنْبَرِ ، وَفِي الْبَيْتِ وَالْمَدْرَسَةِ ^{النبل والفضيلة}
وَالْمَعْبَدِ ، يَضْرِبُ كُلُّ مُعَلِّمٍ وَمُرَبٍّ وَوَاعِظٍ وَإِمَامٍ
عَلَى نَعْمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَوَتِيرَةٍ ^(١) رَتِيبَةٍ . وَهِيَ : كُونُوا
أَخْيَارًا ، كِبَارَ النُّفُوسِ ، أَوْ كُونُوا رِجَالًا . فَأَيْنَ إِذَا
أَخِيرُ ، وَمَا هُوَ إِذَا الثُّبُلُ ، وَمَا هِيَ الْفَضِيلَةُ ؟؟؟ .
وَأَيْنَ الْقُدُوتُ إِذَنْ وَالْأَمْثَلَةُ ؟

لَسْتُ — مَعَاذَ اللَّهِ — أَغْنِي أَنَّ الْعَالَمَ لَا يَحْوِي مِنْ
ذَلِكَ شَيْئًا ، فَإِنَّ هَذَا أَبْعَدُ مَا يَكُونُ مِنْ مُرَادِي ،
إِذْ لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا كَفَّتْ عَنْ أَنْ تُخْرِجَ رِجَالًا يُرْضُونَ
اللَّهَ لَتَلَاشَتْ مِنْ زَمَنِ بَعِيدٍ ، كَمَا تَلَاشَتْ وَانْدَثَرَتْ
الْمَدَائِنُ الْقَدِيمَةُ فِي التَّارِيخِ . وَإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ

(١) وتيرة : طريقة . ورتيبة : منظمة .

مَنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الْأَخْيَارُ وَمَا شَأْنُهُمْ ، وَكَيْفَ تَتَوَصَّلُ
إِلَى مَعْرِفَتِهِمْ ؟ ؟

إِنَّ هَؤُلَاءِ هُمْ زُعَمَاؤُنَا وَهَدَاثُنَا ، وَقَادَتُنَا فِي مَعْرَكَةِ
هَذِهِ الْحَيَاةِ وَحَرْبِهَا . وَلَوْ رَأَيْنَاهُمْ لَتَبِعْنَاهُمْ ، وَأُبْعَدْنَا
عَنْ أَنْفُسِنَا الْعَثَرَاتِ الْكَثِيرَةِ ، وَالْمَهَاوِي السَّحِيقَةِ ،
وَالْخُصُومِ وَالْأَعْدَاءِ ، الْعِدَادَ الْكَثَرَ فِي طَرِيقِنَا ،
وَمَا نَتَعَرَّضُ لَهُ فِي حَيَاتِنَا .

وَلَا يَحْسَبَنَّ أَحَدٌ أَنَّ الْإِهْتِدَاءَ إِلَى الْعُظَمَاءِ الْحَقِيقِيِّينَ
أَمْرٌ هَيِّنٌ سَهْلٌ لَا مَشَقَّةَ فِيهِ ، وَلَا كَدَّ وَلَا مَجْهَدَةَ ،
وَنَحْنُ نَجِدُ أَبَدًا أَتْمَاءَ الْمَشْهُورِينَ الَّذِينَ بَلَّغُوا قِمَّةَ
الشُّهُرَةِ ، يُهْتَفُّ بِهِمْ ، وَنَرَى عَدِيدًا مِنَ الْمُزَيَّفِينَ
يَزِدُّهُمْ الْأَتْبَاعُ مِنْ حَوْلَهُمْ مُصَفِّقِينَ لَهُمْ ، سَائِرِينَ فِي

أَثَرِهِمْ ، مُقْبِلِينَ عَلَيْهِمْ ، مُتَرَسِّمِينَ خَطَوَاتِهِمْ . وَفِي
 الْفَنِّ وَالْعِلْمِ ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَكْتَشِفَ الْمُشْعُودَ^(١)
 وَالذَّجَالَ ، وَالذَّعَى^(٢) وَالْمُنْتَحِلَ ، وَلَكِنَّا فِي الْحَيَاةِ
 لَا نَجِدُ السَّهُولَةَ نَفْسَهَا فِي اكْتِشَافِ الذَّجَاغِلَةِ . بَلْ قَدْ
 يَتَشَابَهُ عَلَيْنَا الذَّجَالُ ، وَالصَّادِقُ ، وَالْمُزَيَّفُ ،
 وَالصَّحِيحُ . وَلَوْ جَمَعْتَ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنَّا ، وَكُلُّهُمْ
 مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ وَأَكْبَرِهِمْ ، وَسَأَلْتَهُمْ آرَاءَهُمْ فِي
 أَلِزَابِتَ « أَلْيَصَابَاتِ^(٣) » أَوْ فِي « كَرُومُوِيلَ^(٤) »

(١) الشعوذة : خفة في اليد وأخذ كالسحر يرى الشيء في رأى العين
 بغير ما عليه أصله قال في اللسان هو مستعمل وليس من كلام أهل البادية . والدجل
 استعمال التأمم والرق وضرب الرمل وما شاكل ذلك من كل ما يشتغل به
 الجهلاء (٢) الذعى : الذى يدخل نفسه في القوم ليس منهم وينتسب الى
 غير منسب (٣) الیصابات : ملكة انجلترا وكان عصرها من أزهى العصور
 (٤) كرومويل : قائد من أشهر قواد هذه المملكة وأقسام .

جَاءُوكَ بِخَمْسِينَ رَأْيًا ، كُلُّ رَأْيٍ يَخْتَلِفُ عَنْ سِوَاهُ
فِي أَمْرِ تِلْكَ الْمَلِكَةِ ، وَشَأْنِ ذَلِكَ الْقَائِدِ .

وَلَكِنْ طُبِعَ النَّاسُ عَلَى أَنْ يَسْتَسْهَلُوا ذَلِكَ ،
وَلَا يَسْتَصْعِبُوهُ ، وَهُمْ قَائِلُونَ : إِنَّ الْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ
مَحْدُودَةٌ الْمَعَالِمِ ، وَإِنَّ الْخَيْرَ وَالْفَضْلَ وَالطَّبِيعَةَ أَعْلَامُ
بَارِزَةٌ ، وَصِفَاتٌ وَاضِحَةٌ لَا خِلَافَ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ
الْوَاقِعُ أَنَّ النَّاسَ لَا يَعْرِفُونَ ، وَلَكِنَّ الْوَاقِعَ أَنَّهُمْ
لَا يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْرِفُونَ . وَهَذَا مَا نَسْمَعُ كَثِيرًا مِنْ
أَشْبَاهِهِ فِي الْعِظَاتِ ، وَخُطَبِ الْوُعَاظِ فِي الْكُنَائِسِ
وَالْمَحَارِيبِ ، وَفِي الْمُحَاضَرَاتِ وَغَيْرِ الْمُحَاضَرَاتِ .
وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْرِفُ بِالتَّجَرُّبَةِ
سِرَّ قَوْلِهِمْ هَذَا ، وَبَاعِثَهُ وَحِكْمَتَهُ .



وَلَكِنَّ هُنَاكَ نَوْعَيْنِ مِنَ الْوَاجِبِ : وَهُمَا الْوَاجِبُ الْوَاجِبُ
الْإِيجَابِيُّ ، وَالْوَاجِبُ السَّلْبِيُّ ، أَوْ مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ
نَفْعَلَهُ ، وَمَا لَا يَنْبَغِي . وَإِنَّ الضَّمِيرَ لَا كَثْرَ تَنْبِيهَا
وَتَعْطِيَةً لِلْوَاجِبِ السَّلْبِيِّ ^(١) أَوْ النَّوَاحِي أَكْثَرَ مِنْهُ
لِلْإِيجَابِيَّاتِ أَوْ الْأَوَامِرِ ، وَلَكِنَّهُ بِمَكْرِهِ وَدَهَائِهِ ،
فِي تَرْكِزِ كُلِّ انْتِبَاهِهِ ، وَاهْتِمَامِهِ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ
السَّلْبِيَّةِ مِنَ الْوَاجِبِ . قَدْ عَمِلَ عَلَى نِسْيَانِ النَّاحِيَةِ
الْأُخْرَى ، أَوْ لَمْ يَعُدْ يَذْكُرُ أَنَّ لَهَا وَجُودًا عَلَى
الْإِطْلَاقِ ، وَإِنَّ إِيْتْيَانَ عَمَلٍ سَيِّئٍ ، هُوَ مُخَالَفَةٌ أَمْرٍ

(١) المراد بالواجب السلبي عدم العمل . وبالواجب الإيجابي العمل ، ولا
شك أن عدم العمل . أخف من العمل . إذ هو ترك محض لا عناء فيه

يُحَرِّمُ عَلَيْنَا أَنْ نَأْتِيَ عَمَلًا مُعَيَّنًا . وَهَذَا هُوَ كُلُّ
 الْإِعْتِقَادِ الَّذِي نَنْظُرُ بِهِ إِلَى الْفِكْرَةِ : لَا تَقْتُلْ ، وَلَا
 تَسْرِقْ ، وَلَا تَكْذِبْ ، وَلَا تَحْلِفْ ، وَلَا تَزْنِ ...
 هَذِهِ هِيَ الْوَصَايَا وَالْتَّعَالِيمُ ، وَهِيَ بِلَا شَكٍّ سَهْلَةٌ
 وَبَسِيطَةٌ ، وَلَا مَشَقَّةَ فِي وَعْيِهَا ، وَتَذَكُّرِهَا وَمَعْرِفَتِهَا ،
 وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَا هِيَ وَمَا مُوَدَّاهَا ؟ ؟ إِنْ هِيَ
 إِلَّا الشُّرُوطُ الْأَوَّلِيَّةُ الْإِبْتِدَائِيَّةُ لِمَعْنَى الطَّبِيعَةِ ،
 أَوْ الْخَيْرِ ، أَوْ الْفَضِيلَةِ ، وَأَنْ إِطَاعَتَنَا لَيْسَتْ سِوَى
 جُزْءٍ يَسِيرٍ مِمَّا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنَّا ، وَمُتَعَيَّنٌ عَلَيْنَا .
 بَلْ إِنْ هِيَ إِلَّا الْأَسَاسُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ نَبْنِيَ عَلَيْهِ
 الْخُلُقَ الرَّفِيعَ ، وَلِنُشِيدَ فَوْقَهُ صَرْحَ الشَّخْصِيَّةِ السَّامِيَةِ
 غَيْرِ الْمَأْلُوفَةِ ، وَالْفَذَّةِ الْعَالِيَةِ . وَإِنَّ الْمُضَى فِي

مَنَّا كِبِ^(١) هَذِهِ الْحَيَاةَ ، ثُمَّ الْإِحْتِجَاجَ فِي النَّهَايَةِ بِأَنَّنَا
 لَمْ نُخَالَفْ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْوَصَايَا ، وَلَمْ نَنْحَرْفْ^(٢)
 عَنْ تِلْكَ التَّعَالِيمِ . هُوَ كَمَثَلِ الْخَادِمِ الْبَلِيدِ الَّذِي
 أَبْقَى عَلَى مَقْدَرَتِهِ وَمَوَاهِبِهِ ، فَلَمْ يَسْتَنْفِذْ مِنْهَا قَلِيلًا
 وَلَا كَثِيرًا ، وَكَانَتْ نَهَايَتُهُ أَنْ طُرِدَ مِنَ الْخِدْمَةِ ،
 وَنُبَذَ بِالْعَرَاءِ^(٣) وَهُوَ ذَمِيمٌ ، لِتَفَاهُتِهِ وَقِلَّةِ فَائِدَتِهِ .

لِنَفْرَضْ أَنَّنَا قَدْ أَطَعْنَا تِلْكَ الْوَصَايَا وَالتَّعَالِيمَ ،
 فَمَاذَا بَعْدَ ذَلِكَ ؟ إِنَّهُ لَيَقْتَضِي مِنَّا جُزْءًا مِنْ حَيَاتِنَا
 وَوَقْتِنَا ، جُزْءًا يَسِيرًا نَكَا فُحْ فِيهِ الْمُغْرِيَّاتِ^(٤) الَّتِي
 تُوسَّوسُ فِي صُدُورِنَا ، وَتُرِيدُنَا عَلَى أَنْ نُخَالَفَهَا ،
 وَنَتَمَرَّدَ عَلَيْهَا ، وَنَنْحَرْفَ عَنْهَا ، فَمَاذَا نَحْنُ صَانِعُونَ

(١) منَّا كِبِ الحياة : نواحيها وطرقها العالية (٢) لم ننحرف : لم نخل

(٣) العراء : الخلاء (٤) المغريات : جمع مغرية : وهى الشهوات النفسية

بَبَقِيَّةِ الْحَيَاةِ ؟ وَالزَّمَنِ الَّذِي يَنْفَسِحُ أَمَامَنَا ؟ بَلْ
لِنَفْرِضْ أَنَّ هَذِهِ التَّعَالِيمَ ، قَدْ بَثَّتْ فِي نُفُوسِنَا حُبَّ
اللَّهِ وَحُبَّ جَارِنَا .

وَإِنْ كَانَ هَذَا فَرَضًا مُتَقَدِّمًا خُطَوَاتٍ فِي مُرَادِ
هَذِهِ التَّعَالِيمِ وَمَرَمَاهَا ، وَلِنَفْرِضْ أَنَّنَا قَدْ عَرَفْنَا
أَنَّ وَاجِبَنَا يَقْضِي بِأَنْ نُحِبَّ جَارِنَا كَحُبِّنَا لِنَفْسِنَا ،
فَمَاذَا نَصْنَعُ إِذَا لِحَارِنَا بِجَانِبِ الْإِمْتِنَاعِ عَنْ إِيْدَائِهِ ،
وَالْتَّحَامِي^(١) عَنِ الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ ؟

لَقَدْ كَانَ الْأَوَّلِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ وَالْقِدِّيسُونَ ،
يَعْرِفُونَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ مَاذَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا ،
وَمَاذَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا ؟ وَلَكِنِّي أَحْسَبُ

(١) التَّحَامِي : التَّبَاعِدُ

وَاجِبَاتِنَا نَحْنُ تَتَجَّهْ اتِّجَاهًا مُخَالَفًا لِاتِّجَاهِهِمْ ، وَيَلُوحُ
لِي أَنَّنَا لَمْ نَهْتَدِ إِلَى تِلْكَ الْوَاجِبَاتِ بَعْدُ ، وَلَمْ
نَصِلْ إِلَيْهَا .



يَقُولُ الْأَسْقَفُ بَاتْلَرُ : إِنَّ عَلَيْنَا وَاجِبَاتٍ إِجْبَائِيَّةً
لِجَارِنَا ، مُحْتَمَّةً كُلَّ التَّحْتَمِ ، بِحَيْثُ لَوْ صَرَفْنَا مِنْ
وَقْتِنَا ، وَاهْتِمَامِنَا بَأَنْفُسِنَا ، وَعِنَايَتِنَا بِشُؤُونِنَا . أَكْثَرَ مِمَّا
هُوَ ضَرُورِيٌّ ، وَحَقٌّ وَعَدْلٌ ، لَكُنَّا بِذَلِكَ قَدْ جُرْنَا
عَلَى مَا لَيْسَ لَنَا ، وَأَخَذْنَا مَا لَا حَقَّ لَنَا فِيهِ ، وَلَكُنَّا
آثِمِينَ مُخَادِعِينَ مُزَوَّرِينَ . فَمَازَا يَعْنِي الْأَسْقَفُ
« بَاتْلَرُ » بِهَذَا وَمَازَا يَقْصِدُ بِهِ ؟ ؟ إِنَّ الْجَوَابَ
الْعُمُومِيَّ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ هَيِّنٌ مَيْسُورٌ ، وَلَكِنَّهُ

رأى
باتلر

مِنْ حَيْثُ الدَّقَائِقُ وَالتَّخْصِيصُ وَالتَّفْصِيلُ ، لَيْسَ صَعْبًا
خَسْبٌ ، بَلْ هُوَ مُسْتَحِيلٌ إِطْلَاقًا .



وَهَا هِيَ فَلَسَفَةُ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ تَقُولُ : « لَا تَدْخُلُوا
فِيمَا لَا يَعْنِيكُمْ ، وَدَعُوا غَيْرَكُمْ يُعْنَوْنَ ^(١) بِأُمُورِهِمْ »
وَكُلُّ مَنْ يَتَطَلَّعُ مِنَ النَّاسِ إِلَى أَكْثَرِ مَنْ مُجَرَّدِ
الْوَاجِبِ السَّلْبِيِّ ، وَهُوَ الْإِمْتِنَاعُ عَنْ إِيْتْيَانِ الشُّوءِ ،
يَجِدُ نَفْسَهُ خَلِيًّا مِنَ الْهَادِي وَالْمُرْشِدِ وَالذَّلِيلِ . فَلَا
يُصِيبُ عَوْنًا مِنْ أَحَدٍ ، وَلَا يَظْفَرُ بِهِدَايَةٍ ، وَلَا
يُمَثِّلُ ^(٢) عَلِيًّا ، وَمَبَادِيءَ حَدِيثَةٍ تَكُونُ لَهُ ، مَا كَانَ

فلسفة
العصر
الحديث

(١) يعنوا : يهتموا . يقال عنى بالأمر على البناء للمجهول إذا اعتنى به واهتم

(٢) المثل : جمع مثل ، والعليا : جمع أعلى ، والمثل الأعلى : هو كمال

في غرض ما . يجعل نصب العين . ويعمل الانسان للوصول إليه

الْأَبْطَالُ قَدِيمًا لِلشَّبَابِ فِي عُهُودِ الْإِغْرِيقِ وَالرُّومَانِ^(١).
وَمَا كَانَ الشَّهْدَاءُ لِلْمَسِيحِيِّ الْعَادِيِّ فِي الْقُرُونِ
الْوُسْطَى . بَلْ لَنْ يَجِدَ أَثْرًا ، وَلَا مَوَاقِعَ أَقْدَامِ
فِي الطَّرِيقِ الَّذِي يَسِيرُ فِيهِ ، وَالنَّجْدِ الَّذِي يَقْطَعُهُ ،
وَأِنَّمَا يَجِدُ الْمُرْتَقَى^(٢) الْوَعْرَ الَّذِي يَتَسَلَّقُهُ ،
وَيَحَاوِلُ تَسْنِمَهُ^(٣) وَصُعُودَهُ ، كَمَا جَاءَ فِي الْأَقَاصِيصِ ،
وَالْأَسَاطِيرِ^(٤) ، مَفْرُوشًا بِالصُّخُورِ وَالْجَلَامِيدِ ، وَهِيَ
تَسْخَرُ مِنْهُ ، وَتَهْزَأُ بِهِ ، وَتَصَايْحُ مِنْ حَوْلِهِ بِالْوُفِ
الْأَصْوَاتِ ، عَابِثَةً مُزْدَرِيَةً مُتَهَانَةً^(٥) ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ

(١) أى أن الأبطال والفرسان في عهود الأغريق والرومان القديمة كانت المثل العليا لشباب ذلك الزمان (٢) المرتقى الوعر: كناية عن الصعاب والشدائد التي تصادف (٣) تسم الشيء: ارتقاها (٤) أقاصيص: جمع أقصوصة وأساطير جمع أسطورة ويراد بها الخرافات القديمة « ميثولوجيا » (٥) متهانة: متلعبة .

لَيْسَ لَدَيْنَا أَقْسَىٰ أَخْلَاقِيَّةٌ ، وَلَا أَفْكَارٌ مُّعَيَّنَةٌ ،
وَلَا آرَاءٌ وَاضِحَةٌ عَنِ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَكَرَائِمِ
الْخُلُقِ ، وَهَذَا هُوَ بِلَا شَكٍّ السَّبَبُ فِي إِخْفَاقِ^(١)
التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ لَدَيْنَا ، لِأَنَّ التَّرْبِيَةَ الْوَحِيدَةَ الْخَلِيقَةَ
بِالْعِنَايَةِ ، هِيَ تَرْبِيَةُ الْخُلُقِ ، وَتَكْوِينُ الشَّخْصِيَّةِ ،
وَلَيْسَ فِي وَسْعِنَا أَنْ نُرَبِّي خُلُقًا ، مَا لَمْ تَكُنْ لَدَيْنَا
فِكْرَةٌ مُّعَيَّنَةٌ عَمَّا نُرِيدُ أَنْ يَكُونَ ، وَفِي أَيِّ قَلْبٍ
يَجِبُ أَنْ نُفَرِّغَهُ ، وَأَيَّةِ صُورَةٍ يَنْبَغِي أَنْ نَسْبِكَهَا
وَنَصُوعَهَا ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الشَّبَابَ سَرِيعُو الْإِنْقِيَادِ ،
وَلَكِنَّهُمْ بَطَاءُ الدَّفْعِ ، أَوْ مِنَ الصَّعْبِ اسْتِيقَاقُهُمْ
إِلَى مَا لَا يُحِبُّونَ ، وَمِنَ الْحِكْمَةِ الْمَأْلُوفَةِ الْمَعْرُوفَةِ ،

أَنَّ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَ ، وَهَذَا هُوَ
 نَاحِيَةُ التَّنَاقُضِ وَالْغَرَابَةِ فِي طِبَائِعِنَا الْبَشَرِيَّةِ ، وَلَكِنْ
 ضَعَّ أَمَامَ الْغُلَامِ الصَّغِيرِ صُورَةَ رَجُلٍ كَرِيمٍ الْخُلُقِ ،
 وَدَعَّ الظُّرُوفَ الَّتِي أَعَانَتْهُ عَلَى اكْتِسَابِ صِفَةِ كَرَمِ
 الْخُلُقِ ، تَظَهَّرَ وَتَجَلَّى بِحَيْثُ يَحْسُ^(١) الْغُلَامُ أَنَّهَا
 تُشَبِّهُ الظُّرُوفَ الَّتِي حَوْلَهُ ، وَتُحِيطُ بِهِ ، وَدَعَّ الصَّبِيَّ
 يَرَى هَذَا الرَّجُلَ مُتَغَلِّبًا عَلَى وَسَاوِسِ نَفْسِهِ ، مُنْتَصِرًا
 فِي الْحَيَاةِ ، فَوَازًا فِي مَيَادِينِهَا غَلَابًا ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفَعَّلَ
 تُشْعِلَ بِلَا أَدْنَى شَكٍّ فِي فُؤَادِهِ ، جَذْوَةً مُسْتَعِرَّةً ،
 لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُشْعَلَ مِثْلَهَا فِي حَنَائِيَا عَاطِفَةٍ وَغِيهِ
 بِعِقَابٍ ، أَوْ مَخَافَةٍ مِنْ قِصَاصٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، أَوْ
 فِي سِوَاهُ .



الأولياء والقديسون
لَقَدْ رَأَيْنَا النَّاسَ يَشْكُونَ مِنْ وُجُودِ التَّشَابُهِ
وَالْتَّمَاثِلِ فِي حَيَاةِ الْأَوْلِيَاءِ وَتَرَاجِمِ الْقَدِيسِينَ وَسِيرِ
الصَّالِحِينَ ، مَعَ أَنَّ هَذَا التَّمَاثِلَ هُوَ سِرٌّ صَلَاحُهُمْ ،
وَعِلَّةُ طَيِّبَتِهِمْ ، وَمُؤَمِّ نَفُوسِهِمْ ، وَفَائِقِ فَضْلِهِمْ ، بَلْ
هَذَا التَّشَابُهِ مَلْحُوظٌ كَذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَبْطَالِ
الْإِلْيَادَةِ ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ بَارِزٌ وَاضِحٌ فِي أَبْطَالِ
تَارِيخِ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ ، وَالرَّجُلُ يَكُونُ عَظِيماً عَلَى
مَبْلَغِ مُحَارَبَتِهِ لِظُرُوفِ زَمَانِهِ ، وَالَّذِينَ يُحَارِبُونَ هَذِهِ
الظُّرُوفَ ذَاتَهَا فِي عُصُورِهِمْ وَأَزْمِنَتِهِمْ ، يَرُوحُونَ
بِطَبِيعَةِ الْحَالِ أَشْبَاهًا ، وَيُظْهِرُونَ مُتَمَاثِلِينَ ، وَكَذَلِكَ
هِيَ الْحَالُ فِي عَصْرِنَا نَحْنُ وَجِيلِنَا ، إِذْ لَوْ تَوَاتَى لَنَا

حَقًّا أَنْ تُكْتَبَ تَرَاجِمُ أَخْيَارِنَا وَأَفَاضِلُنَا ، وَيُحْسِنَ
 الَّذِينَ يَتَصَدَّقُونَ لِكِتَابَتِهَا وَوَضْعِهَا وَتَنْسِيقِهَا ،
 وَيَحْذِقُونَ وَصْفَهَا وَإِعْدَادَهَا ، وَيَكُونُ هَوًى لَاءِ
 الْمُتَصَدِّقُونَ كُتَّابًا بَرَعَةً ، أَقْوِيَاءِ الْمُلَاحَظَةِ ، يَعْرِفُونَ
 مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْرُزَ مِنَ الصِّفَاتِ وَمَاذَا يَنْبَغِي أَنْ
 يَقْفُوا عِنْدَهُ مَلِيًّا مِنَ الْمَزَايَا وَالسَّجَايَا ، وَالْأَدْوَارِ
 وَالْمَرَاكِحِ وَالْحَلَقَاتِ ؟ — لَوْ تَوَاتَى لَنَا هَذَا أَوْ نَحْوُهُ ،
 لَبَدَأَ أَخْيَارُنَا وَأَفَاضِلُنَا كَذَلِكَ مُتَشَابِهِينَ مُمَآثِلِينَ ،
 وَكَانَ تَقَعُّمُهُمْ عَلَى هَذَا النَّحْوِ عَظِيمًا لَا حَدَّ لَهُ ، وَلَكِنَّهُمْ
 مَعَ ذَلِكَ لَا يُشَبِّهُونَ الْمُثَلَ الْقَدِيمَةَ ، وَالصُّورَ الْمَاضِيَةَ
 لِلْعِظَمَةِ وَالتَّبُوغِ ، فَقَدْ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ وَتَبَدَّلَتِ
 الظُّرُوفُ ، وَحَالَتِ الْأَحْوَالُ ، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الزَّمَنِ

الْمَاضِي مَا كَانُوا ، وَنَحْنُ غَيْرُهُمْ ، وَجِيلُنَا غَيْرُ أَجْيَالِهِمْ ،
 وَخُصُومُنَا خِلَافُ خُصُومِهِمْ ، وَأَعْدَاؤُنَا لَيْسُوا كَمَثَلِ
 أَعْدَائِهِمْ ، وَكُلُّ تَغْيِيرٍ فِي الْعَصْرِ يَنْطَوِي عَلَى تَطَوُّرٍ
 فِي الْخُلُقِ ، وَتَحَوُّلٍ فِي أَقْسِةِ الْآدَابِ . وَالْأَرْجَحُ أَلَّا
 تَبْقَى كَذَلِكَ الْمَعَالِمُ وَالْأَشْكَالُ ، وَالصِّغُ وَالْأَسَالِبُ
 وَاحِدَةً . وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَوْكَدِ وَالثَّابِتِ وَالْيَقِينِ ،
 أَنَّ هَذَا لَا يَعْنَى ، أَنَّ مَا مَطْلُوبٌ مِنَّا ، قَدْ أَصْبَحَ
 أَقَلَّ مِمَّا كَانَ مَطْلُوبًا مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُ أَكْثَرُ ، كَمَا
 لَا يَفْتَأُ الْوُعَاظُ يَقُولُونَ لَنَا مِنْ فَوْقِ ذُوَابَةٍ^(١) الْمَتَابِرِ
 فِي عِظَاتِ أَيَّامِ الْآحَادِ ، لَوْ أَنَّهُمْ فَقَطُ اسْتَطَاعُوا أَنْ
 يُجَدِّثُونَا مَا مَعْنَى « أَكْثَرُ » هَذِهِ وَخُدُودِهَا وَمِنْ أَيْ

(١) ذُوَابَةٌ كُلُّ شَيْءٍ : أَعْلَاهُ .

شَيْءٌ تَتَأَلَّفُ ، وَفِيمَ تَنْطَوِي عَلَيْهِ ؟ وَإِنَّمَا أَسْمَى
 مَا يَبْلُغُ الْوَعْظُ ، وَيَصِلُ إِلَيْهِ التَّعْلِيمُ وَالْإِرْشَادُ ،
 هُوَ قَوْلُهُمْ : إِنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعْمَلَ بِرُوحِ الْحُبِّ ،
 وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَزَالُ قَوْلًا مُنْحَصِرًا فِي الْعُمُومِيَّاتِ ،
 عَلَى حِينٍ يَقْتَضِي الْعَمَلُ التَّقْسِيمَ وَالْإِفْرَادَ ، وَالتَّفْصِيلَ
 وَالْإِسْنَهَابَ وَالْبَيَانَ ، بَلْ إِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ : كَمَا لَوْ قَالَتْ
 الْكَنِيسَةُ لِلرَّسَّامِ أَوْ الْمَوْسِيقِيِّ الَّذِي تَتَوَلَّى تَعْلِيمَهُ
 وَتَدْرِيهِهُ ، يَجِبُ أَنْ نَعْمَلَ بِرُوحِ الْحُبِّ وَرُوحِ الْحَقِّ ،
 ثُمَّ تُرَدِّفُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلَهَا ، إِنَّ النَّقْشَ الْكَاثُولِيكِيَّ
 أَوْ الْمَوْسِيقِيَّ الْكَاثُولِيكِيَّةَ ، هِيَ مَا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ
 يُقَلَّدَ ، وَمَا لَا يَصِحُّ لَهُ أَنْ يُحْتَذَى ، فَمَاذَا يَكُونُ
 الْحَالُ إِذَا هِيَ أَخْرَجَتْهُ بَعْدَ هَذَا إِلَى الْعَالَمِ مُجَهَّزًا

مُدْرَبًا كُلَّ التَّدْرِيبِ لِفَنِّ هَذَا وَصِنَاعَتِهِ ؟ ؟

نَعَمْ مَاذَا يَكُونُ الْحَالُ ، وَمَاذَا تَكُونُ النَّتِيجَةُ ؟ ؟
 وَهِيَ النَّظَرِيَّةُ الْإِيمَرَسُونِيَّةُ ، قَدْ ظَهَرَتْ لَنَا
 كَمَا ظَهَرَ غَيْرُهَا مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الْحَدِيثَةِ ، وَمِنْ قِصَصِ
 إِينْزُورْتِ وَرِوَايَاتِ بَالْوَارَلِيْتُونِ وَمِمَّاتِ وَالْوَفِّ مِنْ
 النَّزَعَاتِ غَيْرِ النَّظِيفَةِ ، وَالْأَرْوَاحِ غَيْرِ الطَّاهِرَةِ ،
 وَالْإِتِّجَاهَاتِ الضَّالَّةِ الْمُغْرِيَةِ ، وَلَقَدْ أَخْرَجْنَا الشَّيْطَانَ
 الْكَاثُولِيكِيَّ مِنَ الْبَيْتِ ، وَجَاءَ الْمَذْهَبُ الْبُيُورِيْتَانِيُّ
 فَكَنَسَ الْبَيْتَ بَعْدَ خُرُوجِهِ ، وَلَنَظَّفَهُ وَطَلَّاهُ بِالْذَّهَانِ
 وَالطَّلَاءِ ، وَلَكِنَّا بَعْدَ كُلِّ هَذَا لَمْ نَشْهَدْ إِلَى
 الْآنَ بَوَادِرَ تَدُلُّ عَلَى قُرْبِ قُدُومِ سَاكِنِ نَظِيفٍ ،

بَلْ قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ سُكَّانٌ هُمْ شَرٌّ مِنَ الْكَاثُولِيكِيَّةِ
وَأَسْوَأُ وَأَبْلَغُ خُسْرًا !

✱ ✱

تراجم
العصر
الحديث

وَلَوْ أَرَدْنَا بُرْهَانًا عَلَى مَبْلَغِ مَا هَوَيْنَا إِلَيْهِ مِنْ
الْفَوْضَى النَّفْسِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ ، وَمَا عَرَانَا مِنَ الانْحِلَالِ
الرَّوْحِيِّ التَّامِّ لَكَانَ كَافِيًا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى خُلُوءِ أَدْبِنَا
مِنَ التَّرَاجِمِ ، وَسِيرِ النَّوَائِغِ ، وَقِصَصِ حَيَاةِ الْعُظَمَاءِ .
وَلَسْنَا نَعْنِي بِهَذَا أَنْ لَيْسَ لَدَيْنَا تَرَاجِمٌ مَكْتُوبَةٌ
لِبَنِي عَصْرِنَا ، فَإِنَّ لَدَيْنَا فِي الْوَاقِعِ مِنْ ذَلِكَ
الْكِفَايَةَ وَالْكَثِيرَ ، بَلْ فَوْقَ الْكِفَايَةِ وَالْكَثِيرِ ،
وَلَكِنْ^(١) الَّذِي نَعْنِيهِ أَنْ لَيْسَ فِي هَذِهِ التَّرَاجِمِ

(١) يريد أن تراجم المعاصرين على كثرتها ووفرتها خلو من الكمال
الخالق الذي يحال إليه الشباب ليتسموه ويحتذوه ويخلقوا بما فيه .

جَمِيعًا ، وَاحِدَةٌ يُمَكِّنُ أَنْ نَتَبَيَّنَ خِلَالَهَا نُرُوعًا نَحْوَ
 الْكَمَالِ فِي مُعَاصِرِنَا ، أَوْ نَشْهَدَ فِيهَا السُّمُوَّ الْخُلُقِيِّ
 وَالرَّفْعَةَ النَّفْسِيَّةَ فِي ضِيَائِهَا السَّاطِعِ ، وَقَالَ بِهَا الْحَقِيقِيُّ ،
 وَمَنْزِعِهَا الصَّحِيحِ ، إِي وَاللَّهِ لَيْسَ فِي هَذِهِ التَّرَاجِمِ
 الْعَدِيدَةِ كُلِّهَا مَا يَصِحُّ أَنْ نَضَعَهُ فِي يَدِ شَبَابِنَا ،
 وَنَحْنُ بِلِئْلِ الثَّقَةِ قَائِلُونَ لَهُمْ : خُذُوا هَذَا فَاقْرَءُوهُ ،
 فَإِنَّ فِيهِ حَيَاةَ رَجُلٍ بِمَعْنَى الْكَلِمَةِ ، رَجُلٍ نُرِيدُ
 أَنْ تَجْعَلُوا حَيَاتِكُمْ عَلَى غِرَارِهِ ^(١) ، وَتَسْلُكُوا فِي
 هَذِهِ الدُّنْيَا مَسَالِكَهُ ، هَلُمُّوا اقْرَءُوا الْكِتَابَ
 وَفَكِّرُوا مَلِيًّا ^(٢) فِيهِ ، وَتَأَمَّلُوا كَيْفَ كَانَ الرَّجُلُ ، وَكَيْفَ

(١) على غراره : على نمطه وصورته (٢) مليا : طويلا

أَنشَأَ نَفْسَهُ إِنشَاءً ، وَأَقَامَ عِصَامِيَّتَهُ^(١) خَيْرَ مَقَامٍ ،
 وَاجْتَهَدُوا أَنْ تَكُونُوا مِنْ أَمْثَالِهِ إِنْ كُنْتُمْ قَادِرِينَ ؟؟
 وَلَكِنْ هَذَا هُوَ مَا اسْتَطَاعَ الدِّينُ أَنْ يَقُومَ
 بِهِ ، فَقَدْ وَضَعَ قَالِبَهُ الْخَاصَّ لِلْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ وَأَقَامَ
 الْمِثَالَ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ هَذَا الْمِثَالَ يَتَعَدَّدُ بَيْنَ أُمَّتِهِ ،
 وَيُنْشِئُ قَوَالِبَ وَنَمَازِجَ مِنْ غِرَارِهِ ، عَلَى مَرِّ الزَّمَنِ
 وَتَعَاقُبِ الْأَجْيَالِ ، وَهُوَ مِثَالٌ مِنَ الْخُلُقِ الْكَامِلِ
 لَا يَنْتَسِبُ إِلَى صِنَاعَةٍ بِذَاتِهَا ، وَلَا هُوَ مَقْصُورٌ عَلَى
 حِرْفَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، بَلْ مِثَالٌ يَتَسَاوَى فِي التَّطَلُّعِ إِلَيْهِ

(١) العصامي : الذي يخلق لنفسه المجد خلقا. نسبة إلى عصام وهو رجل
 في الجاهلية. بلغ الرفعة بنفسه حتى صار من خواص النعمان بن المنذر وفيه يقول
 الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والاقداما
 وسيرته سييدا هما

ويقابل العصامي العظامي : وهو من يفخر بآبائه وأجداده

الْعَالَمُ ، وَالْجَاهِلُ ، وَالْخَضِرِيُّ ، وَالْبَدَوِيُّ ،
وَالْمَلِكُ وَالشُّوقِيُّ عَلَى السَّوَاءِ . وَقَدْ تَطَلَّعْتُ إِلَيْهِ
أَشْكَالَ مُنَوَّعَةٍ مِنَ الْخَلْقِ ، وَعَمِلَ عَلَى بُلُوغِهِ رِجَالٌ
مِنْ كُلِّ طَائِفَةٍ وَفِرْقَةٍ ، وَطَبَقَةٍ وَصِنْفٍ ، حَتَّى
أَذْرَكُوا مُسْتَوَاهُ ، وَبَلَغُوا حُدُودَهُ ، وَأَوْفَوْا عَلَى غَايَتِهِ ،
فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الدِّينِ إِلَّا أَنْ اخْتَضَنَهُمْ ، وَرَفَعَهُمْ أَمَامَ
عَيْنِ الْعَالَمِ وَازْدَهَى بِهِمْ ، وَنَصَبَهُمْ ^(١) عَنَّاوِينَ ^(٢) نَصْرِهِ
عَلَى الشَّيْطَانِ ، وَفَوَّزَهُ الْبَاهِرِ عَلَى الْكُفْرِ وَالزَّيْغِ ^(٣) ،
وَالْتَجَرَّدِ مِنَ الْإِيمَانِ .

✱
✱ ✱

وَلَمْ نَسْتَطِعْ نَحْنُ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ أَوْ نَقُومَ بِبَعْضِهِ

التربية
والتعليم

(١) نصبهم : رفعهم ظاهرين (٢) عناوين : أدلة والمراد أن الدين
أظهرهم أمام الأعين أمثلة بارزة يراها كل راء (٣) الزيغ : الضلال

وَلَنْ يُتَاحَ^(١) لِلتَّعْلِيمِ وَلَا لِلتَّرْبِيَةِ أَنْ يُصِيبَا نَصِيبًا
 مِنَ النَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ ، مَا لَمْ نَصِلْ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا
 الَّذِي عَجَزْنَا إِلَى الْآنَ عَنْهُ ، فَإِنَّ الْكَمَالَ الْخُلُقِيَّ
 لَيْسَ هَيِّنًا ، وَلَا بُلُوغُهُ بِسَهْلٍ مَيْسُورٍ ، وَلَكِنَّهُ أَشَقُّ
 شَيْءٍ طَلَبًا ، وَأَصْعَبُ شَيْءٍ تَحْقِيقًا ، وَلَيْسَ يَكْفِي أَنْ
 نَضَعَ قَوَاعِدَ لِلْحَيَاةِ وَنُسَنِّ تَعَالِيمَ ، بَلْ لَوْ أَنَّ تَحْلِيلَنَا
 لِلْحَيَاةِ فِي كُلِّ أَشْكَالِهَا الْمُمَكِّنَةِ كَانَ تَامًّا ، وَهُوَ إِلَى
 الْيَوْمِ بِالْعَكْسِ ، لَا يَزَالُ ابْتِدَائِيًّا لِلْغَايَةِ ، لَمَا كَانَ
 ذَلِكَ كَافِيًا مَعَ هَذَا وَلَا مُعْنِيًا . وَقَدْ يَفْهَمُ الْإِنْسَانُ
 فَلَسَفَةَ شَيْءٍ مَا ، وَنَظَرِيَّاتِهِ وَتَعَالِيمَهُ ، وَمَا يُقَالُ فِيهِ ،
 وَلَكِنْ فَهْمَهَا لَا يُذَلِّلُ تَنْفِيدَهَا ، وَتَطْيِيقَهَا كُلَّ

(١) يتاح : يتها .

التَّذْلِيلِ ، وَفِي الْحَيَاةِ كَمَا فِي الْفُنُونِ وَكَمَا فِي الْعُلُومِ
الرِّيَاضِيَّةِ ، لَيْسَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعْلِيمِ مَا هُوَ أَكْثَرُ
إِجْدَاءً ، وَلَا أَصْلَحُ وَلَا أَقْوَمُ سَبِيلًا مِنَ التَّعْلِيمِ بِالْمَثَلِ
وَالْقُدْوَةِ وَالشَّبَهِ وَالْأُسْوَةِ ، وَقَدْ يَسْتَطِيعُ الْعَالِمُ
الرِّيَاضِيُّ أَنْ يُحَاضِرَكَ أَبْرَعُ^(١) الْمُحَاضِرَةِ فِي مَوْضُوعِ
الْقَاطِرَاتِ الْبُخَارِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ أَعْجَزُ مَا يَكُونُ
عَنْ صُنْعِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا ، بَلْ هُوَ الْعَاجِزُ عَنْ أَنْ يَصْنَعَ
وَلَوْ مِسْمَارًا فِيهَا ، يَنْمَا نَرَى الْعَامِلَ فِي غُرْفَةِ آلَاتِ
لَا يُعَلِّمُ صَبِيَّهُ نَظْرِيَّةَ التَّمَدُّدِ ، وَلَا يُلَقِّنُهُ نَظْرِيَّةَ
الضَّغْطِ الْجَوِيِّ ، وَإِنَّمَا كُلُّ مَا يُعَلِّمُهُ : هُوَ تَدْرِيبُ
يَدِهِ عَلَى الْمُحَرِّكِ ، وَعَيْنِهِ عَلَى تَتَبُّعِ مِيزَانِ الْحَرَارَةِ ،

(١) أبرع المحاضرة : أظهرها وأقواها

وَيَدْعُ الْعِلْمَ يَا تِي بَعْدَ التَّمَرِّينِ ، وَالتَّوَسُّعِ فِي النَّظَرِيَّاتِ
يَتَلَوُّ التَّدْرِبَ الْمِيكَانِيكِيَّ لِمَنْ شَاءَ .

وَكَذَلِكَ هُوَ الْحَالُ فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّمُهُ الْمَرْءُ وَيُلَقِّنُ
عَمَلَهُ ، وَلَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ وَهِيَ فَنُ الْفُنُونِ ،
وَصِنَاعَةُ الصَّنَاعَاتِ ، لِأَنَّهَا فَوْقَ كُلِّ فَنٍّ ، وَأَدَقُّ مِنْ
كُلِّ صِنَاعَةٍ ، وَلَا نَزَالُ تَقْنَعُ فِي تَرْبِيَةِ أَطْفَالِنَا
وَتَعْلِيمِهِمْ بِمَجَرَّدِ تَلْقِينِ الْأَوَامِرِ ، وَالنَّوَاهِي ، وَالْوَصَايَا ،
وَالتَّعَالِيمِ ، وَنَحْنُ نَعْظُمُهُمْ فِي فَضْلِ الْخَيْرِ ، وَخَيْرِ
الْفَضِيلَةِ ، وَقُبْحِ الشَّرِّ ، وَضَرَرِ الشُّوءِ ، فَإِذَا مَا تَرَقَّيْنَا
بِهِمْ فِي مَدَارِجِ التَّعْلِيمِ ، لَقَنَّاهُمْ نَظَرِيَّةً ^(١) الْعَادَةِ

(١) نظرية العادة وحرية الارادة : من نظريات علم الأخلاق يشرحها
ويعين كيف تثبت العادة ، حتى تصير خلقا غريزيا أو كالغريزي ، وكيف يتخلص
منها إن كانت ضارة ، ويعين الوسائل الفعالة في كلتا الحالتين .

وَحُرِّيَّةَ الْإِرَادَةِ ، فَإِذَا مَا أَدْرَكْنَا الْخُبْيَةَ تَلَوُ
 الْخُبْيَةَ ، وَالْإِخْفَاقَ إِثْرَ الْإِخْفَاقِ ، رُحْنَا نَعْرِى أَنْفُسَنَا
 بِإِقْنَاعِهَا أَنَّ الذَّنْبَ لَمْ يَكُنْ ذَنْبَنَا ، وَأَنَّنَا قَدْ فَعَلْنَا
 كُلَّ مَا كَانَ مُمَكِّنًا أَنْ يَفْعَلَهُ النَّاسُ . فَيَا لِلْسُّخْرِيَةِ ^(١) !
 وَيَا لِلْعَبَثِ ! وَوَا فَرَحْنَا بِنَظَرِيَّةِ حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ !
 كَأَنَّمَا فِي وَسْعِ الْحَدَادِ أَنْ يُعَلِّمَ صَبِيَّهُ كَيْفَ يَصْنَعُ
 حُدُودَ حِصَانٍ بِمَجَرَّدِ قَوْلِهِ لَهُ : إِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَهَا
 إِذَا هُوَ شَاءَ !



إِنَّمَا نَحْنُ فِي سَفَرِنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَشْبَهُ شَيْءٍ
 بِغُرَبَاءَ مَضُوءٍ يَلْتَمِسُونَ طَرِيقَهُمْ ، وَسَطَ أَرْضٍ مَتَاهَةٍ

كشافة
الفضيلة

(١) تركيب يراد به التعجب مع الألم فيا للتنبيه لا للاستغاثه . والسخرية :
 الاستهزاء . والعبث : اللهو واللعب . كأنه يرى أن النظريات مجردة عن
 العمل ، لا قيمة لها ولا ارتباط بينها

وَفَضَاءٍ وَغَرٍ مُشْتَبِكِ الدُّرُوبِ ^(١) مُتَنَادِحٍ ^(٢) الْمَسَالِكِ
وَالشَّعَابِ ^(٣) . فَلَيْسَ يَكْفِينَا أَنْ نَعْرِفَ أَنْ غَيْرَنَا ذَهَبُوا
فِي هَذَا السَّفَرِ كَمَا نَحْنُ ذَاهِبُونَ ، وَأَنْ سِوَانَا وَاجَهُوا
الصَّعَابَ فِي طَرِيقِهِمْ ، فَتَغَلَّبُوا عَلَيْهَا وَبَلَغُوا آخِرَ الْمَسِيرِ
الْغَايَةَ ، وَأَوْفَوْا عَلَى نِهَايَةِ الرِّحْلَةِ . لَيْسَ يَكْفِينَا أَنْ
نَعْرِفَ هَذَا ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَا يُشَجِّعُنَا ، وَيَنْفِخُ فِي
أَرْوَاحِنَا ، وَيَحْفِزُنَا ^(٤) إِلَى الْمَسِيرِ . وَلَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ ،
لَيْسَ سِوَى تَعْلِيمِنَا أَنَّ الْمَصَاعِبَ وَالْمَشَاقَّ لَيْسَتْ
عَصِيَّةً عَلَى الْمُقْتَحِمِ ^(٥) ، وَلَا مُسْتَحِيلَةً عَلَى مَنْ يَبْغِي
عَلَيْهَا تَغَلُّبًا . وَلَكِنَّ اللُّغْزَ الْأَكْبَرَ ، هُوَ الْأَثَرُ ،

(١) الدروب: الطرق (٢) متناوح: متسع (٣) الشعاب: مستدق
الطرق في الجبال جمع شعب (٤) الحافز: الدافع الحثيث (٥) الذي يزعج
بنفسه في الغمرة لا يبالى .

هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي شَقَّهٗ أَوْلَئِكَ الْآخَرُونَ كَشَافَةً
الْفَضِيلَةِ ، وَطَلَّاعٌ^(١) الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ . فَإِنَّ هَذَا هُوَ
مَا نَتَلَهَّفُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ ، وَنَتَصَائِحُ نَطْلُبُ مَنْ يُعَلِّمُنَا
أَنْ هُوَ وَكَيْفَ نَهْتَدِي إِلَيْهِ ؟؟ وَلَسْنَا نُرِيدُ لَهُ وَصْفًا مِنْ
الْخَيَالِ ، كَمَا رَأَيْنَا فِي كِتَابِ الطَّرِيقِ إِلَى الْحَجِّ^(٢) ،
وَلَكِنَّا نُرِيدُ طَرِيقًا حَقِيقِيًّا ، طَرَقَهُ رِجَالٌ حَقِيقِيُّونَ ،
نُرِيدُ أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ هُنَا هَضْبَةً^(٣) صَخْرِيَّةً ، لَيْسَ عِنْدَهَا
غَيْرُ مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ، يَتَيَسَّرُ مِنْهُ التَّسَلُّقُ وَالِارْتِفَاعُ ،
وَأَنَّ هُنَاكَ وَادِيًا ، أَوْ نَهْرًا ، أَوْ مُسْتَنْقَعًا ، وَأَنَّ فِي نَاحِيَةٍ
مَعْبَرًا ، وَفِي أُخْرَى مُجْتَازًا^(٤) ، وَفِي ثَالِثَةٍ مَخَاضَةً وَسَبِيلًا ،

(١) الطَّلَّاعُ : جمع طليعة : الكتيبة تتقدم الجيش (٢) لعله يشير إلى
كتاب الرحلة الحجازية للاستاذ البتانوني (٣) الهضبة : الجبل المنبسط على
وجه الأرض (٤) مجتازا : أى طريقا

وَأَنَّ فِي الْغَابَةِ الْفَلَانِيَّةَ لُصُوصًا ، وَفِي الْأُخْرَى وَحُوشًا
وَسِبَاعًا ضَارِيَةً . وَأَنَّ السُّبُلَ تَتَشَابِكُ ثُمَّ تَتَفَرَّقُ ،
وَتَتَنَاوَحُ ثُمَّ تَتَمَيَّزُ . وَأَنَّ الْمَتَاهَةَ لَا تَلْبَثُ مَعَ
إِغْدَاذٍ^(١) الْمَسِيرِ ، وَالْحَذَرِ وَالْفِطْنَةِ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى
طَرِيقٍ وَاضِحٍ يُوفِي^(٢) عَلَى نِهَايَةِ الطَّرِيقِ .



طابع
العصر
الحاضر

إِنَّ عَصَرَ الْأَوَّلِيَاءِ الصَّالِحِينَ قَدْ مَضَى وَانْقَضَى ،
وَلَمْ يَعُدْ لَنَا مَا نَسْتَمِدُّهُ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا كُلُّ مَا يَحِبُّ
عَلَيْنَا هُوَ أَنْ نَسِيرَ بِرُوحِهِمْ ذَاتَهَا الَّتِي سَارُوا بِهَا ،
وَلَكِنْ لَيْسَ فِي طَرِيقِهِمُ الَّذِي سَارُوا فِيهِ ، وَلَا
مِنْهَا جِهَمُ الَّذِي اتَّبَعُوهُ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَجْعَلُنَا نَقُولُ
مَا قُلْنَاهُ : وَهُوَ أَنْ لَيْسَ لَدَيْنَا نَمَازِجُ لِلْعِظَمَةِ ، وَلَا

(١) أغذال السير : أسرع فيه والأغذاذ نوع من السير كالجنب والعنق

(٢) يوفى : يشرف

قَوَالِبُ الْعُظْمَاءِ ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا تَرَاجِمٌ وَلَا قَصَصٌ حَيَاةٍ ،
وَلَا سِيرٌ وَلَا تَوَارِيخٌ تُجَدِّى عَلَيْنَا خَيْرَ جَدْوَى ،
وَتَنْفَعُنَا أَصْدَقَ النَّفْعِ . بَلْ إِنَّ هَذَا الْفَقْرَ فِي نَمَازِجِ
الْعُظَمَاءِ ، وَتَرَاجِمِ الْعُظْمَاءِ هُوَ طَابِعٌ ^(١) عَصَرْنَا الْحَاضِرَ
وَأَخَصُّ خَوَاصِّهِ ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ ^(٢) جَدِيدَةٌ لَمْ يَبْدُ
مِثْلُهَا مُنْذُ فَجَّرَ التَّارِيخُ . بَلْ هُوَ بُرْهَانٌ جَدِيدٌ ،
إِنْ كُنَّا بِحَاجَةٍ إِلَى الْبَرَاهِينِ ، عَلَى أَنَّنَا مُقْبِلُونَ عَلَى
عَهْدٍ جَدِيدٍ وَعَصْرِ آخَرَ ، إِذْ نَحْنُ فِي جُهُودِنَا الْحَالِيَّةِ ،
وَمُحَاوَلَاتِنَا الْحَاضِرَةِ لِسَبِيلِ التَّعْلِيمِ أَشْبَهُ بِعَمَالٍ ، قَدْ
شَرَعُوا فِي صُنْعِ آلَةٍ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا سَوْفَ تُرَكَّبُ مِنْ
صَفَائِحَ وَالْوَاحِ وَلِحَامَاتٍ وَعَجَلَاتٍ وَمَسَامِيرَ وَقَلَاوُوظَاتٍ

(١) طابع عصرنا: أى الخاصة والعلامة التى يمتاز بها هذا العصر عن غيره

(٢) ظاهرة : سمة وعلامة

وَزَنْبِرَكَاتٍ، فَيَمَضُونَ يَهَيِّئُونَ مَسَامِيرَهُمْ وَزَنْبِرَكَاتِهِمْ،
وَيَنْعَمُونَ وَيَصْقُلُونَ أَلْوَاَحَهُمْ ، وَيُهَذَّبُونَ بِكُلِّ
تَدْقِيقٍ وَعِنَايَةٍ عَجَلَاتِهِمْ وَمُفَصَّلَاتِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ
لِجَهْلِهِمْ فَنَّ تَرْكِيبِ آلَاةٍ فِي تَفَاصِيلِهِ وَدَقَائِقِهِ ،
وَجُزْئِيَّاتِهِ وَكُلِّيَّاتِهِ ، يَرُوحُونَ يُرَكِّبُونَهَا خَبَطًا^(١)
عَشَوَاءَ ، وَيُؤَلِّفُونَ مِنْهَا عَلَى غَيْرِ هُدًى هَيْكَلًا مِنْ
أَدَاةٍ فَاسِدَةٍ ، مُخْتَلَّةِ النَّظَامِ غَيْرِ مُرْتَبِطَةِ الْأَجْزَاءِ ،
مُتَّصِلَةِ اللَّحَامَاتِ وَالرَّوَاطِطِ ، وَإِنَّمَا أَنْ يُرَكَّبُوا
الْأَدَوَاتِ الضَّرُورِيَّةَ كَوْمَةً وَاحِدَةً ، وَيَتَوَكَّلُوا عَلَى
عُضْوِيَّةٍ خَفِيَّةٍ فِي هَذِهِ الْأَدَوَاتِ ، قَدْ تَشَكَّلَهَا مِنْ
تِلْقَاءِ ذَاتِهَا ، وَتَجَعَّلُ مِنْهَا وَحْدَةً وَكُلِّيَّةً عَامِلَةً .

(١) خبط عشواء : أى من غير هداية . والعشواء : الناقة التى لا تبصر

ليلا فهى تخبط فى سيرها



تربية
الابناء

هَذَا هُوَ مَثَلُنَا فِي تَرْبِيَةِ أَوْلَادِنَا ، فَخَنُ لَا نَعْرِفُ
مَاذَا نُرِيدُ بِهِمْ ، أَوْ نُرِيدُهُ مِنْهُمْ ؟؟ فَمِنْ قَائِلٍ نَخْلُقُ مِنْهُمْ
رِجَالًا ، وَلَكِنْ لَيْتَ شَعْرِي ، أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الرِّجَالِ
نُنْشِئُ مِنْهُمْ ؟ ! لَقَدْ كَانَ الْإِغْرِيقُ رِجَالًا ، وَكَذَلِكَ
كَانَ الْيَهُودُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ الرُّومَانُ ، وَالسَّكْسُونُ
الْقُدَمَاءُ ، وَالتُّورْمَانُ ، وَالْأَسْبَانُ فِي عَهْدِ الدَّوَقِ
أَلْفًا وَالْبُورْنِيَانِ فِي عَهْدِ كُرُومُوِيلَ . . . لَقَدْ كَانَ
أُولَئِكَ جَمِيعًا رِجَالًا ، بَلْ رِجَالًا أَقْوِيَاءَ . وَلَكِنْ
كَانَ كُلُّهُمْ مُخْتَلِفًا عَنِ الْآخَرِ ، وَكَانَتْ تَرْبِيَتُهُ كَذَلِكَ
مُخْتَلِفَةً عَنِ تَرْبِيَةِ سِوَاهُ ، وَمِنْ قَائِلٍ نُنْشِئُ مِنْهُمْ
مَسِيحِيَّينَ ، وَلَكِنَّ الْقَدِيسِينَ وَالْأَوْلِيَاءَ ، كَانُوا كَذَلِكَ

رَجَالًا مَسِيحِيَّيْنَ ، وَقَدْ عُرِضَتْ عَلَى الْمُعَاصِرِينَ تَرَاجِمُ
أُولَئِكَ الْقَدِيسِينَ ، وَنُشِرَتْ عَلَى أَهْلِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ
سِيرُ حَيَاتِهِمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ أَعْرَضُوا عَنْهَا ، وَأَذْرَكُوا أَنَّهَا
لَيْسَتْ النَّمَاذِجُ الصَّالِحَةُ الْمَلَأَمَةُ لِعَصْرِهُمْ ، الْمُوَافِقَةُ
لِحَيَاتِهِمُ الْحَدِيثَةَ .

يَا لِلْأَسَفِ ! بَلْ إِنَّهُ لَأَسَفٌ يُذِيبُ^(١) الْقَلَمَ ،
فَفِي وَسْطِ هَذِهِ الْفَوْضَى ، وَالْحَيْرَةِ وَالِاخْتِلَاطِ ، لَا يَنْتَفِعُ
غَيْرُ الشَّبَابِ ، الَّذِينَ أَوْتُوا حِدَّةَ بَصَرٍ وَزَكَانَةَ^(٢) وَدِقَّةَ
إِحْسَاسٍ ، لِأَنَّ أَذْهَانَهُمْ لَا تَخْذُلُهُمْ^(٣) بِسُهُولَةٍ ،
وَعُقُولُهُمْ لَا تَضْطَرِبُ وَشِيكًا^(٤) ، وَهُمْ فِي نَظَرَتِهِمْ
الْمَادِيَّةِ إِلَى الْحَيَاةِ ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الشَّخْصَ الْعَمَلِيَّ هُوَ

(١) يذيب القلم : أى أن الحسرة وخيبة الأمل تصهر القلم فتذويه

(٢) الزكانة : الفطنة والحذق (٣) خذله : قعد عن نصرته أى أن

أذهانهم حادة قوية (٤) وشيكا : سريعا

الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْشِيَ فِي مَنَاكِبِ هَذِهِ الدُّنْيَا ،
وَأَنْ يَنْجَحَ وَأَنْ يَجْمَعَ الْمَالَ وَيَظْفَرَ بِالثَّرَاءِ ^(١) ، وَهُوَ لَاءٌ
بِأَدْوَارِهِمْ سَيَلَقْنُونِ أَوْلَادَهُمْ ، وَيُعَامُونَ صِغَارَهُمْ وَفَقَ
قَانُونَ ^(٢) الْعَرَضِ وَالطَّلَبِ أَنْ يَأْتُوا بِأَسْعَارِهِمْ فِي
السُّوقِ ، وَهَذَا طَرِيقٌ وَاضِحٌ ، وَمَسَلَكٌ يَبِينُ ، مُعَيَّنٌ
الْمَعْلَمِ ، قَوِيمٌ الْمَحِجَّةِ ، وَهُوَ لِهَذَا مَوْدٍ إِلَى النَّجَاحِ ،
وَهَذَا الْمُبْدَأُ سَيَجْرِي وَيَعْمُ وَيَشِيعُ ، وَلَكِنْ إِلَى
حِينَ . . . نَعَمْ إِلَى حِينَ ، وَلَكِنْ لَنْ يَدُومَ ، مَا لَمْ
تَكُنِ الْأَذْيَانُ حُلُمًا مِنَ الْأَحْلَامِ ، وَوَهْمًا مِنَ الْأَوْهَامِ ،
وَمَا لَمْ تَكُنْ أَفْكَارُنَا خَيَالِيَّةً ، وَتَصَوُّرَاتِنَا السَّامِيَّةُ ،

(١) الثراء : الغنى (٢) أى يوجهونهم إلى الناحية التى يصيبون منها

عَنْ أَنْفُسِنَا سِوَى مُجَرَّدِ رُؤْيٍ ^(١) وَأَخِيلَةٍ ، وَأَطْيَافٍ
مَنَامٍ ، لَا يَلْبَثُ الْعَصْرُ أَنْ يَسْتَيْقِظَ مِنْهَا الْيَقْظَةُ
الْمُنْتَظَرَةُ مِنْ عَهْدٍ بَعِيدٍ .

وَمِنْ الصَّعْبِ الْعَسِيرِ الشَّاقِّ مُتَابَعَةُ جَمِيعِ الْعِلَلِ
وَالْأَسْبَابِ ، الَّتِي اجْتَمَعَتْ فَأَدَّتْ بِنَا إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ ،
فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ مُتَأَصِّلٌ ^(٢) غَائِبٌ فِي
جُذُورِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَمِنْهَا كَثِيرٌ مُتَّصِلٌ بِأَدْوَارِ
التَّطَوُّرَاتِ الْمُسْتَطِيلَةِ الْمُتَعَاقِبَةِ ، الَّتِي تَطَوَّرَتْهَا الْجَمَاعَاتُ
وَالْجَمَاهِيرُ ، وَالْعَوَامِلُ الَّتِي تَطْبَعُ الْأَجْيَالَ فِي تَعَاقُبِهَا
وَتَلَاخُفِهَا بِطَوَائِفِهَا الْخَاصَّةِ ، غَيْرَ تَارِكَةٍ لِلْأَفْرَادِ غَيْرِ

(١) رُؤْيٍ : جمع رؤيا: وهي ما يراه النائم في حلمه. والأخيلة جمع خيال : ما يتخيله الوهم . والأطيايف جمع طيف : وهو الصورة المنامية . وكل هذا يغير الحقائق المحسوسة (٢) متأصل الخ : أى متوارث من العصور السحيقة

هَامِشٍ ضَيِّقٍ مَحْدُودٍ ، يَسْتَطِيعُونَ فِيهِ أَنْ يُقَرَّرُوا
مَصَائِرَهُمْ ، وَيَخْتَطُّوا فِي الْحَيَاةِ طَرِيقَهُمْ .

✱

بَيَدَ أَنْ هُنَاكَ سَبَبًا وَاحِدًا يَصِحُّ أَنْ نُشِيرَ إِلَيْهِ ،
لأنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ السَّطْحِ ، وَمِنْ الْخَيْرِ أَنْ نَبْحَثَ
الْأَمْرَ مِنْ نَاحِيَّتِهِ ، وَقَدْ يَبْدُو هَذَا الْقَلِيلُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ
سَطْحِيًّا ، وَعُرْضَةً لِكَثِيرٍ مِنَ الْإِتْقَادِ ، وَلَكِنَّهُ
إِذَا بُحِثَ مَرَّةً أَوْ نُظِرَ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ نَظَرَةٍ
عَارِضَةٍ ، بَدَأَ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَأَعْنَى بِهِ زَوَالِ سُلْطَانِ الدِّينِ ،
فَإِنَّ الْجُنْدِيَّ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقِيمَ تِمَثُلًا لِقَائِدِهِ ،
وَقَاعَاتُ الْقَضَاءِ مُزْدَانَةُ الْجُدْرَانِ بِصُورِ كِبَارِ الْقَضَاةِ
وَأَعْلَامِ الْقَانُونِ ، وَالْأَسَاطِينِ وَالْمَدَارِيهِ ^(١) الْمَشْهُورِينَ ،

تمثيل
الغضاة

(١) المداريه : جمع مدره : البارع البيان فصيح اللسان « المحامى »

وَلِلْعَالَمِ « نُبُوتِنِ » تِمَثَالُهُ ، وَكَذَلِكَ « لِهَارِفِي » ،
 وَكَذَلِكَ لِجِيمَسَ وَاتٍ فِي مَجَامِيعِ الْعُلُومِ ، وَكُلُّ
 قَتَى مُتَطَلِّعٍ إِلَى الشُّهُرَةِ ، صَبَّاءٌ ^(١) إِلَى الْمَجْدِ وَحُسْنِ
 الْأُخْدُوثَةِ ، يَرَى وَهُوَ مُقْبِلٌ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عَلَى الصَّنَاعَةِ
 الَّتِي اخْتَارَهَا لِنَفْسِهِ ، أَنَّ الْإِجَادَةَ لَا تَمُضِي بِغَيْرِ
 نَصَبٍ مِنْ الْجُزَاءِ ، وَأَنَّ الْإِتْقَانَ ظَافِرٌ بِالشَّرَفِ
 وَالْإِكْبَارِ وَالتَّكْرِيمِ ، وَبِشَقِّ الطَّرِيقِ وَاضِحًا
 أَمَامَهُ ، وَالْغَايَةَ يَبْنِي جَلِيَّةً ، كُلُّ خُطْوَةٍ مِنْهَا مُعَامَّةٌ
 بِحُرُوفٍ مِنْ ذَهَبٍ ، أَوْ أَحْرَفٍ مِنْ نُورٍ .

وَلَكِنَّ بَاحَاتِ ^(٢) الْمَعَابِدِ ، وَمَحَارِيبَ الْكُنَائِسِ ،
 وَصُحُونِ الْجَوَامِعِ ، قَدْ أَصْبَحَتْ مَهْجُورَةً مُوَحِشَةً

خَالِيَةً مِنَ الْعَابِدِينَ ، وَسَتَظَلُّ كَذَلِكَ عَلَى وَحْشَتِهَا ،
 وَقِلَّةِ رُؤَادِهَا ^(١) ، وَضَّالَّةِ عَدَدِ الْمُخْتَلِفِينَ إِلَيْهَا ،
 وَالْمُتَرَدِّدِينَ عَلَيْهَا ، وَلَمْ نَعُدْ نُقِيمُ تِمَثَالًا لِلْمُتَدِينِ
 الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا لِلتَّقَى الْوَرَعِ . وَكُلُّ الْأَخْيَارِ وَالْأَتْقِيَاءِ
 يَعِيشُونَ فِي الْعِبَادَةِ وَيَمُوتُونَ فِيهَا ، وَيَحْيَوْنَ فِي
 الدِّينِ وَيَتَفَانُونَ فِيهِ ، وَإِنَّ دُورَهَا لَعَارِيَةٌ ، وَمَعَابِدَهَا
 خَلَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، فَإِذَا ذَكَرَهَا الْأَغْنِيَاءُ بِإِحْسَانٍ
 فَنِعْمَةٌ ^(٢) عَيْنٍ ، وَإِلَّا فَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَنْبَعِثُ إِلَى
 مُسَاعَدَةٍ أَوْ مَعُونَةٍ أَوْ بَرٍّ بِهَا ، وَلَيْسَتْ حَفَلَاتُ
 الْجَنَائِزِ . لِلْمَوْتِ نُقَامٌ عَلَى مَبَالِغِ إِفْضَالِهِمْ ^(٣)

(١) روادها : جمع رائد . يريد المختلفين إليها (٢) فنعمة عين :

أى فيها ونعمت . تقول : أفعل لك الأمر ونعمة عين (٣) إفضالهم :
 إحسانهم

وَفَضَائِلِهِمْ^(١) ، وَإِنَّمَا عَلَى مَبَالِغِ تَرَكَاتِهِمْ وَمَقَادِيرِ
مَا تَرَكَوْا مِنْ مَالٍ وَنَسَبٍ ، وَثَرَاءٍ مَوْزُوثٍ .

☆

عَلَى أَنَّ هُنَاكَ أَسْبَابًا أُخْرَى وَعَوَامِلَ مُتَعَدِّدَةً ، تَعْمَلُ ^{ظهور}
^{إيمرسون} فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ ، غَيْرَ إِهْمَالِ شَأْنِ الدِّينِ ، وَتُحَدِّثُ
أَثَرَهَا فِي انْجِلْتَرَا ، وَفِي غَيْرِ انْجِلْتَرَا عَلَى السَّوَاءِ .
وَمِنْ هُنَا كَانَ ظُهُورُ « إيمرسون » الْأَمْرِيكِيِّ وَنَظَرَتُهُ
فِي النَّوَابِغِ وَالْعُظَمَاءِ ، وَلَيْسَ الذَّنْبُ فِي ذَلِكَ عَلَى
الدِّينِ ، وَلَكِنَّهُ ذَنْبُ الْعَصْرِ ، وَخَطَاؤُ الْجِيلِ . فَتَحْنُ
مُنْتَقِلُونَ مُتَحَوِّلُونَ مِنْ نَوَاحِي النَّشَاطِ وَالْعَمَلِ بِتَعَالِيمِ
الْقَدِيمِ ، إِلَى نَوَاحٍ أُخْرَى جَدِيدَةٍ ، لَمْ تُمْتَحَنْ بَعْدُ وَلَمْ
تُخْتَبَرْ . وَالْمُسْكَلَةُ الْكُبْرَى الْيَوْمَ : هِيَ كَيْفَ نُحْسِنُ
الْعَمَلَ فِيهَا . وَلَا نُسِيْ اسْتِخْدَامَهَا ؟ وَهِيَ أَنَّ سَبِيلَنَا

الْيَوْمَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ إِلَى كُؤُخِ النَّسَاكِ^(١) وَالزُّهَّادِ ،
وَلَا إِلَى الْمُؤَايِدِ الْخَافِلَةِ بِالْأَطَايِبِ وَشَهْيِ الْأَوَانِ الطَّعَامِ .
بَلْ إِنَّ عَلَيْنَا الْآنَ أَنْ نَنْزِعَ إِلَى صِنَاعَاتٍ وَحِرَفٍ
هَادِثَةٍ سَلَمِيَّةٍ وَدِيعَةٍ ، كَانَتْ تُعَدُّ فِي عُصُورِ الْبُطُولَةِ ،
وَعُهُودِ الشَّجَاعَةِ ، غَيْرَ خَلِيقَةٍ بِشُرَفَاءِ النُّفُوسِ ،
وَنَبَلَاءِ الْأَرْوَاحِ . وَفِي تِلْكَ الْعُصُورِ كَانَ الْعَبِيدُ
وَالْمُتَوَالِي وَالْأَصَاغِرُ ، هُمُ الَّذِينَ يَزْرَعُونَ وَيَحْرُثُونَ
وَيَحْكُونَ وَيَنْسِجُونَ .

لَقَدْ كَانَ الْوُضْعَاءُ لَمْ يَنْبِتُوا فِي مَنَابِتِ التَّبَاهَةِ
وَالذِّكْرِ ، وَالشَّرَفِ وَالْخَطَرِ^(٢) ، هُمُ الَّذِينَ يَطُوفُونَ الْبَحَارَ
عَلَى ظُهُورِ السَّفِينِ ، وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ يُنْشِئُونَ الْمَصَانِعَ ،

(١) النساك : العباد جمع ناسك (٢) والخطر : أى النبل والشرف

وَيَسْتَحْدِثُونَ^(١) الصَّنَائِعَ ، وَيَسْدُونَ حَاجَ^(٢) الْحَيَاةِ ،
وَيَقِيمُونَ أَوْدَ الدُّنْيَا . فَلَمْ يَخْطُرْ لِأَحَدٍ أَنْ يَبْحَثَ
يَوْمَئِذٍ إِلَى أَيِّ حَدٍّ تَتَأَثَّرُ الشَّخْصِيَّةُ بِتِلْكَ الصَّنَاعَاتِ ؟
وَكَيْفَ يَتَسَنَّى الْإِنْتِفَاعُ بِهَا فِي تَهْدِيبِ الْمَشَاعِرِ ، وَالسُّمُوءِ
بِالنَّفُوسِ ؟ . وَمَا مَبْلَغُ مَرَدِّهَا^(٣) عَلَى أَخْلَاقِ الْمُشْتَغِلِينَ
بِهَا ؟ وَأَشْخَاصٌ مُحْتَرِفِيهَا وَالسَّالِكِي مَسَالِكَهَا ؟ .
إِلَى وَاللَّهِ مَا فَكَّرَ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ ، وَلَا أَلْقَى أَحَدٌ
إِلَيْهِ بِالْه ، فَقَدْ كَانَ الْعَصْرُ كُلُّهُ فِي شُغْلٍ بِالْبُطُولَةِ .
وَكَانَ الْمُعْتَقَدُ يَوْمَئِذٍ أَنَّ تِلْكَ الصَّنَاعَاتِ دُنْيَا^(٤) لَا تَلِيقُ
بِالْأَفْقِ الَّذِي تَعِيشُ فِيهِ ، وَأَنَّ تِلْكَ الْحِرَفَ وَالْمِهَنَ
عَلَى الْعَصْرِ غَرَائِبُ لَيْسَتْ خُلُقَاءَ بِهِ .

(١) يستحدثون : أى يبتكرون (٢) حاج : جمع حاجة

(٣) مردها : فعلها وتأثيرها (٤) دنيا : أى حقيرة



مصير
عبادة
البطولة

وَلَكِنَّ الدُّنْيَا تَغَيَّرَتْ، وَالزَّمَنَ تَحَوَّلَ، وَالْعُصُورَ
تَبَدَّلَتْ، وَقَدْ تَوَارَتْ عِبَادَةُ الْبُطُولَةِ وَالْأَبْطَالِ
وَتَلَاشَتْ، إِذْ لَمْ تَبْقَ مِنْ حَاجَةٍ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَعُدْ لَهَا
طَلَبٌ. نَعَمْ تَغَيَّرَتِ الدُّنْيَا وَحَالَتْ، وَذَهَبَتْ عِبَادَةُ
الْبُطُولَةِ، وَاخْتَفَتْ، ثُمَّ لَمْ تَقُمْ عِبَادَةُ أُخْرَى مَقَامَهَا،
وَلَمْ يَحُلَّ غَيْرُهَا إِلَى الْآنَ مَحَلَّهَا، وَنَحْنُ لِدَلِّكَ
تَتَخَبَّطُ فِي الظَّلَامِ، وَنَهِيمُ شُرَدًا^(١) عُمِيًّا ضَالِّينَ فِي
الْحَلَكَةِ^(٢) الْحَالِكَةِ، وَالْمَتَاهَةِ^(٣) الْمُتَرَامِيَةِ.

وَإِنَّمَا نَحْنُ لَا نَزَالَ نَسْمَعُ، أَوْ نَتَحَدَّثُ عَنْ
الْفَضَائِلِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْوَصَايَا السَّلْبِيَّةِ، أَوْ النَّوَاحِي

(١) الشرذمة : جمع شريد وهو الضال (٢) والحلكة الحالكة :

الظلام الدامس (٣) والمتاهة : المفازة لا أعلام فيها

والتَّعْرِيفَاتِ الْعَامَّةِ لِلطَّيْبَةِ وَالْخَيْرِ ، ثُمَّ لَا يَدْرِي
السَّامِعُ وَلَا الْمُتَحَدِّثُ فِي الْحَقِّ مَا هِيَ الطَّيْبَةُ ،
وَمَا هُوَ الْخَيْرُ ؟؟ عَلَى حِينٍ لَمْ يَبْقَ لَنَا غَيْرُ هَذِهِ
وَحْدَهَا . وَقَدْ أُلْقِيَ بِنَا فِي وَسْطِ حَيَاةٍ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا
وَأَشَدَّ تَكَالِيفَ وَمُقْتَضِيَاتٍ مِمَّا شَهِدَتْ
الْأَرْضُ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ ، أَوْ عَصْرًا مِنَ الْعُصُورِ ، أَوْ
جِيلًا مِنَ الْأَجْيَالِ ، فَكَاثَمْنَا قَدْ أَصْبَحْنَا مَثْرُوكِينَ
لِأَنْفُسِنَا حَيَارَى هَيْمًا ، نَضْرِبُ فِي هَذِهِ الْمُضَلَّةِ الْبَعِيدَةِ ،
وَلَا هَادِيَ لَنَا غَيْرُ غَرَائِزِنَا وَمَحْدُودِ عِلْمِنَا وَرَغْبَاتِنَا
وَأَمَالِنَا وَهَوَاجِسِ نُفُوسِنَا الشَّرِّدِ الْخَائِرَةِ .

وَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَ الْقَوْلَ هَكَذَا جَارِيًا عَلَى
وَجْهِ مِنَ الْعُمُومِيَّاتِ ، وَنَحْنُ نَشْكُو ذَلِكَ وَنَتَبَرَّمُ بِهِ ،

فَلَا خَصَصْ إِذَنْ بَعْضَ التَّخْصِيسِ ، وَلَا فَضِّلْ بَعْضَ
التَّفْضِيلِ ، وَلَا تُشِرْ إِلَى قَلِيلٍ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْثَلَةِ ،
وَالشَّوَاهِدِ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ بِحَاجَةٍ إِلَى الْهُدَايَةِ ، وَمَا
نَلْتَمِسُ فِيهِ الْإِرْشَادَ ، وَنَعْتَقِدُ لَهُ الدَّلِيلَ ، فَلَا نَجِدُ ثُمَّ
هَادِيًا وَلَا مُرْشِدًا وَلَا دَلِيلًا ، بَلْ هِيَ أَمْثَلَةٌ وَأَحْوَالُ
وَنَوَاحٍ مِنَ الْحَيَاةِ . كَانَ حَرِيًّا بِالَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ أَمْرَ
تَعْلِيمِنَا وَتَرْبِيَّتِنَا ، أَنْ يَكُونُوا عُلَمَاءَ بِمَا نَحْنُ أَحْوَجُ
إِلَيْهِ مِنْ سِوَاهُ ، وَكَانَ أَوْلَى بِهِمْ أَنْ يَضْعُوا لَهُ
الْقَوَاعِدَ وَيُقَرِّرُوا فِيهِ الرَّأْيَ جَزْمًا وَبَتًّا وَتَقْرِيرًا :



لَا تَزَالْ لَدَيْنَا أَوَامِرُ الدِّينِ وَفَرَائِضُهُ ، فَنَحْنُ
نَتَحَدَّثُ مِنَ الصِّيَامِ وَالتَّعَفُّفِ ، وَالْحَمْلِ عَلَى النَّفْسِ
بِزَجْرِ الشَّهَوَاتِ ، وَحَبْسِ الرِّغَبَاتِ ، وَالصُّرُوفِ عَنِ

أوامر
الدين

الذَّاتِ وَالْهَوَى ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ ذَلِكَ
تَأْفَهُ أَوْ قَلِيلُ الْجَدْوَى ، وَلَكِنَّا لَا يَسْعُنَا إِلَّا أَنْ
نَبْتَئِمَ سُخْرِيَةً مِنْ دَعْوَى رِجَالِ الدِّينِ أَنَّهُمْ وَحْدَهُمْ
بِتَعَالِيمِهِمْ وَكُتُبِهِمُ الدِّينِيَّةِ ، الْقَادِرُونَ عَلَى شِفَاءِ النُّفُوسِ ،
وَعِلَاجِ الْأَرْوَاحِ ، بَلْ دَعَوْنَا نَسْأَلُ عُلَمَاءَ الدِّينِ الْيَوْمَ
مَا سَبِيلُ ذَلِكَ وَمَا مُوَدَّاهُ ؟؟ فَإِنَّا غَيْرُ مُصِيبِينَ
جَوَابًا يُحْمَدُ وَيُقْنَعُ ، أَوْ غَيْرُ مُتَلَقِّينَ جَوَابًا مَا ، أَوْ
أَجْوَبَةً مُتَعَارِضَةً مُتَنَاقِضَةً مُتَبَايِنَةً فِي وَسْطِ جَدَلٍ
وَلَدَدٍ ^(١) وَمُنَاقَشَةٍ وَمُنَافَرَةٍ وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَكَيْفَ
يَتَسَنَّى لِلشَّابِّ الْمُقْبِلِ عَلَى الْحَيَاةِ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى
الْحَقِيقَةِ ؟ أَوْ مَاذَا هُوَ مَسْتَنْتَجٌ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ
الْمُتَعَارِضَةِ ، وَالْآرَاءِ الْمُتَبَايِنَةِ الْقَائِمَةِ مِنْ حَوْلِهِ ؟ ! إِنَّهُ

بِطَبِيعَةِ الْحَالِ مُسْتَتَبِحٌ مَا يُوَافِقُ نَزْوَعَهُ ، وَيُطَابِقُ
 مُيُولَهُ ، وَيُسَايِرُ هَوَاهُ ، وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ اخْتِيَارَهُ
 مَهْمَا صَدَقَ وَصَحَّ ، سَوْفَ يُخْطِئُ الْحَقَّ ، وَسَوْفَ
 يَقُومُ عَلَى ضَالِّ الدَّوَافِعِ ، وَأَبْعَدِ الْبَوَاعِثِ مِنْ
 الصَّوَابِ .



الشجاعة وَنَحْنُ قَدْ رَأَيْنَا^(١) الشَّجَاعَةَ مَعْدُودَةً بِالْإِجْمَاعِ ،
 كَأَحَدِ اللَّوْازِمِ الْجَوْهَرِيَّةِ لِلْخُلُقِ الرَّفِيعِ ، وَبِنَاءِ
 الشَّخْصِيَّةِ الْعَالِيَةِ . وَفِي كُلِّ نُظْمٍ التَّرْبِيَّةِ وَالتَّهْذِيبِ
 عِنْدَ الْجَمَاعَاتِ الرَّاقِيَةِ ، وَالْأُمَمِ السَّامِيَةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ،
 نَجِدُ بِالْبَحْثِ وَالتَّقْصِي أَنْ الشَّجَاعَةَ أَخْصُ مَا يُعْنَى

(١) رأينا الشجاعة : في حدها الأوسط ، الذي إذا انحطت عنه ، كانت
 خبرا ، وإن زادت عليه كانت تهورا على المقياس الاخلاقي الذي يحدد لكل فضيلة
 وسطا هو المحمود ، وطرफاه مذمومان — « كلا طرفي قصد الأمور ذميم »

بِهِ وَيُحَرِّصُ عَلَيْهِ ، وَيُوجِّهُ أَكْبَرُ الْإِهْتِمَامِ إِلَيْهِ ،
فَإِنَّ الْإِغْرِيقَ ، وَالرُّومَانَ ، وَالْفُرْسَ الْقُدَمَاءَ ، وَالْأُمَّةَ
الْإِسْكَانِيَّةَ إِلَى الْقَرْنَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ ، وَسَائِرِ الْجَمَاعَاتِ
الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي صَلَحَتْ لِمَعْنَى مَا ، وَأَدَّتْ فِي الدُّنْيَا
نَوْعًا مِنَ الْخَيْرِ ، وَأَحْسَنْتْ فِي وَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ ، قَدْ
أَدْرَكَتْ جَمِيعًا أَنَّ مُطَالَبَةَ الشَّابِّ بِالشَّجَاعَةِ قَبْلَ
الدَّرَبَةِ ^(١) عَلَيْهَا ، وَدُونَ رِيَاضَةٍ عَلَى مَطَالِبِهَا ،
هُوَ أَشْبَهُ بِحِمْلِ الْمُهْرِ الصَّغِيرِ الْمُتَوَتَّبِ الطَّفَّارِ ^(٢)
الْقَفَّازِ عَلَى الْخُضُوعِ إِلَى اللَّجَامِ ، وَالْإِذْعَانِ لَوْطَاءِ
السَّرِجِ ، وَشَكْمَةِ الْأَعْنَةِ دُونَ التَّمَرِينِ عَلَيْهَا ، وَقَبْلَ
أَنْ يُسَاسَ وَيُرَاضَ عَلَى قُبُولِهَا وَاحْتِمَالِهَا ، بَلْ لَقَدْ

(١) الدربة: المران والتعويد (٢) الطفار: الوثاب

جَعَلَتْ تِلْكَ الْجَمَاعَاتُ بَالَهَا إِلَى التَّدْرُجِ فِي رِيَاضَةِ
الشَّبَابِ عَلَى الشَّجَاعَةِ ، وَدُرَبَتِهِمْ عَلَى إِيْلَافِهَا رُويْدًا ،
فَكَانَ كُلُّ غُلَامٍ إِذَا مَا خَطَا شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى
سَاحَةِ الْأَخْطَارِ عَلَى مَبْلَغِ احْتِمَالِهِ ، وَدَرَجَةِ تَغْلِيهِ
عَلَى الْخَوْفِ ، تُرْكُ يُوْغِلُ^(١) وَيَمْنَعُنِي فِي مُلَاقَاةِ الْخَطَرِ ،
حَتَّى يَكْفُ^(٢) نَبْضُهُ عَنِ الْخَفَقَانِ إِذَا مَا أَحَاطَ بِهِ ،
وَيَتَلَقَّاهُ فِي سُكُونٍ ، كُلَّمَا عَرَضَ لَهُ ، وَهَكَذَا
يُرَاضُ عَلَيْهِ حَتَّى يُصْبِحَ إِيْلَافُهُ طَبِيعَةً فِيهِ ، وَغُنْصُرًا
جَوْهَرِيًّا فِي خَلِيقَتِهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ الشَّجَاعَةُ عِنْدَهُمْ
فَضِيلَةً فَتَوَاتِي^(٣) بِالْمِرَانَةِ الدَّائِمَةِ ، وَكَانَتْ مَسْأَلَةً مَتْرُوكَةً

(١) يوغل : أوغل في الشيء ، وأمعن فيه وصل إلى صميمه وتغلغل

في داخله (٢) يكف نبضه : أى لا تهوله المخاوف ولا ينزعج لها .

(٣) تواتى : توافق .

لِلْعِنَايَةِ الْبَالِغَةِ بِهَا ، كَنَوْعٍ مِنَ التَّعْلِيمِ ، وَضَرْبٍ خَاصٍّ
 مِنَ التَّرْبِيَةِ . أَمَّا الشَّجَاعَةُ الْيَوْمَ ، فَلَيْسَتْ فَضِيلَةً ^(١)
 مُرَبَّحَةً ، وَلَا صِفَةً تَجْلِبُ كَسْبًا ، وَلَا تُغْنِي غِنَاءً ، وَلَا
 تَأْتِي بِمَالٍ ، وَلِذَلِكَ كَفَفْنَا عَنْ الْإِهْتِمَامِ بِهَا ، وَأَعْرَضْنَا
 عَنْهَا إِعْرَاضًا ، وَتَرَكْنَا الْأَوْلَادَ يُعَلِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَا هُوَ
 مِنَ الشَّجَاعَةِ ظَاهِرًا بِالْمُنَاجَزَةِ ^(٢) وَالْمُشَادَّةِ وَالْعِرَاكِ ،
 مُعْتَمِدِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى مَخِصِّ غَرَارِزِهِمْ ، وَالْوَحْشِيَّةِ
 الْمُرَكَّبَةِ فِيهِمْ ، وَاقْتَصَرَتِ الْمَدَارِسُ عَلَى تَعْلِيمِ
 الْأَحْدَاثِ وَالْعِلْمَانِ دُرُوسًا فِي اللُّغَاتِ الْقَدِيمَةِ كَاللَّاتِينِيَّةِ
 وَالْإِغْرِيقِيَّةِ ، حَتَّى الْأَلْعَابُ الرِّيَاضِيَّةُ ذَاتُهَا لَمْ تَبْلُغْ

(١) بل لقد تكون الشجاعة اليوم في بعض المواطن عاملا من عوامل
 شقاء صاحبها ، وتعرضه للمتالف وضياح رزقه ، ولا سيما إذا كان المتسلط
 ناقص المروءة (٢) من ذلك الملاكمة ولعبة شد الحبل ، ورفع الأثقال ،
 وما إلى ذلك مما لا تتجاوز الشجاعة فيه الأعمال الجسمية .

فِي الْمَدَارِسِ حَدًّا بَعِيدًا ، أَوْ حَدًّا يَرُوضُ النُّفُوسَ عَلَى
الشَّجَاعَةِ وَالشَّهَامَةِ وَالْبَأْسِ .



الحياة
العملية

وَإِذَا انْتَقَلْنَا مِنْ دَوْرِ التَّعْلِيمِ إِلَى دَوْرِ الْحَيَاةِ
الْعَمَلِيَّةِ ، فَآذَا نَجِدُ ؟ نَجِدُ الشَّابَّ قَدْ انْتَهَى مِنَ
الْمَدْرَسَةِ أَوِ الْكَلِيَّةِ ، وَأَصْبَحَ رَجُلًا وَوَجِبَ أَنْ يُخْتَارَ
لَهُ الصَّنَاعَةُ الَّتِي تَرُوقُهُ ، وَتِلْكَ هِيَ الْخُطْوَةُ الْأُولَى .
بَلْ أَخْطَرُ الْخُطُواتِ فِي شَوَطِ (١) حَيَاتِهِ ، وَمَنْ
يُخْطِئُهَا لَمْ يَسْتَطِعِ التَّرَاجُعَ عَنْهَا ، بَلْ لَا يَكَادُ الشَّابُّ
يَذْكُرُ كَيْفَ خَطَايَاهَا ؟ ، أَوْ يَشْعُرُ كَيْفَ تَهَيَّأَ لَهُ قَطْعُهَا ؟ ،
إِذْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَمُرُّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ إِلَى الْأَبَدِيَّةِ ،
وَأَنَّ جَزَاءَهُ الْحَسَنَ فِي الْآخِرَةِ وَقَفَّ عَلَى مَبْلَغِ

(١) شوط حياته : أى في مرحلة حياته

انْتِفَاعِهِ فِي هَذِهِ الْعَاجِلَةِ بِوَقْتِهِ ، وَمَقْدَارِ اسْتِفَادَتِهِ
 بِعُمُرِهِ وَأَيَّامِهِ وَأَعْوَامِهِ ، وَإِنَّهُ لَيَدْعُو اللَّهَ فِي كُلِّ
 يَوْمٍ أَنْ يُنَجِّيَهُ مِنْ نَزْعِ الشَّيْطَانِ ، وَوَسْوَاسِ
 النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ ، لِأَنَّ كُلَّ مَا يَعْنِيهِ إِلَّا يَذْهَبَ فَيَقَعُ
 فِي الشَّهَوَاتِ بِقَدَمَيْهِ ، وَيَنْقَادَ إِلَى مُغْرِيَاتِهَا فِي غَيْرِ
 مُحَارَبَةٍ لَهَا ، وَمُغَالَبَةٍ لَوْسَوَاسِهَا ، وَقَدْ أَصْبَحَ لِكُلِّ
 صِنَاعَةٍ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ ، صِفَاتٌ وَشَخْصِيَّةٌ وَطَبَائِعُ
 خَاصَّةٌ بِهَا ، مُلْزِمَةٌ لِمَنْ يَسْلُكُ نَفْسَهُ فِيهَا أَنْ
 يَتَلَبَّسَ بِهَا ، وَيَكْتَسِبَ مَعَانِيَهَا ، وَيُسَايِرَ اتِّجَاهَهَا
 إِلَّا مَا نَدَرَ مِنَ الصَّنَاعَاتِ ، وَإِلَّا مَا قَلَّ مِنَ
 الْحِرَفِ وَالْأَعْمَالِ ، فَلَا تَجْرِي عَلَيْهِ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ ،
 وَلَا تُلَاسِهُ هَذِهِ الصِّفَةُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهَا هُوَ

كَذَلِكَ ، يَسْتَحْذُ عَلَى شَخْصِيَّةِ صَاحِبِهِ ، وَيَقْتَضِي
 مِنْ سَائِلِكِهِ الْإِنْدِمَاجَ بِكُلِّيَّتِهِ فِيهِ ، سَوَاءِ التَّاجِرِ ،
 وَالصَّانِعِ ، وَالْمُحَامِي ، وَالطَّيِّبِ ، وَالْكَاتِبِ ، وَالْجُنْدِيِّ ،
 وَالْعَامِلِ فِي الْبَحْرِيَّةِ ، وَإِنَّ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ لِأَشْبَهُ
 شَيْءٍ بِكَفِّ الصَّابِغِ ، تَصْطَبِغُ بِالصَّبْغَةِ الَّتِي يَعْمَلُ
 فِيهَا وَتَتَشَكَّلُ بِاللَّوْنِ الَّذِي يَغْمِسُهَا فِي آيَتِهِ ،
 حَتَّى لَا يَصْعُبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مِنْ مُجَرَّدِ الْحَدِيثِ
 صِنَاعَةَ مُحَدِّثِنَا ، وَنُدْرِكَ مِنَ الْجُلُوسِ إِلَيْهِ قَلِيلًا
 الْعَمَلَ الَّذِي يُؤَدِّيهِ ، وَالْمُحْتَرَفَ ^(١) الَّذِي يَحْتَرِفُهُ .
 فَإِنَّ ذَلِكَ لَيَبْدُو فِي نَظَرَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ وَمَجْرَى
 تَفْكِيرِهِ ، وَمُنْطَلَقِ شُعُورِهِ - كَمَا يَظْهَرُ فِي مَخَارِجِ

(١) المحترف : أى الحرفة

صَوْتِهِ ، وَحَرَكَاتِهِ ، وَإِشَارَاتِهِ ، بَلْ إِنَّهُ لَيُظْهِرُ كَذَلِكَ
حَتَّى فِي خَطِّهِ وَكُلِّ مَا يَفْعَلُهُ . وَأَكْثَرِ مَا يَبْشِرُهُ .



خواص
الأعمال

إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ فِي الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ خَوَاصَّهُ
الْخُلُقِيَّةَ الْمُنْقَطِعَةَ لَهُ الْعَالِقَةَ أَبَدًا بِهِ ، الْمَوْقُوفَةَ
عَلَيْهِ ، بَلْ إِنَّ لَهُ إِغْرَاءَاتِهِ ، وَمُؤَثِّرَاتِهِ ، وَأَفَاعِيلَهُ ،
وَأَحَاسِيسَ أَصْحَابِهِ وَالسَّالِكِيهِ ، وَإِنَّ هَذِهِ الْمُؤَثِّرَاتِ
الْخَاصَّةَ وَالْأَفَاعِيلَ ، خَفِيَّةٌ غَيْرُ ظَاهِرَةٍ ، سَارِيَةٌ غَيْرُ
بَادِيَةٍ ، حَتَّى لَا تُشَاهَدَ فِي فِعْلِهَا ، وَلَا تُرَى فِي
إِحْدَاثِ أَثَرِهَا ، وَإِنَّمَا تَتَكَشَّفُ فِي النَتَائِجِ ،
وَتَبْدُو فِي الْعَايَةِ وَالْخَاتِمَةِ .

وَهُنَا خَاصَّةٌ ، نَعَمْ هُنَا فَقَطْ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي
غَيْرِ ذَلِكَ ، نَحْتَاجُ إِلَى إِعْرِسُونَ ، وَتَحْدِيدَاتِهِ لِلْعُظْمَةِ

وَالْعُظْمَاءَ ، كَمَثَلَيْنِ لِأَنْوَاعِهِمْ ، بَلْ هُنَا فَقَطْ نُرِيدُ
 مِنَ الدِّينِ وَرَجَالِهِ أَنْ يَدُلُّونَا عَلَى الطَّرِيقِ ، وَيُسَدُّوا
 إِلَيْنَا النَّصِيحَةَ وَالرَّأْيَ ، وَالزَّجَرَ وَالنَّهْيَ ، وَالتَّنْذِيرَ
 وَالْوَعِيدَ وَالتَّحْذِيرَ ، هُنَا نَلْتَمِسُ مِنْ إِمْرُسُونَ
 وَأَشْبَاهِهِ الْهُدَايَةَ وَالْإِرْشَادَ ، وَالْمَحَجَّةَ وَالطَّرِيقَ .
 وَلَكِنْ أَيْنَ الَّذِي يُبَصِّرُنَا فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ
 وَيَهْدِينَا إِلَى الْحَقِّ ، أَيْنَ الَّذِي يَعْلَمُ الشَّبَابَ عِنْدَ
 دُخُولِهِمْ مُعْتَرِكَ الْحَيَاةِ مَاذَا هُمْ مُرْتَقِبُونَ فِيهِ ؟ ، وَمَاذَا
 هُمْ مُلَاقُونَ عِنْدَهُ ؟ وَمَاذَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَحْتَنِبُوا ؟ ،
 وَمَاذَا يَجِبُ أَنْ يَتَحَاشَوْا ؟ ، وَأَيْنَ السَّبِيلُ إِلَى
 مَا يَلْتَمِسُونَ ؟ وَمَا وَجْهُ التِمَاسِهِمْ ؟ وَفِي أَيِّ النِّوَاحِي
 يَصِحُّ الْمَسِيرُ ؟ ! وَأَيْنَ الْأَمْثَلَةُ الْعُلْيَا لِلْمَحَامِي ؟ ،

والتَّاجِرِ وَالْمَلَّاحِظِ فِي الْحَوَانِيتِ ؟ ! وَإِنَّ الْمُثْمَلُونَ
لِأَنْوَاعِهِمْ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَاتِ ، وَالنُّوَابِ عَنْ طَبَقَاتِهِمْ ؟ !
وَهَلْ كُلُّهُمْ قَدْ أُوتُوا اسْتِعْدَادًا مُتَسَاوِيًا لِلتَّفَوُّقِ فِي
نَاحِيَّتِهِمْ ، وَالنُّبُوغِ فِي صِنَاعَتِهِمْ ، وَالسُّمُوِّ فِي خُلُقِهِمْ ؟
وَهَلْ كُلُّ الْفُرَصِ عِنْدَهُمْ مُتَنَاسِبَةٌ ؟ أَمْ بَعْضُهَا
أَصْلَحُ مِنْ بَعْضٍ ؟ وَمَا أَفْضَلُهَا فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ ؟
وَأَتَمُّهَا لِتِلْكَ النَّاحِيَةِ ؟ وَمَا هُوَ الْمُوَافِقُ مِنْهَا وَغَيْرُ
الْمُوَافِقِ ؟ وَالصَّالِحُ مِنْهَا وَمَا لَا صَلَاحَ لَهُ ؟ !
لِلْأَسَفِ^(١) لَا يَكَادُ الْخُلُقُ يُعْنَى بِأَمْرِهِ عِنْدَ
الِاخْتِيَارِ ، وَلِلْأَسَفِ يُوشِكُ الْإِسْتِعْدَادُ أَنْ يَهْمَلَ
فِي ذَلِكَ كُلِّ الْإِهْمَالِ ، فَلَا يَكُونُ سُؤَالُ الشَّابِّ

(١) للأسف : على تقدير ياهؤلاء للأسف : أى أنظروا مقدار أسنى على
كذا ومثله ما بعده

عَنْ هَذَا أَوْ نَحْوِهِ وَلَكِنْ كُلُّ سُؤَالِهِ وَاهْتِمَامِهِ
وَعِنَايَتِهِ ، مُنْصَرِفٌ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا ذَا يُجْدِي عَلَيْهِ ،
وَمَا أَجْمَعُهَا لِمَطَالِبِ نَجَاحِهِ ؟ وَأَكْبَرُهَا أَنْصِبَةً فِي
الرُّبْحِ وَالْجُدْوَى وَالْإِكْتِسَابِ ؟ ! وَفِي أَىِّ
الصَّنَاعَاتِ هُوَ مُصِيبٌ أَحْسَنَ الْأَجْرِ ، بَالِغٌ أَوْفَى
الْمَرَاتِبِ ، ظَافِرٌ بِخَيْرِ الْجَزَاءِ ؟ ؟

✱

✱ ✱

تَصَوَّرُوا غُلَامًا ثَائِرَ الْقَلْقِ مِنْ أَمْرِ غَدِهِ ، قَدْ
ذَهَبَ إِلَى أُمِّهِ يَلْتَمِسُ عِنْدَهَا النَّصِيحَةَ ، وَيَفْتَقِدُ^(١)
الْهِدَايَةَ وَالْإِرْشَادَ ، مُسَائِلًا إِيَّاهَا هَلْ يَكُونُ ضَابِطًا ؟
فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ عِنْدَهَا عَلَى هَذَا
السُّؤَالِ ، لَعَلَّهَا قَائِلَةٌ : لَيْكُنْ ذَلِكَ ، عَلَى الْأَتَقَعِ فِي

الغد

(١) يفتقد : افتقد الشيء بحث عنه

الْخَطِيئَةِ وَلَا تَقْتَرِفَ^(١) إِثْمًا ، بَلْ هِيَ قَائِلَةٌ لَهُ ذَلِكَ ،
إِذَا هُوَ سَأَلَهَا : هَلْ يُصْبِحُ مُحَامِيًّا ؟ أَوْ تَاجِرًا ؟ أَوْ
صَانِعًا ؟ أَوْ مُهَنْدِسًا ؟ وَلَكِنَّهُ سَأَلَهَا مَعَ ذَلِكَ قَائِلًا :
وَلَكِنْ أَيُّهَا أَفْضَلُ وَأَحْسَنُ مَرَدًّا^(٢) ؟ ! فَاذًا عِنْدَهَا
مِنْ جَوَابٍ غَيْرِ قَوْلِهَا : اللَّهُ أَعْلَمُ ، اللَّهُ أَعْلَمُ . . .
لَا بَأْسَ مِنْهَا جَمِيعًا ، وَلَا خَيْرَ فِيهَا ، وَلَكَ أَنْ تَسْأَلَ
نَفْسَكَ مِنْهَا فِيمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى ، عَلَى شَرْطِ أَنْ تَظَلَّ
تَقِيًّا صَالِحًا مُسْتَقِيمًا ، بَعِيدًا مِنَ الشَّرِّ وَالْهَوَى^(٣) نَزَاعًا
إِلَى الطَّيِّبَةِ وَالْخَيْرِ ، فَإِذَا أَبْعَدَ فِي الْأَسْئَلَةِ ، فَقَالَ وَمَا
حُدُودُ الْخَيْرِ وَالطَّيِّبَةِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، أَوْ تِلْكَ الَّتِي
اخْتَارَهَا ، فَسَوْفَ يَكُونُ الْجَوَابُ وَاحِدًا لَا تَبْدِيلَ لَهُ :

(١) تقترف : اقترف الحسنة أو السيئة ارتكبا (٢) مردأ : أى عاقبة ومغبة (٣) الهوى : نزعات النفس وميلانها إلى ما تستلذ .

وَهُوَ أَنْ تُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وَعَلَيْهِ هُوَ أَنْ
يَبْحَثَ إِلَى أَيِّ حَدٍّ يَرْوَحُ هَذَا الْحَقُّ لِلْغَيْرِ عِنْدَهُ
فِي وَدَّيْهِ ، وَإِنْ مَثَلَ ذَلِكَ وَاللَّهُ كَمَثَلِ رَسُولٍ يَعْلَمُ
تَلْمِيزَهُ ، كَيْفَ يَضَعُ التَّلْوِينَ وَالظَّلَالَ فِي مَوَاضِعِهَا
الْمُنَاسِبَةِ مِنَ الصُّورَةِ ، تَارِكًا لَهُ الْإِخْتِيَارَ الْمُخْضَ فِي
هَذَا الْعَمَلِ الدَّقِيقِ ، دُونَ تَوْجِيهِ وَلَا هِدَايَةٍ دَقِيقَةٍ
صَالِحَةٍ .

☆
☆

وَتَمَّ نَاحِيَةٌ أُخْرَى تَسْتَوْجِبُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا: وَهِيَ
نَاحِيَةٌ عَمَلِيَّةٌ مَأْمُوسَةٌ جَلِيلَةٌ لِلْأَبْصَارِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ
قَلَّ مَنْ يُنْكَرُ أَنَّ السَّادَةَ وَأَصْحَابَ الْأَعْمَالِ ، مَدِينُونَ
بِوَاجِبَاتٍ مُعَيَّنَةٍ لِعُمَالِهِمْ ، فَوْقَ أَجُورِهِمْ الْمَحْدُودَةِ عَلَى
قَدْرِ تَنَافُسِهِمْ فِي الْجُهْدِ ، وَلِنِسْبَةِ كَدِّهِمْ فِي الْعَمَلِ ، كَمَا

مشكلة
العمل
والعمال

أَنَّ عَلَى الْعَمَالِ وَاجِبَاتٍ فَوْقَ بَذْلِ قُصَارَى ^(١) الْجُهْدِ ،
وَالْإِحْسَانِ فِي الْعَمَلِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَدَبَ مَطْلُوبٌ مِنَ
الْعَامِلِ لِصَاحِبِ عَمَلِهِ ، كَمَا أَنَّ الْإِحْتِرَامَ مُقْتَضَى ^(٢) مِنْهُ
لِعَامِلِهِ ، وَكُلَّمَا اتَّصَلَ النَّاسُ وَتَحَاكُّوا ^(٣) وَتَرَابَطُوا ،
نَشَأَتْ التَّزَامَاتُ مُتَبَادِلَةٌ ، وَوَاجِبَاتٌ مُتَقَارِضَةٌ ،
وَحُقُوقٌ مُتَقَاسِمَةٌ ، بِالنِّسْبَةِ لِلْمَرَاكِزِ ، وَوَفْقَ الْمَوَاضِعِ ،
وَبِحَسَبِ الْمَحَلِّ وَالْمَرْتَبَةِ .

وَهَذَا ^(٤) الْمَوْضُوعُ : هُوَ الَّذِي يَشْغَلُ فِي الْوَقْتِ
الْحَاضِرِ جَانِبًا عَظِيمًا مِنَ الْحَيَاةِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ ، بَلْ
هُوَ الْمَشْكِلَةُ الَّتِي هَزَّتْ أَوْرُبَا هِزَّةَ الزَّلْزَالِ

(١) قصارى : قصارى الشيء غاية . والجهد : الطاقة

(٢) مقتضى : مطلوب (٣) التحاكُّ : اصطدام جرم بآخر — والمراد

كلما امتزجوا (٤) أى مسألة العمال وأصحاب الأعمال أو الرأسمالية والعمال

الشديد ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ ، كَلَّمَا فُكِّرَ فِيهِ وَعُنِيَ بِهِ ،
لَا حَ كَأَنَّمَا يَأْبَى الرُّضُوحَ لِلتَّشْرِيعِ ، وَيَرْفُضُ النُّزُولَ
عَلَى التَّقْنِينِ ^(١) وَالِاسْتِنَانِ ، حَتَّى لَيَبْدُو كَأَنَّهُ مَوْضُوعٌ ،
لَيْسَ لِلْقَانُونِ أَنْ يُبَاشِرَهُ وَيَضْبِطَهُ ، وَيَتَنَاوَلَ أَمْرَهُ .
وَإِنَّمَا مِنْ وَاجِبِ الدِّينِ أَنْ يُعْنَى بِهِ ، لِأَنَّ وَاجِبَاتِهِ
هِيَ مِنْ شَأْنِ الْكَنِيسَةِ ، لَا مِنْ شَأْنِ الدَّوْلَةِ أَنْ
تَتَوَلَّاهُ ، فَلَمَّاذَا نَرَى الْكَنِيسَةَ صَامِتَةً جَامِدَةً
لَا تَتَحَرَّكُ لَهُ ، وَلَا تُلْقِي بَالًا إِلَيْهِ ؟ عَلَى حِينِ
أَنَّ هُنَاكَ وَاجِبَاتٍ وَفَرَائِضَ تَقْتَضِي مِنْهَا الْفَحْصَ
وَالْعَرَبْلَةَ ، وَالْبَحْثَ وَالِاسْتِقْصَاءَ ، فَلَمَّاذَا تُقْصَرُ فِي

(١) التقنين : قنن لكذا : وضع له قانونا واستن لكذا : وضع له سنة .
أى أن مشكلة العمل والعمال ، استعصت ولم يستطع العالم حتى الآن من وضع
قانون نهائى يحل هذه المشكلة ، حلا حاسما .

هَذَا وَتُهْمِلُ ؟ وَلِمَازَا تَقْعُدُ عَنْهُ وَلَا تَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ ؟ !
 وَاسْفَاهُ ! إِنَّهَا لَا تَجْرُؤُ وَلَا تَقْدِرُ ، وَتَخْشَى أَنْ
 تُؤْلِمَ فَرِيقًا أَوْ تُغْضِبَ آخَرِينَ . وَهِيَ مِنْ شَمِّ
 تَحَامَى التَّدْخُلِ وَتَرْبَأُ^(١) عَنِ الْإِسْتِهْدَافِ لِلْغَضَبِ ،
 وَتُهْمَةُ التَّحْيِيزِ ، وَمَنْقَصَةُ الْجَوْرِ فِي الْحُكْمِ ، وَتَحْيِفُ^(٢)
 جَانِبٍ لِحِسَابِ جَانِبٍ سِوَاهُ .

✱

✱ ✱

تقسيم
الأعمال

وَإِنِّي لَا خَشْيَ أَنْ يَكُونَ أَمَانًا مَدَى طَوِيلٍ ،
 وَتَجْرِبَةٌ قَاسِيَةٌ نَحْوُضُهَا قَبْلَ أَنْ نَهْتَدِيَ إِلَى طَرِيقِنَا ،
 وَنُذْرِكَ ارْتِبَاطَاتِنَا ، وَنَفَقَهُ حُقُوقِنَا وَوَاجِبَاتِنَا الْمُخْتَلِفَةَ ،
 وَلَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ لَا نَزَالُ نَسْتَشْرِفُ^(٣) مِنْ بَعِيدٍ
 جِيلًا قَادِمًا عَلَى طَرِيقِ الْحَيَاةِ ، جِيلًا تَرُوحُ فِيهِ

(١) تَرْبَأُ الخ : تصون نفسها عن التعرض للسخط عليها ، وأن تنهم بالتعصب
 لفريق دون فريق (٢) التحيف : الظلم (٣) نستشرف : نتطلع إليه

حَيَاةُ الْعُظَمَاءِ حَقًّا ، وَأَعْمَالُ الصَّالِحِينَ الْكِبَارِ الْفُؤُسُ
 فِي الْوَاقِعِ مُقَسَّمَةٌ تَقْسِيمًا جَدِيدًا ، غَيْرَ تَقْسِيمِ
 إِمْرِئُؤْنَ وَأَمْثَالِهِ ، فَشَهِدَ السَّادَةُ الْأَخْيَارُ . وَالْعُظَمَاءُ
 الْأَمْثِلَ ، فِي كُلِّ صِنَاعَةٍ مِنَ الصَّنَاعَاتِ ، وَمَرْكَزِ
 مِنَ الْمَرَاكِزِ فِي الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ ، سِوَاهِ أَكَانُوا أَرْبَابَ
 عَمَلٍ ، أَوْ أَصْحَابَ أَرْضٍ ، أَوْ عُمَّالًا وَصُنَّاعًا وَأَجْرَاءَ ،
 بَلْ تَرَوْحُ مُقَسَّمَةٌ مُوزَعَةٌ مُبَيَّنَّةٌ بِاسْمِ الدِّينِ وَفِي
 حُدُودِ تَعَالِيمِهِ وَأَوَامِرِهِ وَوَصَايَاهُ ، كَمَا كَانَتْ حَيَاةُ
 الْأَوْلِيَاءِ فِيهِ ، وَالصَّالِحِينَ وَالْأَبْرَارِ ، وَيَوْمَئِذٍ تَدْوِي
 فِي الْمَصَانِعِ وَالْمُسَاجِدِ وَدُورِ الْعَمَلِ تِلْكَ الْأَصْوَاتُ
 ذَاتُهَا ، الَّتِي تَتَرَدَّدُ فِي جَوَانِبِ الْمَعَابِدِ وَالْمَسَاجِدِ
 وَالْمَحَارِبِ مُنَادِيَةً : انْظُرُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الْعُظَمَاءِ ...

هَؤُلَاءِ هُمْ الْأَخْيَارُ حَقًّا ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ
هَيَّأَهُمْ لَنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، فَلَنَسِرَ سَيْرَهُمْ ، وَلَنَحْذُ
حَذْوَهُمْ ، وَلَنَقِفَ عَلَى آثَارِهِمْ ، نَفْرَ بِالرَّغْدِ وَالْعَيْشِ
الصَّالِحِ وَالْهَنَاءِ .



وَلَا يَتَصَوَّرَنَّ أَحَدٌ أَوْ يَخْشَيْنَ امْرُؤًا مِنْ أَنْ
عَصْرًا كَهَذَا الَّذِي نَرْتَقِبُهُ ، سَيْرُوحٌ ^(١) إِذَا هُوَ جَاءَ
مِمْلَأً مُسْنِمًا ، تَضِيقُ النُّفُوسُ بِمَظْهَرِ التَّمَاثُلِ فِيهِ ،
وَالْتَشَابُهِ الْعَامِّ بَيْنَ أَفْرَادِهِ وَأَنَاسِيهِ ، أَوْ أَنْ تَتَلَاشَى
مِنْهُ مَظَاهِيرُ التَّنَوُّعِ وَالْفُرُوقِ الْجَمِيلَةِ فِي حَيَاةِ الْأَفْرَادِ ،
وَكَثْرَةِ الْأَمْثَلَةِ وَالنَّمَاذِجِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ ، فَيَغْمُرُ

حياة
الأفراد

النَّاسَ تَشَابَهُ مُطْلَقٌ ، لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ
عَنْ سِوَاهُ .

لَا يَحْسَبَنَّ أَحَدٌ ذَلِكَ وَاقِعًا يَوْمَئِذٍ أَوْ يَخَافَنَّ
خُدُوثَهُ ، بَلْ لَوْ أَنَّهُ حَدَّثَ فِعْلًا وَوَقَعَ ، لَمَا جَعَلَ الْحَيَاةَ
أَسْوَأَ مِمَّا هِيَ الْيَوْمَ ، وَلَا شَرًّا مِمَّا تَلُوحُ الْآنَ ، إِذْ
لَيْسَ النَّاسُ فِي الْحَقِّ بِمَطْلُوبٍ إِلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَأْثِرُوا
بِفَرْدِيَّتِهِمْ ، وَلَكِنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ : هُوَ أَنْ يُشْمِرُوا
وَيُنْتَجُوا وَيَسْتَحْدِثُوا ، وَيَعْمَلُوا عَمَلًا صَالِحًا ، وَأَنَّ
الْفَتَى الشَّرِيدَ الْهَائِمَ عَلَى وَجْهِهِ ، الْمُسْتَمْتِعَ بِكُلِّ
مَزَايَا فَرْدِيَّتِهِ ، إِذَا مَا قَضَى الْحِظَّ عَلَيْهِ أَنْ يَقَعَ فِي
يَدِ الشَّرْطِ ، الَّذِينَ يَتَعَقَّبُونَهُ لِيَسْلُكُوهُ فِي الْجُنْدِيَّةِ ،
وَهُوَ مِنْهَا الْمُتَهَرَّبُ الطَّرِيدُ ، الْمُتَلَمِّسُ النِّجَاةَ ،

فَسَوْفَ يَجِدُ نَفْسَهُ بَعْدَ عَامٍ فِي لِبَاسِهِ الْجُنْدِيِّ الْأَحْمَرِ ،
وَبَعْدَ التَّدْرِبِ الْعَسْكَرِيِّ طِيلَةَ الْعَامِ خَيْرًا مِمَّا كَانَ ،
وَأَفْضَلَ حَالًا وَأَحْسَنَ مُنْقَلَبًا ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَقَدَ مُتَعِ
تِلْكَ الْفَرْدِيَّةَ ، وَمَزَايَاهَا الْكَثِيرَةَ الْمُخْتَلِفَةَ .



نظرة في
التعليم

وَلَكِنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ التَّعْلِيمِ الْمُشَاهِدِ فِي
مَعَاهِدِنَا وَدُورِ تَرْبِيَّتِنَا ، هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ لَنَا فَرْدِيَّاتٍ
خَسِيسَةً مُنْحَطَّةَ الْمُرْتَبَةِ ، لَا صَلَاحَ لَهَا ، وَلَا خَيْرَ
يُرْتَجَى مِنْهَا . بَلْ إِنَّنَا الْيَوْمَ وَحَالُنَا كَمَا نَرَى ،
وَاجِدُونَ النَّاسَ قَدْ غَشِيَتْهُمْ أَغْشِيَةُ التَّشَابُهِ وَالتَّمَاثُلِ ،
فَهُمْ جَمِيعًا سَوَاسِيَّةٌ ^(١) فِي تَمَاثُلِ سَيِّئٍ ، وَتَحَاكٍّ ضَارٍّ ،
وَتَشَابُهِ جَامِدٍ بَلِيدٍ عَقِيمٍ ، بَلْ تَشَابُهِ يُؤْذِي

(١) سواسية : أى مستوون

الطَّبَائِعِ الرَّفِيعَةِ ، وَيُحَطَّمُ النَّزَعَاتِ السَّامِيَةِ ، وَيَقْضَى
عَلَى الْأَحَاسِيسِ الْعَالِيَةِ ، وَيَجْعَلُ الْمَرْءَ خَاضِعًا
لِصِنَاعَتِهِ ، بَلْ ضَحِيَّةً لَهَا ، وَعَبْدًا رِقًّا ذَلِيلًا
لِسُلْطَانِهَا ، وَأَسِيرًا لِظُرُوفِ عَيْشِهِ ، وَحَبِيسٌ ^(١) الْإِرَادَةِ
إِذَا مَطَالِبِ حَيَاتِهِ ، وَمُسْتَلْزَمَاتِ فَرْدِيَّتِهِ ، وَهُوَ
صَرِيحٌ حَيَالَهَا ، مُنْهَزِمٌ مُنْدَحِرٌ ^(٢) فِي مَعْرَكَتِهَا ، وَكَانَ
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْغَالِبَ الْمُتَنَصِّرَ عَلَيْهَا ، الْخَارِجَ
عَنْ طُغْيَانِهَا ، الْمُحْتَقِرَ لِسُلْطَانِهَا .



أَلَا إِنَّ أَمَامَ الْمَرْءِ أَنْ يَخْتَارَ بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ ،
إِمَّا الثَّوْبُ الَّذِي يُرِيدُهُ اللَّهُ لَهُ ، وَإِمَّا الثَّوْبُ الَّذِي

اختيار
المرء

(١) حبس الارادة : أى مفقود الحرية إزاء مطالب حياته ، ومستلزمات
فرديته (٢) مندحر : مطرود مبتعد .

تُرِيدُهُ لَهُ الدُّنْيَا ، وَتَنْسِجُهُ لَهُ الْحَيَاةَ ، وَإِنْ ثَوَّبَ
 اللَّهُ لَأَفْضَلَ وَالْيَقُ ، وَأَوَامُ وَأَجَلُ رَدَائِيهِ ، وَأَرْوَعُ
 مَظْهَرًا ، لِأَنَّهُ يُكْسِبُهُ الْحُرِّيَّةَ . وَالْآخِرَ يَسْلُبُهَا مِنْهُ ،
 وَيُحِيلُهُ مِنْ كُلِّ مَعَانِي الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ مُتَجَرِّدًا عَارِيًا .
 وَمِنْ شَمَّ : يَنْبَغِي أَنْ نَعْرِفَ طَبِيعَةَ الْغُنْصَرِ الَّذِي
 نَعْمَلُ فِيهِ ، وَنَفْقَةَ أَسْرَارِ الْعَمَلِ الَّذِي نَتَنَاوَلُهُ ،
 وَقَوَائِنَهُ وَأَصُولَهُ الَّتِي يَجْرِي عَلَيْهَا ، بَلْ يَنْبَغِي
 لَنَا : أَنْ نَشُقَّ (١) عَصَا الطَّاعَةِ عَلَى غَرَائِزِنَا السُّفْلَى ،
 وَنَطْرَحَ عَنْهَا سُلْطَانَ الصَّنَاعَةِ وَمُؤَثِّرَاتِ الْمِهْنَةِ ،
 وَطُغْيَانَ الْأَثَرَةِ (٢) ، لِنُطِيعَ الْغَرَائِزَ الْعُلْيَا ، وَنَسْتَجِيبَ
 لِلْحُبِّ ، وَالْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَالرُّجُوعَةِ ، إِلَى اللَّهِ
 تِلْكَ هِيَ الَّتِي أَحَقُّ بِالطَّاعَةِ وَأَوْلَى ، بَلْ تِلْكَ

(١) نشق عصا الطاعة : أى نخالف ونخرج على غرائزنا

(٢) الأثرة : حب الذات « الأنانية »

هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ نَجْعَلَ الصَّنَاعَةَ تَسِيرُ تَبَعًا
لَهَا ، وَتَقُومُ فِي خِدْمَتِهَا ، وَنَنْزِلُ عَلَى حُكْمِهَا ،
فَهَذِهِ هِيَ لَعَمْرُ الْحَقِّ « الْحُرِّيَّةُ » فَلَيْسَ لِلْمَرْءِ
فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنْ شَيْءٍ مُمَكِّنٍ غَيْرُهَا ،
وَمَهْمَا يَفْقِدِ الْمَرْءُ مِنْ فَرْدِيَّتِهِ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ
وَمُجَاهَدَتِهِ ، فَلَنَشَقْ وَلَنُطْمِئِنَّ بِأَنْ وَسَّوَسَ النَّفْسِ
الْأَمَّارَةَ ، هِيَ الَّتِي تُحَاوِلُ أَبَدًا أَنْ تَجْعَلَنَا أَسْرَى
سُلْطَانِهَا ، وَعَبِيدَ إغْرَائِهَا ، وَنُزُولًا عَلَى أَحْكَامِهَا الطَّاغِيَةِ .



وَلَكِنْ عَسَيْتَ ^(١) تَسْأَلُ : وَمَا سَبِيلُ ذَلِكَ ، وَمَا
الْوَسِيلَةُ إِلَى مُبْلُوغِهِ ؟ وَالْجَوَابُ سَهْلٌ لِلْغَايَةِ ،
هَامُوا : ارْفَعُوا مُسْتَوَى الرَّأْيِ الْعَامِّ ، هَذَا مَا قَدْ

الرأى
العام

(١) عسيت تسأل : لعلك سائل .

يُقَالُ ، وَهَذَا مَا قَدْ يُوحَى بِهِ ، أَوْ قُلِ اطْلُبُوا مُسْتَوًى
 أَرْفَعَ مِنَ الْمُسْتَوًى الْحَاضِرِ لِأَدَبِ الْعَصْرِ وَأَخْلَاقِهِ ،
 أَوْ فِي لُغَةِ الْاِقْتِصَادِيِّينَ ، لِنَزْدٍ مِنْ طَلَبِ الْخَيْرِ
 يَكْثُرُ الْعَرَضُ ، أَوْ عَلَى كُلِّ حَالٍ يَبْذُلِ النَّاسُ
 يَوْمَئِذٍ أَقْصَى جُهِدِهِمْ فِي إِثْبَانِ الْخَيْرِ ، وَالنُّزُوعِ إِلَيْهِ .
 وَمَا لَمْ نَسْتَوْجِبْ مِنْ بَعْضِنَا الْبَعْضَ أَكْثَرَ ، لَنْ
 يَتَوَاتَى (١) لَنَا أَكْثَرُ ، إِذْ عَلَى قَدَرٍ مَا نَطْلُبُ نَجِدُ ،
 وَعَلَى مَبْلَغٍ مَا نَعْمَلُ لَهُ نُصِيبُهُ .



الرجل
العظيم

وَهَذَا يَقْتَضِينَا (٢) أَنْ نَعُودَ إِلَى شَرْحِ الْأَمْرِ فِي
 تَعْبِيرٍ آخَرَ ، وَهُوَ : كَيْفَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَنْفُذَ إِلَى الْقَلْبِ ؟

(١) يتواتى : يتوفر (٢) يقتضينا : أى يطالبنا

وَكَيْفَ يَتَأْتَى لَنَا أَنْ نُوقِظَ الرَّغْبَةَ ، وَنُثِيرَ الْحَافِرَ ؟
 إِنَّا لَنَعْتَقِدُ أَنَّ الرَّجُلَ أَخَا الطَّيِّبَةِ وَالْخَيْرِ ، الرَّجُلُ
 الْعَظِيمُ ، مَهْمَا يَكُنْ أَمِيرًا أَوْ صَغِيرًا ، سَيِّدًا غَطْرِيْفًا^(١) ،
 أَوْ فَتًى مِنْ عُرُضِ الْعَامَّةِ ، هُوَ الْمَحَبَّبُ الْجَمِيلُ
 النَّافِذُ إِلَى الْعَاطِفَةِ ، وَأَنَّا لَوْ أَتَيْحَ لَنَا أَنْ نَهْتَدِيَ
 إِلَيْهِ ، وَقُيِّضَ لَنَا أَنْ نُبْصِرَهُ وَنَلْتَقِيَ بِهِ ، لَكَانَ
 هُوَ الْمُحَرِّكَ لِنَفُوسِنَا ، أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهُ . بَلْ إِنَّهُ
 لَيَحِقُّ لَنَا عَلَى الْأَقَلِّ ، أَنْ نَطَالِبَ بِزَوَالِ كَافَّةِ الْعُقَبَاتِ
 وَالْحَوَائِلِ الْمَصْنُوعَةِ ، الَّتِي كَانَتْ تَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
 رَفْعِهِ فَوْقَ مُسْتَوَى الْجَمَاهِيرِ ، وَتَمَنَعْنَا مِنْ أَنْ
 نَنْتَشِلَهُ^(٢) مِنْ وَهْدَتِهِ^(٣) ، فَنَضَعَهُ فِي الْمَكَانِ الْخَلِيقِ

(١) الغطريف : السيد العظيم (٢) انتشله : خاضه وأخرجه

(٣) الوهدة : المكان المنخفض والمراد رفع شأنه

بِهِ ، وَنَسَمُوْهُ بِهِ عَنِ الْمَحَلِّ الْمَهِيْنِ ، وَالذَّرَكِ الْأَسْفَلِ
الَّذِي هُوَ فِيْهِ ، وَلَكِنْ أَيْنَ هُوَ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ
نُزِلَ تِلْكَ الْحَوَائِلَ مِنْ طَرِيقِنَا ، وَفِي أَيِّ مَكَانٍ
نَجِدُهُ ، وَلَيْتَنَّا نَهْتَدِيْ إِلَيْهِ ؟؟ إِنَّهُ وَاللَّهِ لَأَلْفَ مَرَّةٍ
خَيْرٌ مِنْ أَكْبَرِ عَالِمٍ ، وَأَفْضَلُ أَلْفَ مَرَّةٍ مِنْ
أَوْعَظِ الْوُعَاظِ عَلَى الْمَنَابِرِ ، كَأَحَدِ شُهُورِ اللَّهِ ،
فِي حَيَاتِهِ الْجَمِيْلَةِ ، وَأَسْمَى الدَّلَالَاتِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ
نُورَهُ السَّمَاوِيَّ الْمَشْرِقَ الْخَاطِفَ لِلْأَبْصَارِ ، يَنْبَغِي
أَلَّا يَحْتَجِبَ بَعْدَ الْيَوْمِ عَنَّا ، أَوْ يَتَوَارَى بَعْدَ
الْآنِ عَنِ أَعْيُنِنَا ، أَوْ يَخْفَى عَنَّا فِي الْغُمَارِ ^(١) وَزَاخِرِ
الْمُحِيطِ الْبَشَرِيِّ ، وَزَحْمَةِ الْحَيَاةِ الصَّاخِبَةِ ^(٢) .

(١) غمار الناس : غمهم ودهاؤهم (٢) الصاخبة : المختلطة الأسواط



النظرية
الدينية

وَلَعَمْرُ اللَّهِ مَا مَنَعَنَا عَنْ تَمْيِيزِ الْعُظَمَاءِ فِي الدُّنْيَا .
وَأِدْرَاكِ حَقِيقَةِ أَقْدَارِهِمْ ، وَتَقْدِيسِ مَقَامِهِمْ ، إِلَّا
النَّظَرِيَّةُ الدِّينِيَّةُ فِي الْخَيْرِ وَأَهْلِهِ ، وَالصَّلَاحِ وَرِجَالِهِ ،
وَمَا نَسِينَا مَعْنَاهَا وَتَأْوِيلَهَا مُنْذُ سَمِعْنَا بِهَا ، وَمُنْذُ
أُثْقِيتَ عَلَى النَّاسِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... لَقَدْ كَانَتْ صَرْخَةً
مِنْ مَحْرَابِ الْقَلْبِ ، وَصِيْحَةً مُنْبِعَثَةً مِنْ مَعْبَدِ
الْفُؤَادِ ، صِيْحَةً دَاوِيَّةً تُنَادِي بِقَتْلِ نَظَرِيَّةِ الشَّوَابِ
وَالِاسْتِحْقَاقَاتِ ، بَلْ لَقَدْ كَانَتْ الْعَرَضَ الدِّينِيَّ الْمُؤَلِّمَ ،
الْمُسْفِرَ لِفَضَائِلِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَمَزَايَا الصَّالِحِينَ ، وَأَخْلَاقِ
الْأَتَقِيَاءِ ، وَجُمْلَةِ جَدَوِلِ الصِّفَاتِ وَقَوَائِمِ النُّعُوتِ ،
الَّتِي اتَّخَذَتِ الْكَنِيسَةُ ، أَوْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى عُلَمَاءُ الدِّينِ

وَفَقَهَاوُهُ سِلْعًا وَبِضَاعَةً مُخْتَزَنَةً ، تُوزَعُ مِنْهَا عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ ، وَتُفَرَّقُ مِنْهَا عَلَى الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ عَلَى السَّوَاءِ .
 وَمَا كَانَتْ الْكَنِيسَةُ — عِلْمُ اللَّهِ — بِالْمَحَلِّ الَّذِي
 نَعْبُدُ مِنْهُ جَمِيعَ سُخْفِنَا ، وَغَثَائِهِ ^(١) تَعَالِيمِنَا ، فَجَعَلَ
 مِنْهُ هَذِهِ الْمَهْرَلَةَ الصَّغِيرَةَ ، الْمُخْتَقَرَةَ الْبَغِيضَةَ إِلَى
 النُّفُوسِ ، وَلَكِنَّ الْمُشَاهِدَ أَبَدًا فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ
 بِشُئُونِ الْبَشَرِ ، أَلَّا تَكَادَ الْحَقَائِقُ الرُّوحِيَّةُ
 تَسْتَحِيلُ إِلَى تَعَالِيمِ ، وَتَتَحَجَّرُ ، فَتَكُونُ مِذَاهِبَ
 وَنَظَرِيَّاتٍ ، حَتَّى يُصْبِحَ ذَلِكَ إِيدَانًا ^(٢) بِمَوْتِهَا ،
 وَالْقَضَاءِ عَلَيْهَا ، وَإِنَّهَا لَتَمُوتُ وَتَعْفُنُ وَيَبُلَى رُفَاتُهَا ،
 وَتَنْشُرُ رَوَائِحَ السُّوءِ ، وَشَذَى الشَّرِّ وَالْبَلَاءِ ، وَالْفَسَادِ
 وَالطَّلَاحِ ^(٣) ، وَالْأَذَى الْبَالِغَ .

(١) يريد التعاليم الحقة (٢) إعلماً (٣) ضد الصلاح



الأعمال
الحسنة

إِنَّ نَظْرِيَّةَ الْأَعْمَالِ الْحُسْنَةِ ، أَوْ تَعَالِيمِ الْبِرِّ
وَالْتَقْوَى ، وَالْفِعَالِ الطَّيِّبَةِ الْمَحْمُودَةِ ، الَّتِي كَانَتْ
الْأَذْيَانُ تُنَادِي بِهَا ، قَدْ طَغَتْ عَلَيْهَا غَرِيزَةُ إِحْسَاسِ
كَرِيمٍ ، وَشُعُورٍ نَبِيلٍ ، وَلَكِنَّ هَذَا الشُّعُورَ ذَاتَهُ ،
عَادَ هُوَ كَذَلِكَ فَاتَ وَانْدَثَرَ ، وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ
مَرَضٌ آخَرٌ ، وَانْتَشَرَتْ فِي أَثَرِهِ عِلَّةٌ جَدِيدَةٌ . وَلَيْسَ
فِي النَّاسِ الْيَوْمَ أَحَدٌ يَصْلُحُ لَشَيْءٍ ، ثُمَّ يُطَالِبُ
بِاسْتِحْقَاقِهِ عَنْ هَذَا الْعَمَلِ الْحَسَنِ ، أَوْ ذَاكَ مِمَّا أَدَّاهُ
أَوْ قَامَ بِهِ . وَكَذَلِكَ عَلَى قَدَرِ طَيِّبَةِ الْمَرْءِ وَنَصِيبِهِ
مِنَ الزُّوْعِ الصَّادِقِ إِلَى الْخَيْرِ ، تَكُونُ دَرَجَةُ انْبِعَاثِهِ
إِلَى رَفْضِ أَيْ جَزَاءِ عَنْهُ ، أَوْ قُبُولِ أَيْ ثَوَابٍ .

وَإِنَّهُ لَيَصِيحُ بِكُلِّ قُوَى نَفْسِهِ مُحْتَجًّا ، مُتَأَيِّيًا^(١)
قَائِلًا : إِنَّهُ لَا يَبْغَى عَلَى مَا يَفْعَلُ شُكُورًا ، وَلَا ثَوَابًا
وَلَا جَزَاءً .



وَمَعَ ذَلِكَ : نَحْنُ نَعْرِفُ جَمِيعًا وَنَشْعُرُ عَامَّةً ، أَنَّ الْفَوَارِقَ
الْخَلْفِيَّةَ
يَبْنِي كُلُّ إِنْسَانٍ وَالْآخِرَ فَارِقًا خُلُقِيًّا ، مُسْتَحِيلَ
التَّحْدِيدِ ، مُتَعَذِّرِ التَّعْيِينِ ، فَمِنَّا مَنْ هُوَ صَالِحٌ ، وَمِنَّا
مَنْ هُوَ طَالِحٌ ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ طَيِّبٌ ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ
رَدِيٌّ ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ مُتَرَاوِحٌ بَيْنَ ذَلِكَ . وَكُلُّ
مَسْلُكِنَا نَحْوُ بَعْضِنَا الْبَعْضِ ، خَاضِعٌ بِالضَّرُورَةِ
لِلْإِقْرَارِنَا بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ مَسْأَلَةٍ

الْإِرَادَةَ وَالتَّخْيِيرَ وَالتَّيْسِيرَ ، إِذْ نَحْنُ فِي الْوَاقِعِ لَسْنَا
 مِنْ صُنْعِ أَنْفُسِنَا ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كَمَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ
 نَكُونَ ، لَيْسَ لَنَا فِي أَمْرِ حَيَاتِنَا وَنُفُوسِنَا شَيْءٌ ،
 وَلَسْنَا نَحْنُ الَّذِينَ أُوجِدْنَا فِي هَذَا الْعَالَمِ أَوْ
 عَمِلْنَا عَلَى أَنْ نَحْتَجِزَ^(١) فِيهِ . وَإِنَّمَا نَحْنُ : كَمَا أَرَادَتْ
 الْعِنايةُ الإِلَهِيَّةُ أَنْ تَذَرَّأَنَا^(٢) وَتَبْرَأَنَا ، كَذَلِكَ نَحْنُ
 كَمَا فُطِرْنَا ، وَلَا شَيْءٌ غَيْرُ ذَلِكَ مُطْلَقًا ، ثُمَّ مَعَ هَذَا
 كُلِّهِ لَا تَزَالُ يُعَامِلُ بَعْضُنَا بَعْضًا عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ
 مَسْئُولُونَ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَا حِيلَةَ لَنَا فِيهِ ، وَلَا رَادَّ
 لَنَا عَنْهُ ، بَلْ إِنَّ أَشَدَّ الْغَلَاةِ^(٣) فِي أَخْذِ نَفْسِهِ بِالرِّيَاضَةِ ،
 وَكَبْجِ شَكِيمَتِهَا بِالتَّشَدُّدِ فِي الدِّينِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ،

(١) تقيم فيه (٢) ذرأه وبرأه : خلقه وفطره (٣) الغلاة : المتسددون

لَا يَزَالُ الْعَاجِزَ عَنْ اسْتِئْصَالِ غَرَائِزِهِ^(١)، بَلْ كُلَّمَا
أَوْحَتْ إِلَيْهِ عَقِيدَتُهُ الدِّينِيَّةُ، أَنْ يُحَارِبَ مُيُولَهُ إِلَى
الْأَشْيَاءِ أَوْ كَرَاهِيَاتِهِ نَحْوَهَا، اعْتِقَادًا مِنْهُ بِأَنَّهَا مَعَايِبُ
يَنْبَغِي التَّطَهُّرُ مِنْهَا، وَتَنَاقُصُ يَجِبُ الْبُرْءُ مِنْ وُجُودِهَا،
رَاحَتْ مُيُولُهُ وَنَوَازِعُهُ، وَأَهْوَاؤُهُ تَسْتَعْمِقُ فِي نَفْسِهِ،
وَتَتَغَلَّغُلُ وَتَشْتَدُّ ظُهُورًا، وَتَعْمَقُ تَلْوِينًا.

☆☆

غَيْرُ مُجْدٍ إِذَنْ وَلَا مَيَسُورٍ وَلَا مُسْتَطَاعٍ أَنْ نَهْتِكَ
الْحُجُبَ عَنْ تِلْكَ الْأَسْرَارِ السَّمَاوِيَّةِ الْمَحْجُوبَةِ عَنَّا،
لِنَهْتَدِيَ بِهَا، وَنَلْتَمِسَ طَرِيقَنَا فِي مَنَاكِبِ هَذِهِ
الْأَرْضِ عَلَى ضَوْئِهَا وَمَنَارِهَا، أَوْ نُحَدِّدَ مَشَاعِرَنَا
وَحَوَالِجَ نَفُوسِنَا بِإِرْشَادِهَا، بَلْ إِنَّ النَّاسَ لِأَخْيَارٍ أَوْ

الأسرار
السماوية

(١) غرائزه جمع غريزة : وهي الصفة النفسية

أَشْرَارٌ بِالنِّسْبَةِ لَنَا ، أَوْ لِمَدَارِكِنَا إِنْ شِئْتَ ، وَلَكِنْ
هَكَذَا نَحْنُ فِي الْحَقِّ ، وَهَكَذَا شَأُنُنَا ، وَمِنْ شَمِّ يَنْبَغِي
أَنْ نَعَامَلَ عَلَى هَذَا التَّحْدِيدِ ، وَنُنْظِرُ إِلَيْنَا مِنْ هَذَا
الْوَجْهِ .

وَلَيْسَ شَيْءٌ هُوَ أَبْعَدَ مِنَ الْحَقِّ ، وَأَنْأَى عَنِ
الصَّوَابِ ، مِنْ إِحْلَاحِنَا عَلَى السُّخْرِيةِ بِالطَّبَائِعِ
الْبَشَرِيَّةِ ، وَالْعَبَثِ وَالتَّهَانِفِ ^(١) بِهَا ، وَالنَّظَرِ إِلَيْهَا ،
كَأَنَّهَا شَيْءٌ فَاسِدٌ جُمْلَةً ، وَشَرٌّ كُلُّهُ بِلَا تَفَاوُتٍ مَا ،
أَوْ كَانَ أَفْضَلَ مَا يَنْبَغِي مِنْهَا ، أَوْ أَسْوَأَ مَا يَكُونُ
مِنْ تَنَاجُجِهَا ، هُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَوَاءٌ فِي الْقِيَمَةِ وَالْإِعْتِبَارِ .
وَإِنَّمَا هَذَا الَّذِي نَظُنُّهُ فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، هُوَ الَّذِي

(١) التهافت : الضحك باستهزاء

يُفْسِدُهَا فِي الْحَقِّ، وَيُودِي^(١) بِهَا وَيُحْطِمُهَا تَحْطِيبًا. قُلْ
لِرَجُلٍ مَا إِنْ لَيْسَ لِأَيِّ عَمَلٍ حَسَنٍ يَعْمَلُهُ قِيمَةً، وَلَا خَطَرًا
وَلَا قَدَرًا، يُصَدِّقَكَ فِي الْحَالِ وَيَعْتَقِدُ صِحَّةَ مَا قُلْتَ،
وَأَبْرَزُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَغْنِيَاءِ وَالْمُتَرَفِينَ^(٢).
أَوْ قُلْ فِي الرَّجُلِ الْقَدِيرِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَأَمْلَكَ
النَّاسِ لِمَوَاسِلِ أَدَائِهِ، أَوْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْحَثِّ
عَلَيْهِ، وَأَخْلَقُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ
الْحَقِيقَةُ لَا يَنْبَغِي بِلاَ رَيْبٍ أَنْ تُخَيِّفَنَا، فَإِنَّ
الْغَرَائِزَ الَّتِي وَضَعَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا، هِيَ مِنْ قُوَّةِ
الِاسْتِقْرَارِ، وَشِدَّةِ الْأَحْسَيسِ، وَمَبْلَغِ الْإِسْتِمْكَانِ

(١) يودي بها : يهلكها ويفنيها (٢) المترفين : المتنعمين

بَحِثْ لَا تَسْتَطِيعُ سَفْسَاطًا^(١) النَّظَرِيَّاتِ أَنْ تَسْتَأْصِلَهَا،
أَوْ تَقْتَلِعَهَا اقْتِلَاعًا .



فكرة
منحولة

نَحْنُ نُحِبُّ الرَّجُلَ الطَّيِّبَ وَنَعْدَحُهُ وَنُعْجَبُ بِهِ،
وَلَيْسَ لَنَا حِيلَةٌ فِي ذَلِكَ وَلَا طَوَاعِيَّةٌ، وَلَا اخْتِيَارٌ،
وَمِنْ الْجُبْنِ وَالنَّدَالَةِ بَلَا رَيْبٍ إِلَّا يُقْبَلُ الْمَرْءُ
عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِذَلِكَ جَهَارًا، وَالْإِقْرَارِ بِهِ عَلَى رُؤُوسِ
الْأَشْهَادِ، بَلِ الْإِعْتِرَافِ بِهِ، وَشُكْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَالْحَمْدُ
لَهُ بِسَبِيلِهِ^(٢). فَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ، وَلَا
فِي السَّمَاءِ حَقِيقَةٌ، هِيَ أخطرُ شَأْنًا مِنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ،
وَلَا أَكْبَرُ خَطَرًا، وَلَا أَعْظَمُ مَكَانًا، وَإِنَّ الْأَذْيَانَ

(١) السفسطاء والسفسطة : يونانية ، معناها قياس مركب من الوهميات

(٢) سبيله : أى واجبه وطريقه

لَتَقْقِدُ رُوحَهَا الْكَرِيمَةَ ، وَجَوْهَرَهَا السَّامِيَّ الْعَظِيمَ ،
إِذَا هِيَ أَصَرَّتْ عَلَى أَنْ تَفْرَضَ نَظْرِيَّةً مِنْ عِنْدِ
نَفْسِهَا عَلَى قُلُوبِنَا ، وَتُمَلِّي فِكْرَةَ مَنْحُولَةٍ ^(١) مِنْ
لَدُنْهَا عَلَى أَفْئِدَتِنَا ، فَإِنَّ مَسَّةً مِنْ هَذِهِ النَّظْرِيَّةِ
لِقَاتِلَةٍ مُدْمِرَةٍ مُحْطَمَةٍ ، كَمَسَّةِ الطُّورِ بِيَدِ أَوْ الْمُفْرِقِ
الشَّدِيدِ ، بَلْ إِنَّ هَذِهِ النَّظْرِيَّةَ لَتُدْمِرُ إِذَا هِيَ
مَسَّتْ كُلَّ انْبِعَاطٍ رَفِيعٍ ، وَكُلَّ اسْتِجَابَةٍ سَامِيَةٍ
كَرِيمَةٍ ، نَحْوُ طَلَبِ الْكَمَالِ وَالتَّطَلُّعِ إِلَيْهِ .

وَلَقَدْ قِيلَ مِنْ قَبْلُ إِنَّكَ لَوْ نَفَيْتَ الطَّبِيعَةَ
مُطَارِدَةً ^{الطَّبِيعَةَ} وَطَارَدَتْهَا وَتَتَبَعْتُهَا لَتُرِيَلَهَا مِنْ مَوْضِعِهَا ، عَادَتْ
إِلَى مَحَلِّهَا وَشَيْكَا ، وَاسْتَرْجَعَتْ مَوْضِعَهَا عَادِيَةً ^(٢) وَاثْبَةً

(١) منحولة : مختلفة (٢) عادية : من العدو وهو سرعة السير

مُبَادِرَةً ، وَنَحْنُ إِذَا أَغْفَلْنَا الْحَقِيقَةَ وَلَمْ نَحْفَظْهَا ، فَإِنَّمَا
نَمَلُّ الْفَرَاغَ بِمَا نَصْطَنِعُهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِنَا ، وَنَسُدُّهُ بِمَا
نُخْتَرِعُهُ مِنَ الْأَكَاذِيبِ ، وَنُلَفِّقُهُ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ الزَّيْفِ
وَالْتَّصُورِ ، وَإِنَّا لَنَشْهَدُ الْقِصَصَ النَّاجِحَةَ ، هِيَ وَحْدَهَا
الَّتِي تُصَوِّرُ لَنَا انْتِصَارَاتِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي مَعَارِكِ
الْحَيَاةِ الْحَدِيثَةِ ، وَتُمَثِّلُ لَنَا فَوْزَهُمْ فِي النَّزَاعِ عَلَى
الْعَيْشِ ، وَالتَّقَاتِلِ عَلَى مَطَالِبِهِ ، وَالتَّفَوُّقِ فِيهِ ، وَإِنَّ
هَذِهِ الرُّوَايَاتِ وَالْأَقَاصِصَ ، أَحَبُّ مَا تَكُونُ إِلَى
نُفُوسِ الْجَمَاهِيرِ ، وَأَفْتَنُ مَا تَكُونُ لِحَوَاطِرِ الشَّبَابِ ،
وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لَيْسَتْ الْحَقِيقَةَ ، وَمَا هِيَ مِنْ
الْوَاقِعِ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ ، بَلْ لَيْسَتْ فِي الْحَقِّ
سِوَى ظِلَالٍ وَصُورٍ عَارِيَةٍ ، وَنَمَازِجَ نَاقِصَةٍ مِنْ تِلْكَ

الْمَعَارِكِ الْحَقِيقِيَّةِ ، الَّتِي شَهِدَهَا كُلُّ قَارِئٍ فِي
 صُورَةٍ مَا ، أَوْ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْحَيَاةِ ، أَوْ تَأَقُّ^(١)
 إِلَى مُشَاهَدَتِهَا فِي دَائِرَةِ عَيْشِهِ وَأَفْقِهِ^(٢) الصَّغِيرِ
 الْمَحْدُودِ .

إِنَّ هَذِهِ الْقِصَصَ وَالرُّوَايَاتِ الْمَوْضُوعَةَ ، تَدُلُّ
 عَلَى مَبْلَغِ الْحَيْنِ الَّذِي فِي نُفُوسِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ أَيْنَ
 يَكْمُنُ^(٣) خَيْرُ؟ وَأَيْنَ تَقُومُ النَّبَالَةُ وَالْعِظَمَةُ وَالْفَضِيلَةُ ؟
 لَوْ أَنَّ لَدَيْنَا الشَّجَاعَةَ الْكَافِيَةَ لِمُوَاجَهَتِهَا ، وَالذَّهَابَ
 قُدَمَا إِلَى لِقَائِهَا ، بَلْ لَيْتَ شِعْرِي مَا حَاجَتُنَا إِلَى
 الْإِلْتِجَاءِ إِلَى الْخَيَالِ ، لِنُنْشِئَ مَا أَنْشَأَهُ اللَّهُ لَنَا جَاهِزًا
 مُفَصَّلًا حَاضِرًا مِنْ أَجْلِنَا ؟ !

(١) تأق مال وأحب (٢) وأفقه : دائرته التي يعيش فيها

(٣) يكمن : يختفي .



أفضل
الأفراد

إِنْ فِي كُلِّ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ
فَرْدًا عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ، هُوَ أَفْضَلُ النَّاسِ فِيهِ، وَنَوْعًا
مِنَ النَّاسِ هُوَ أَرْفَعُ مِنْ كَافَّةِ أَنْوَاعِهِمْ، فَرْدًا
يَعْمَلُ فِي صَمْتٍ، وَيَشْقُ طَرِيقَهُ فِي سَكُونٍ إِلَى الْجَنَّةِ،
وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا، وَيَعِيشُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا، وَيَتَقَلَّبُ
بَيْنَنَا، وَيَحْيَا فِي أَفْقِنَا وَمَجَالِنَا، فَلَنَذْهَبَ إِذْنٌ نَلْتَمِسُ
هَذَا النَّوعَ مِنَ الرِّجَالِ، وَلَنَمْضِ نُفُتَشَ عَنْهُ، وَنَبْحَثَ
فِيمَا يُكُونُهُ وَعَمَّا يُنْشِئُهُ، وَمِنْ أَىِّ مُرَكَّبٍ مِنَ
الْصِّفَاتِ يَتَرَكَّبُ؟ فَإِذَا مَا عَرَفْنَا ذَلِكَ وَأَدْرَكْنَاهُ،
أَقَمْنَا تَفَوْقَهُ وَمَزَايَاهُ وَلَعُوتَهُ وَصِفَاتِهِ مَقْيَاسًا مُعْتَرَفًا بِهِ،
وَمُسْتَوًى مُقَرَّرًا مُصَدَّقًا عَلَيْهِ، وَجَعَلْنَاهُمْ هُمْ أَنْفُسَهُمْ،

الشُّهُودَ عَلَى حَقِيقَةِ هَذَا الْمُقْيَاسِ ، وَالْأَدِلَّةَ الْمُحْسُوسَةَ
الْمَأْمُوسَةَ عَلَى وُجُودِ ذَلِكَ الْمُسْتَوَى الرَّفِيعِ .

نَبِّئُونَا : هَلْ مِنْ غَنِيٍّ صَاحِبِ مَالٍ ؟ هُوَ مُنْفِقٌ مَالَهُ
وَثَرَاءُهُ فِي إِنْشَاءِ الْمَدَارِسِ ، لَا فِي تَعْمُدِ الْجَنَّاتِ فِي
دَارِهِ وَالْمَنَابِتِ وَالْبَسَاتِينِ ، وَبَذْلُ مَنْ ثَرَوْتِهِ وَيَسَارِهِ
فِي سَبِيلِ إِقَامَةِ الْمَلَاجِئِ وَالْمَغَاسِلِ وَالْمَصَارِفِ لَا فِي
تَنْسِيقِ الْحَدَائِقِ الْغُلْبِ^(١) ، وَالْجَنَانِ الْأَلْفَافِ ، وَالرِّيَاضِ
الْأَنْفِ^(٢) ؟ . بَلْ هَلْ فِي الْأَغْنِيَاءِ وَالْمُثَرِّينَ مَنْ هُوَ
مُعْرِضٌ عَنْ زِينَةِ دَارِهِ وَتَجْمِيلِ قَصْرِهِ وَمَعْنَاهُ^(٣) ؟ ؟ مُقْبِلٌ
عَلَى إِنْشَاءِ الْأَكْوَاحِ الصَّحِّيَّةِ لِأَجْرَائِهِ^(٤) ، وَإِقَامَةِ

(١) الغلب : الملتفة الأشجار ، الوارفة الظلال (٢) الرياض الأنف :
التي لم ترع بعد (٣) المغني : المنزل الآهل بأهله (٤) جمع أجير :
وهو الذي يعمل عند غيره بالأجر

الدُّور الصَّغَارِ، النَّظِيفَةِ لِلْعَامِلِينَ فِي حُقُولِهِ، وَالْفَالِحِينَ^(١)
فِي أَرْضِيهِ ؟ ؟

إِذَا لَقِيتُمْ رَجُلًا كَهَذَا: فَلَا تَمْرُوا بِهِ فِي عَجَبٍ مِنْهُ،
وَلَا يَأْخُذْكُمْ الْفَرَحُ بِهِ لِحُظَةٍ، ثُمَّ يَتَلَاشَى مِنْ
قُلُوبِكُمْ. وَلَكِنْ هَامُوا نَفْسِكُمْ بِهِ، وَهَيَّا نَرْفَعَهُ
فَوْقَ مَنْصَةِ عَالِيَةٍ حَتَّى يَشْهَدَهُ أَمْثَالُهُ مِنْ عِرَاضِ^(٢) الْمَالِ
وَالْمُكْثَرِينَ وَالذَّهَاقِينَ^(٣)، لَعَلَّ قُلُوبَهُمْ تَخْزُهُمْ^(٤)،
وَضَمَائِرُهُمْ تُرْجِعُهُمْ، وَحَتَّى تَعْلَمَ الدُّنْيَا مِمَّا أَدَّاهُ فَرْدٌ
وَاحِدٌ، مَا قَدْ يَسْتَطِيعُ آخَرُونَ أَنْ يُودُّوهُ، وَحَتَّى تُدْرِكَ
الْإِنْسَانِيَّةُ مَبْلَغَ الْأُسُوءَةِ الْحَسَنَةِ، وَالْقُدُورَةِ الْمَائِلَةِ^(٥).

(١) فلاح الأرض : شقها ومنه الفلاح (٢) عراض المال : أى
واسعى الثراء (٣) الدهاقين : جمع دهقان وهو الرجل الواسع النعمة من
أهل فارس (٤) من وخزه بالابرة أو بالرمح أثر فيه (٥) المائلة :
المشاهدة المرئية

كَذَلِكَ قِسْ سَائِرَ فُرُوعِ الْحَيَاةِ وَنَوَاحِيهَا
الْمُتَعَدِّدَةِ ، وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ شَاقًّا كَمَا نَتَصَوَّرُ ، وَلَا
عَصِيًّا كَمَا نَظُنُّ ، فَإِنَّ الْأَدَاةَ مَيْسُورَةً ، الْأَدَاةُ
الَّتِي نَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى الْإِهْتِدَاءِ إِلَى الْعُظَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ ،
وَنَعْرِفُ بِهَا كَيْفَ نَسْتَخْدِمُهُمْ وَنَنْتَفِعُ بِهِمْ ، وَقَدْ نَجْهَلُ
تَطَوُّرَاتِ الظُّرُوفِ وَتَقَلُّبَاتِ الْأَحْوَالِ ، وَصَامِتِ
التَّغْيِيرَاتِ ، وَفُجَائِيَةِ الْحَادِثَاتِ ، وَلَكِنْ مَا ظَلَّ النَّظَامُ
الْحَاضِرُ قَائِمًا ، فَلَا خَيْرَ وَلَا جَدْوَى مِنْ حَمْلِ الدِّينِ
عَلَى الْعَمَلِ ، وَسَوْفَهِ إِلَى التَّغْيِيرِ وَالتَّهْذِيبِ ، وَلَوْ تَوَاتَى
لَنَا أَنْ نَجْعَلَ مُعَلِّمِي الشَّعْبِ وَوَعَظَتِهِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ
لِهُدَايَتِهِ ، أَفْضَلَ النَّاسِ وَأَحْكَمَهُمْ وَأَنْبَلَهُمْ نَفُوسًا ،
لَأَصَبْنَا مِنْ ذَلِكَ أَكْبَرَ الْخَيْرِ ، وَأَعْظَمَ الْحَسَنَاتِ ،

وَلَكِنْ مَا دَامَ هَذَا غَيْرَ مَيُّسُورٍ إِلَى الْآنَ، فَلَنَقْنَعْ
 إِذَا بِالْعَمَلِ، وَلَنَمُدَّ أَيْدِينَآ إِلَى الْعَجَلَةِ، لِنُمْسِكَ بِهَا مِنْ
 آيَةٍ نَاحِيَةٍ نَسْتَطِيعُ بِهَا الْإِمْسَاكَ، وَحَسْبُنَا أَنْ
 تَكُونَ كَنِيَسَتِنَا الْعَامَّةُ، هِيَ رُوحَ الشَّعْبِ عَامَّةً، وَضَمِيرِ
 الْمَجْمُوعِ، وَلَكِنَّا لِلْأَسَفِ لَمْ نَعْتَدْ بَعْدُ أَنْ نَنْظُرَ
 إِلَى الْفَرْدِ الَّذِي يَجْعَلُ عَمَلُهُ أَبَدًا وَفَقَ وَحْيِ ضَمِيرِهِ
 نَظْرَةً صَالِحَةً، وَإِنَّمَا نَعُدُّهُ الْبَائِسَ الْمُعَذِّبَ نَفْسَهُ،
 وَلَا نَرَى شَأْنَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الْخُلُقِيَّةِ، الَّتِي يُرْجَى
 مِنْهَا الْخَيْرُ وَالْبَرَكَاتُ، وَالْإِصْلَاحُ وَالْإِحْسَانُ مِ



إِلَى هُنَا قَدْ انْتَهَيْنَا مِنْ كُتُبِنَا الْخُمْسَةِ مُنْتَقِلِينَ ^{الخاتمة}
 بِكَ إِلَى تَمَامِ السَّلْسِلَةِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ ،
 رَاجِينَ أَنْ نُلِمَّ بِهَا سَوِيًّا وَمَا سَيَلِيهَا مِنْ كُتُبِ
 الْمَجَازَاتِ وَالْأَمْثَالِ وَفِقِهِ اللُّغَةِ وَالْمُتَرَادِفَاتِ وَالْمَنْشُورِ
 وَالْمَنْظُومِ وَالْمُعَلَّقَاتِ ، إِمَامَةً مُوجِزَةً مُتَوَاضِعَةً
 فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، وَمُخْتَلَفِ النَّوَاحِي فِي دَرَسِ لُغَةِ
 الْعَرَبِ ، وَنَرْجُو أَنْ يُتَاحَ لِعَيْرِنَا الْمَزِيدُ — وَكَمْ نَرْجُو
 أَنْ نَكُونَ فِي سِمَطٍ ^(١) ذَلِكَ الْغَيْرِ ؟ — فَيُفَرِّدَ لَنَا كُتُبًا
 فِي النَّقْدِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَالْقِصَّةِ وَالْجَدَلِ ، وَالتَّفْسِيرِ ،
 وَالْحَدِيثِ ، وَالْمَنْطِقِ ، وَفِي الْإِخْتِرَاعِ ، وَالْإِجْتِمَاعِ ،

(١) السمط بالكسر : خيط النظم ما دام فيه الحرز واللؤلؤ — والمعنى
 في سلكه .

وَالْإِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَصَارَةٍ^(١) الْأَذْهَانِ ، وَبَنَاتِ
 أَفْكَارِ الْعَصْرِ . وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تُفَكَّرَ جَدِّيًا
 فِي وَضْعِ الْأُسُسِ الْأُولَى فِي مَشْرُوعِ الْمَوْسُوعَةِ
 الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَتَحَقَّقُ فِي يُسْرِ
 وَطُمَأْنِينَةٍ إِذَا مَا تَوَفَّرْنَا عَلَى إِعَادَةِ طَبْعِ مَا وَضَعَهُ
 السَّلَفُ الصَّالِحُ فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ جَهَابِذَةٍ^(٢)
 اللِّسَانِ وَمَشِيخَةِ اللُّغَةِ ، وَأَعْمَةِ الْأَدَبِ ، وَنَاطُورَةٍ^(٣)
 الْبَيَانِ ، وَرِجَالَاتِ^(٤) الْعِلْمِ ، لِتَكُونَ تُكَاءَةً وَعَعْدَادًا
 لَنَا ، أَوْ لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا فِي هَذَا السَّبِيلِ ، كَمَا نَرْجُو
 أَنْ نَعْمَلَ عَلَى بَعْثِ^(٥) آثَارِ جَمَاعَةِ صَالِحَةٍ مِنْ أَعْمَةٍ

(١) عصارة : خلاصة (٢) الجهبذ : الناقد العارف بتميز الجيد من

الردى . (٣) ناظورة البيان : أئمتة ومن يشار إليه بالبنان .

(٤) رجالات : جمع لرجال جمع تكسير لرجل (٥) البعث : الاحياء

الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ وَالْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ أَمْثَالِ : عَبْدِ الْحَمِيدِ
 الْكَاتِبِ ، وَابْنِ الْمُقَفَّعِ ، وَابْنِ الْجَاحِظِ ، وَالْغَزَالِيِّ ،
 وَابْنِ ظُفَرٍ ، وَيَاقُوتٍ ، وَابْنِ مَسْكُوتٍ ،
 وَابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ ، وَابْنِ قُتَيْبَةَ ، وَالْقَالِيَّ ، وَالْمَقْرِيَّ ،
 وَالْمُبَرِّدَ ، وَابْنَ بَسَّامٍ ، وَالشَّعَالِيَّ ، وَالطَّبْرِيَّ ،
 وَالْعُقُوبِيَّ ، وَالْمُسْعُودِيَّ ، وَالصَّابِيَّ ، وَالْجَهْشِيَّ ،
 وَغَيْرِهِمْ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْحَيَاةِ قَشِيبٍ^(١) . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
 أَوَّلًا وَآخِرًا .

(١) القشيب : الجديد .

فهرست

كتاب الهامش على المقدمة

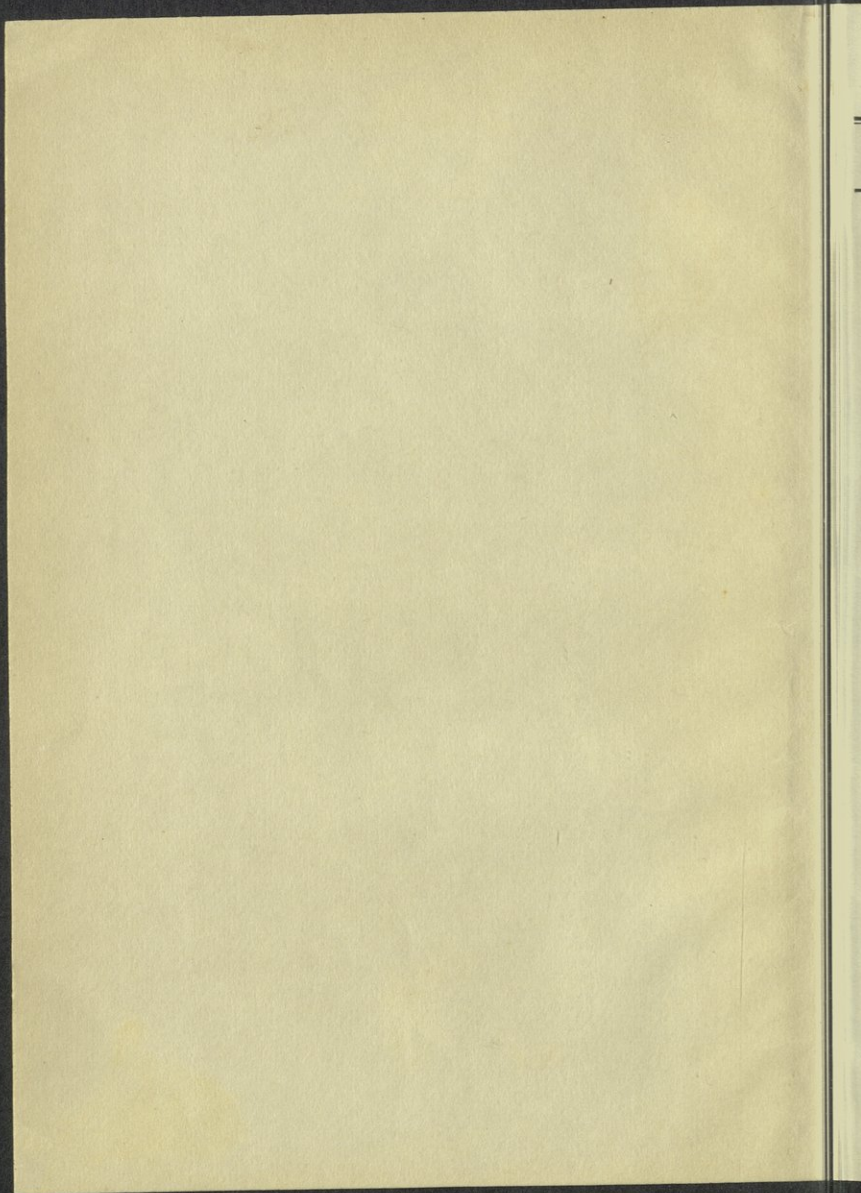
الموضوع	الصحيفة	
	من	الى
المقدمة	١	٨
كلمة يحيى بن خالد	٨	١٢
النوايع والعظماء	١٢	١٥
أمانى الشباب	١٥	١٨
العظماء فى أجيالهم	١٨	١٩
الدين والعظماء	١٩	٢٢
مدارج الثقافة	٢٢	٢٦
مهمة العظيم	٢٦	٣٢
نظرننا الى العظماء	٣٢	٣٦
المخترعون والطبيعة	٣٦	٣٨
الانسان والطبيعة	٣٨	٤٠
المنافع الأولية	٤٠	٤٣

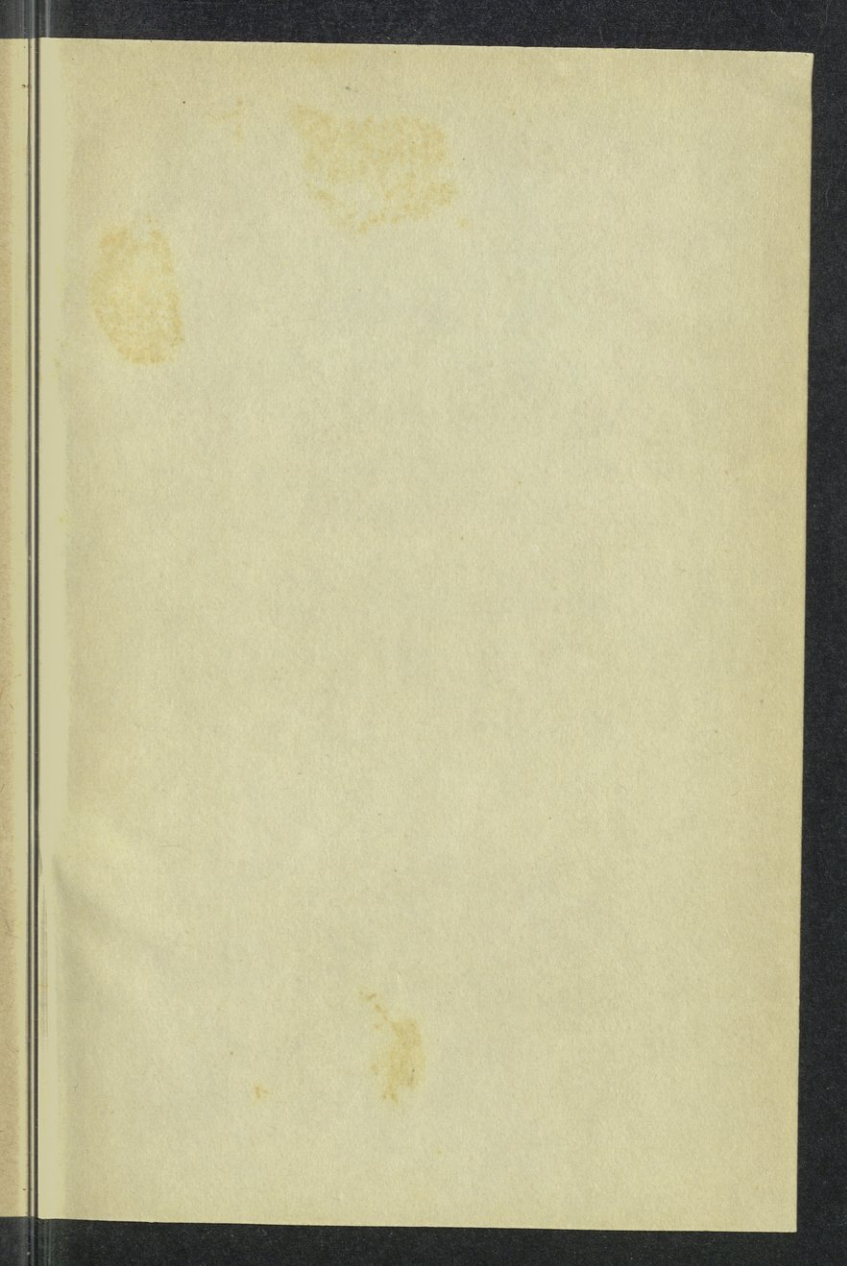
الموضوع	الصحيفة	
	من	الى
النواحي الروحية للمادة	٤٣	٤٦
أصل الإنسان	٤٦	٥٢
تأثر الفكر والعاطفة	٥٢	٥٦
حكمة التراجم	٥٦	٥٩
اكبار العظماء	٥٩	٦٢
كاشفو المادة	٦٢	٦٤
كيف نختار العظماء	٦٤	٦٦
الادراكات التصورية	٦٦	٦٨
سلطان العظيم وخطره	٦٨	٧١
أثر المرشد العظيم	٧١	٧٣
تطلع النفس الى الطريف	٧٣	٧٤
تعدد مظاهر النبوغ	٧٤	٧٧
الهداة الأوائل	٧٧	٨٠
العظماء والانسانية	٨٠	٨٢
فضل الفكر على العالم	٨٢	٨٦
التناحر على الحياة	٨٦	٨٧
مثار الاعجاب من العظماء	٨٧	٨٩
عنصر الايثار روح العظمة	٨٩	٩٠

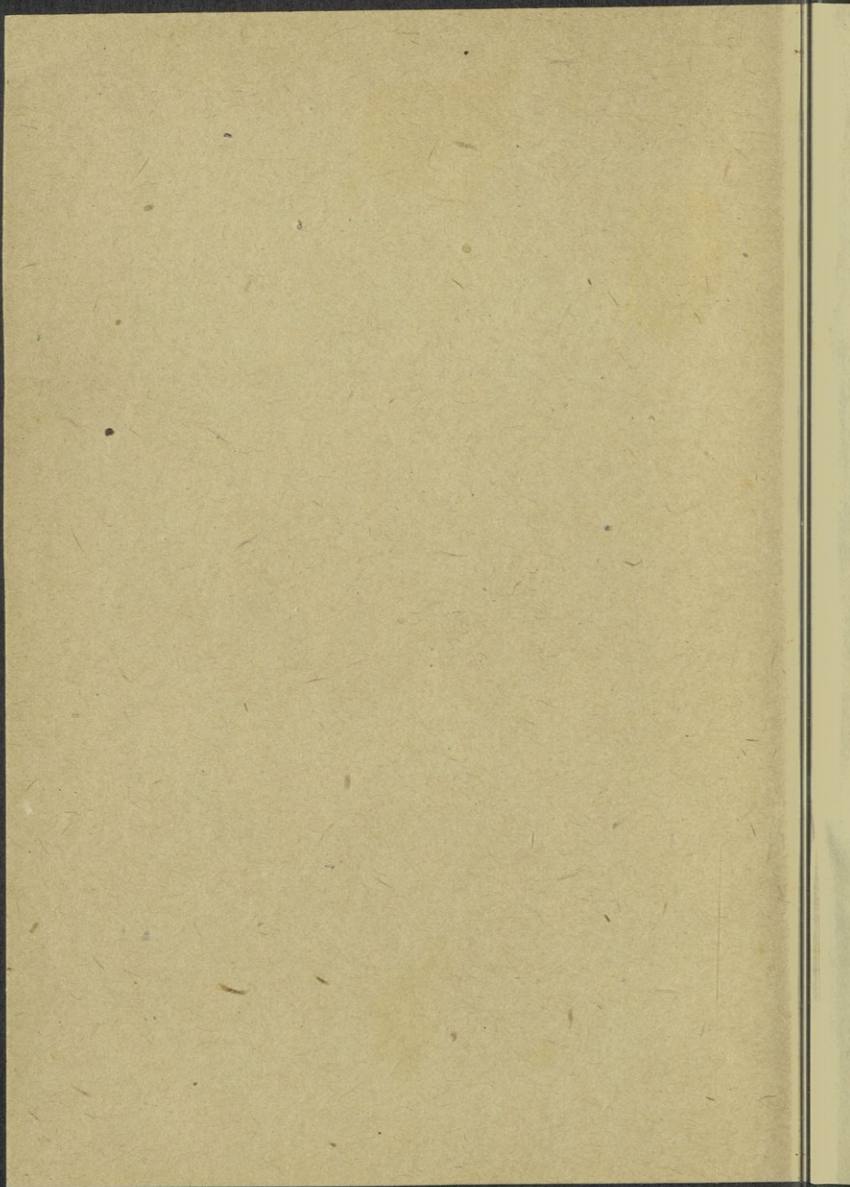
الموضوع	الصفحة	
	من	الى
مزايا العامة	٩٠	٩٧
تراث الجيل في الفرد	٩٧	١٠٠
أثر الخلطاء	١٠٠	١٠١
أثر العظماء في حماية العامة	١٠١	١٠٣
أخطار العظمة	١٠٣	١٠٥
حصانة العبقريّة	١٠٥	١٠٨
حماية الطبيعة للفرد	١٠٨	١١٠
لا مهانة في خدمة العظيم	١١٠	١١٣
العظماء والشباب	١١٣	١١٦
مدرسة المجتمع	١١٦	١٢٠
رجال الساعة	١٢٠	١٢٢
السمو الحقيقي	١٢٢	١٢٤
تاريخ العظماء	١٢٤	١٢٥
عظمة الانسانية	١٢٥	١٢٩
أثر النبوغ	١٢٩	١٣١
محاربة الفوضى	١٣١	١٣٣
الرد على ايمرسون	١٣٣	١٣٥
نابليون بونابرت	١٣٥	١٣٧

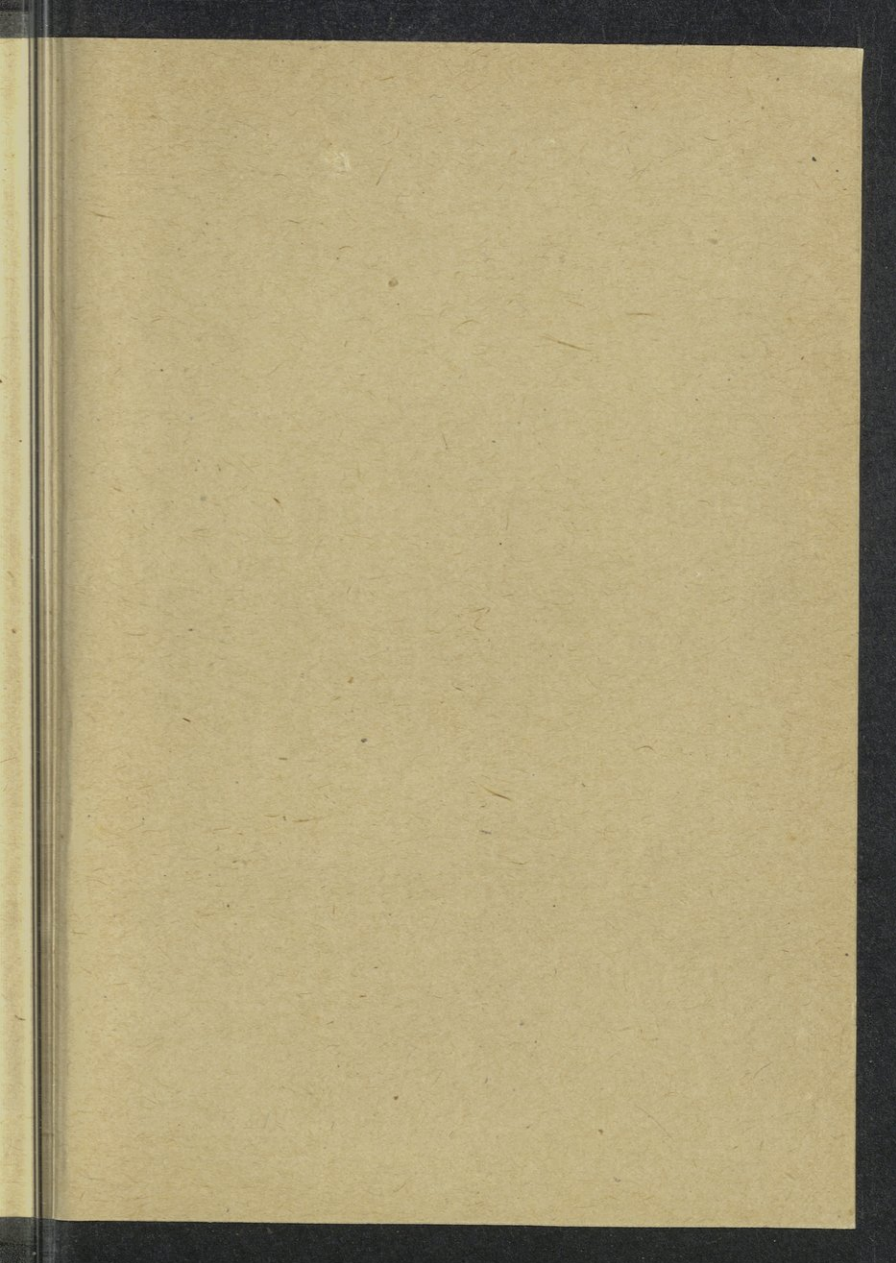
الموضوع	الصحيفة	
	الى	من
الأوليات	١٣٩	١٣٧
حقيقة العظمة والنبوغ	١٤١	١٣٩
الرجل العملى	١٤٥	١٤١
النبى والفضيلة	١٤٩	١٤٥
الواجب الايجابى والسلبى	١٥٣	١٤٩
رأى باتلر	١٥٤	١٥٣
فلسفة العصر الحديث	١٥٨	١٥٤
الأولياء والقديسيون	١٦٣	١٥٨
تراجم العصر الحديث	١٦٦	١٦٣
التربية والتعليم	١٧٠	١٦٦
كشافة الفضيلة	١٧٣	١٧٠
طابع العصر الحاضر	١٧٦	١٧٣
تربية الابناء	١٨٠	١٧٦
تمائيل العظماء	١٨٣	١٨٠
ظهور ايمرسون	١٨٦	١٨٣
مصير عبادة البطولة	١٨٨	١٨٦
أوامر الدين	١٩٠	١٨٨
الشجاعة	١٩٤	١٩٠

الموضوع	الصحيفة	
	الى	من
الحياة العملية	١٩٧	١٩٤
خواص الأعمال	٢٠٠	١٩٧
الغد	٢٠٢	٢٠٠
مشكلة العمل والعمل	٢٠٥	٢٠٢
تقسيم الأعمال	٢٠٧	٢٠٥
حياة الأفراد	٢٠٩	٢٠٧
نظرة في التعليم	٢١٠	٢٠٩
اختيار المرء	٢١٢	٢١٠
الرأى العام	٢١٣	٢١٢
الرجل العظيم	٢١٦	٢١٣
النظرية الدينية	٢١٨	٢١٦
الأعمال الحسنة	٢١٩	٢١٨
الفوارق الخلقية	٢٢١	٢١٩
الأسرار السماوية	٢٢٤	٢٢١
فكرة منحولة	٢٢٥	٢٢٤
مطاردة الطبيعة	٢٢٨	٢٢٥
أفضل الأفراد	٢٣٣	٢٢٨
الخاتمة	٢٣٥	٢٣٣









892.708:R56mA:v.5:c.1

رفاعي، احمد فريد

مكتبة القراءة والثقافة الادبية للحبيب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032586

American University of Beirut



892.708

R56mA

v.5

General Library

892.708

R56mA

v. 5